الدولة العثمانية

من الكتاب

الفتوحات الإسلامية

بعد مضي الفتوحات النبوية

تأليف

السيد احمد بن زيني دحلان

مفتي مكة

الجزء الثاني

ويليه

المسلمون المعاصرون

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

قد اعتنى بطبعه

حسين حلمي بن سعيد استنبولي

IŞIK KİTABEVİ
H. K. 35 Fâtih - İstanbul
Telefon : 21 82 27
1980

بسم الله الرحمن الرحيم

58961

الدولة العثمانية وفتوحاتها ثبت الله عليهم
ووفقهم لما يحبه ويرضاه

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الإسلامية ، يعلم علما قطعياً أن الدولة العثمانية من أحسن سير الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة صحيحو العقيدة ناصرون لأهل السنة قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ليس عندهم شيء من الزيغ والابتداع ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة قائمون بشعائر الإسلام لا سيما فى الحرمين الشريفين ، فإن لهم فيهما الصدقات والخيرات الكثيرة وقائمون أيضاً بشعائر الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار فيجب على كل مسلم أن يدعولهم بالتثبيت والتأييد، والإعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه واشتهر أنهم من التركان ، وإن كان نسبهم ينتهى إلى يافث بن نوح عليه السلام، وقيل أن أصلهم من العرب فقد ذكر العلامة السنجارى فى تاريخه نقلا عن صاحب دور الأثمان فى أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنورة ،وأن جدهم الأعلى هاجر من بلاد الحجاز ،قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله أفندى لا نريد

Marfat.com

أن ندخل فى هذا البحث لـكن غاية مانقول أن هذه العائلة الشريفة هى أشرف العشائر الإسلامية ، ثم ذكر أن جدهم هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه ، وسليمان شاه سلطانا فى بلاد ماهان بالقرب من بلخ ، فلما ظهر التتر أفسدوا فى الأرض وخربوا البلاد ، وكان من جملة ماخربوه بلخ وأعمالها ، فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم وقصد بلاد الروم ، وكان قد سمع بدولة السلجوقية التى فى الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الـكفار فخرج وتبعه فى ذلك خلق كثير فلما وصلوا إلى أذربيجان تقاتلوا مع الـكفار وغنموا منهم شيئاً كثيراً ، ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر ، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء ، ففرق سليمان شاه ، ومات غريقا شهيداً فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره هناك مشهوراً يزار ويتبرك به ، وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدى وأرطغرل ، فلما وصلوا إلى موضع يقال له ياسين أو مسى رجع سنقور وكون طوغدى أبناء سليمان شاه إلى بلاد العجم وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزالب وصاروبنى وعثمان ومكث أرطغرل فى ذلك المواضع يجاهد الـكفار ثم أرسل ابنه صاروبنى إلى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقى يستأذنه فى الدخول إلى بلاده ويطلب منه موضعاً ينزل فيه فعين له جبال طوماليج وجبال أرمنك وما بينهما موضعاً للسكنى ، فأقبل أرطغرل مع أربعمائة بيت من قومه فتوطنوا فى قره جه طاغ . وفى سنة خمس وثمانين وستمائة نازل السلطان علاء الدين السلجوقى بعساكر كثيرة وممه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية وهى يومئذ بيد الـكفار فقوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل وسار هو إلى قتال التتر بسبب تمرضهم لبعض بلاده ، ولم يزل الأمير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئاً كثيراً فازداد عند السلطان علاء الدين قربا ومنزلة ولم يزل الأمير ارطغرل يجاهد فى سبيل الله حتى توفى فى سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمائة فتأسف عليه وعين مكانه ولده الأمير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فى الجهاد وعلم نجابته فى فتح البلاد فأكرمه وأمده بأنواع

Marfat.com

الإضافة والإمداد وجعله سلطانا مشاركا للسلطان علاء الدين فى السلطنة وأرسل إليه الراية السلطانية ، والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدى (السلطان عثمان) نهض قائما على قدميه إعظاما للسلطان علاء الدين وما زال قائما حتى فرغوا ، فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة فى الأسفار والأعياد ، وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمائة ، وكانت سلطنته على البلاد التى افتتحها أبوه والتى افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قره حصار وحصن قره وقصبة وبنى كوى وقلعة بلاجك ومدينة بنى شهر وغير ذلك ولما تسلطن جعل كرسى سلطنته قره حصار ، ثم نقله إلى بنى شهر وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له قال بعض المؤرخين : أن الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الإسلام ، فإن كل واحد منهم فعل أفعالا باهرة وغزا غزوات قاهرة يستحق أن تخلد فى بطون الأسفار لكى يقتدى بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ويعلموا أن أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الأكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم فى كتب التواريخ ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التى قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم ، فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك براً وبحراً إلى أبعد مكان ، فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الأفرنكية ويعطونهم الطاعة والخضوع وكان السلطان عثمان جدهم واسطة عقدهم ومؤسس دولتهم ، وكان السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن فى السن حين أن أشرك معه السلطان عثمان لأنه تولى السلطنة سنة ٦٥٤ أربع وخمسون وستمائة واستمر إلى أن توفى سنة ٧٠٠ وبقى بعض ممالكهم تحت يد بنيه وأبناء عمه مع ضعفهم عن حفظها وآخر من بقى فى السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس وتوفى مسعود سنة ٧١٨ فاضمحلت دولتهم وكان لهم من

Marfat.com

التتر عساكر كثيرة كانوا متغلبين عليهم فاستولى عليهم السلطان عثمان وبنوه من بعده وصارت الممالك كلها بأيديهم ، ومن الممالك التى افتتحها السلطان بعد سلطنته حصن الصفصاف المعروف بقلعة بلاجك وكان الخليفة هارون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ثم استولى عليه الكفار واستمر بأيديهم إلى أن افتتحه الغازى السلطان عثمان المذكور وسيأتى ذكر بقية فتوحاته ، وكان السلطان عثمان المذكور عادلا زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة شجاعا مرابطا فى سبيل الله مجاهداً يراعى الأبطال ويحسن للأيتام والأرامل ومن زهده فى الدنيا أنه توفى لم يترك من المال شيئاً وإنما ترك بعضا من الخيل وشيئا من الغنم التى ترعى فى نواحى بروسا باسم السلاطين العثمانية وهى من نسل تلك الأغنام وترك أيضا بعد وفاته قفطانا وعمامة وبعض مناطق من القطن وملعقة ومملحة فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين العظام الذين شيدوا الإسلام وكان صحيح العقيدة على عقيدة أهل السنة يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن إليهم ويعظمهم ويقوم بحقوقهم وكان شديد التعظيم لشعائر الدين وللقرآن العظيم . يحكى أنه قبل أن يتسلطن سافر إلى موضع نزل فى طريقه ضيفاً عند إنسان فلما أراد النوم هيأ له صاحب المنزل موضعاً لينام فيه فلما دخل ذلك الموضع رأى مصحفاً معلقاً فى جدار ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف معلقاً بذلك الموضع ورأى أن ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف على قدميه قائما إلى الصباح مستقبلا للمصحف ويداه على صدره وذلك دليل على قوة إيمانه وصحة اعتقاده رحمه الله تعالى وكان كثير التردد على الشيخ العارف بالله تعالى أدبالى القرمانى فرأى السلطان عثمان ليلة فى منامه أن قمراً خرج من حصن الشيخ المذكور فدخل فى حصنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأى تحتها جبالا راسيات وتجرى عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه ويملأون منها وينتفعون من المياه فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال له الشيخ وكان من المكاشفين لك البشرى بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك

Marfat.com

وأنى زوجتك ابنتى هذه فقبلها السلطان عثمان وتزوج بها فولدت له أولاداً منهم السلطان أورخان وهو جد سلاطين آل عثمان أيد الله دولتهم على ممر الزمان وبسط الكلام على فتوحات السلطان عثمان الغازى وغزواته مذكورة فى التواريخ المبسوطة لا سيما التواريخ التى باللسان التركى وكذلك مناقبه وبقية سيرته كل ذلك شىء طويل مذكور فى التواريخ المذكورة وإنما الذى يمكن ذكره هنا من ذلك شىء يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته فمن غزواته وفتوحاته قرا حصار وجعلها كرسى ملكه كما تقدم إلى أن فتح بنى شهر فنقل كرسى ملكه إليها ثم فتح حصن يار حصار وقصبة اينة كول وبنى شهر وأظهر فيها شعار الإسلام . وفى سنة ٧٠٠ اشتغل بقتال الكفار فى طرف ازنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين فأرسل صاحب ازنيق إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به فأمده بجيوش كثيرة فى سفائن عديدة فلما وصلوا إلى الساحل من طرف يلاق أره كمن هم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلم ينج منهم إلا الشاذ النادر وفى غضون ذلك توفى السلطان علاء الدين السلجوقى سنة سبعمائة وكثر الهرج والمرج فى بلاده فالتحق أكثر عساكره بالغازى السلطان عثمان كذلك . وفى سنة ٧٠٧ فتح السلطان عثمان مرمرة وفى هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور فاجتمعوا فى جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفاً فقاتلوا المسلمين أمام قيسون حصارى فكان يوما شديداً على الكفار قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن أعمال بروسا وفاز المسلمون بالغنائم واستولوا على حصن كستل ، ثم ساروا إلى أولوبار فغلبوا عليها واصطلح معهم صاحبها على خراج يؤديه . وفى هذه السنة أيضاً استولى على حصن كته والبلاد الملحقة بها وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم إياها واستقر هو فى بنى شهر وتمكن بها وجعلها دار الأمان وبنى فيها البقاع وأشاد القلاع وأسكن فيها الجند وفى سنة ٧٠٨ فتح حصن لفكة وحصن آق حصار وحصن توق حصار وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين . وفى هذه السنة أعنى سنة ٧٠٨ كان أول حدوث البارود وأما حدوث المدافع فكان سنة ٧٦٢ وفى سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوة وحصن طرقلو بنى جه سى

Marfat.com

وحصن تكور بيكارى وغيرها ، وفى سنة ٧١٣ افتتح حصن أونوس وبلادها وعينه كلى وراوبناس حصار وغير ذلك ، وفى سنة ٢٢ نازل الغازى السلطان عثمان المذكور مدينة بروسا وحاصرها مدة، ثم لما اشتد الحصار أمر ببناء قلعتين فى طرف المدينة وأسكن فيها الجند وأمرهم بالتضييق على أهل البلد وقطع الميرة عنهم وجعل فى إحدى القلعتين أحد بنى عمه وفى القلعة الأخرى أحد الشجعان من عبيده، ثم رجع السلطان إلى ينى شهر ، وفى سنة ٧٢٣ وسبعمائة فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارنى وبلاد اقيازى ، وفى سنة ٢٠ فتحت يلاق أباد وحصن قاندرى وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة إلى فاتحها لأن الأمير الذى فتحها يقال له قوجه ومعناه باللغة التركية شيبة . وفى هذه السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن بولى وحصن صحانونى وما ينضم إليها وفيها فتحت بلاد قره مرسل على يد الأمير قره مرسل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها وهى بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها إلى القسطنطينية وفى هذه السنة أيضاً أرسل السلطان عثمان ابنه أورخان إلى فتح بروسا وصحبته عساكر كثيرة وكان السلطان عثمان إذ ذاك مريضاً بعلة النقرس فتخلف عن ذلك الغزو وقعد فى ينى شهر ، وفى مدة حصار ابنه مدينة بروسا توفى السلطان عثمان المذكور وقيل بل عاش بعد فتح المدينة أياما فكانت وفاته سنة ٧٢٦ ومولده سنة ٦٥٦ وعمره ٦٩ سنة ومدة ملكه ٢٦ سنة . ولما توفى كان بيده الممالك التى افتتحها هو وأبوه أرطغرل والممالك التى افتتحها السلجوقية فكانت بأيديهم وكان ملكهم لها على التدريج فى سنين متعدد وهى قونية ووان واقصرا وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطمونى وأنكورية وملطية ومرعش والبستان وتوقات وأماسيه ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعنتاب وتسلطن بعده ولده أورخان فى ابتداء سنة سبع وعشرين ولما توفى السلطان عثمان جاء الخبر لابنه السلطان أورخان وهو يحاصر مدينة بروسا كما تقدم .

ذكر فتح بروسا

ثم أنه بالغ وبذل جهده فى حصار أهلها وقتالهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها داراً للاسلام بعد أن كانت معقلا لأهل الأوثان والأزلام ونقل

Marfat.com

كرسى ملكه إليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والأيتام والغرباء وهذه المدينة من أعظم المدن الإسلامية وآعمرها وهى مدينة كثيرة الثمار والعيون ..

ذكر فتوحاته فى بلاد اليونان

ولما نقل السلطان أورخان كرسى الملك إلى مدينة بروسا أخذ فى الاهتمام والإستمداد الافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالشفقة والرحمة حتى أن كثيراً من النساء الروميات اللاتى فقدن أولادهن ورجالهن فى تلك الحروب كن يستغثن به ويقمن على قدميه ويطلبن المساعدة والرعاية فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت إليه قلوب الناس وما زال يتقدم فى فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولى واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعة وفتح مدينة كليبولى وهى مفتاح القسطنطينية، وفى سنة ٧٣١ سار السلطان أورخان بعساكر ففتح حصون قيسون حصارى وفتح أزميد وفتح مدينة أزينوب وكانت من أعظم مدائن الكفار ومجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وفتح حصونا كثيرة ، وفى سنة ٧٥٨ أمر السلطان أورخان ولده الأمير سليمان أن يجتاز البحر الأبيض إلى طرف روم إيلى للجهاد ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحا شبه السفن فركبوا عليها فى الليل من موضع يقال له كمر فوصلوا إلى ذلك البر فصادفوا حصناً يسمى جمنا فاستولوا عليه بما فيه ثم هجموا على قلاع أخرى فاستولوا عليها قهراً .

ذكر القتال مع كليبولى

وكان الأمير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدالة فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به فسار أمر المسلمين ينمو وصيتهم يسمو فخرج لقتالهم صاحب كليبولى فى عسكر كبير وكان المسلمون فى عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوهم قتالا شديداً فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولى وهى مدينة جليلة

Marfat.com

على شاطىء البحر وبينها وبين القسطنطينية ٨٦ ميلا ونصف ميل ومنها قلعة قره جك وقلعة خيره بول وهى بلاد متسعة ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغى وغير ذلك وخرب الكنائس والبيع وبنى مكانها مساجد ومعابد ، وفى سنة ٧٦٠ خرج الأمير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فمات لوقته فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً وفى هذه السنة عبر الأمير مراد الغازى ابن السلطان أورخان إلى طرف روم إيلى من خليج كليبولى ففتح مدينة جورلى وهى من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ولم يزل مراد الغازى يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهى من كبار البلاد الإسلامية ، وفى سنة ٧٦١ توفى السلطان أورخان وعمره ٨٣ سنة ودفن بمدينة بروسا ومدة ملكه ٣٥ سنة وكان ملكا جليلا ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدواً لأهل الكفر والإلحاد وكان كثير الغزو والجهاد وبنى كثيراً من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده (السلطان مراد الأول) فلما جلس على سرير الملك وحاصر مدينة أنكورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون ، فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشى على بلاده فجمع جموعا من التتر وورشق وطورغود والتركمان وغيرهم وسار بجموع لا يحصى لقتال السلطان مراد المذكور فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد ، ثم انجلى الأمر عن هزيمة ابن قرمان وانتصر السلطان مراد .

ذكر فتح أدرنة

وفى هذه السنة أيضا جهز السلطان مراد جيشا وأرسله لفتح أدرنة ، وجعل عليه شاهين لالا الأنابك ، فاقتتلوا قتالا شديدا وعجزوا عن أخذها ، وسألوا السلطان مراد أن يقدم عليهم بنفسه فسار السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر ، فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم ، فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا السلطان فحمد بذلك الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة ،

Marfat.com

وهى من أعظم مدن الدنيا تجرى من تحتها ثلاثة أنهار وبينها وبين القسطنطينية سبعون ميلا ، ثم أرسل لالا شاهين الأنابك ففتح مدينة فلبه ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا إلى مدينة بروسا . ومن غزواته أنه سار إلى أقليمى الصرب والبلغار وفتح فيها فتوحات وأتخنهم قتلا وأسراً وكان ببرالأناضول جملة من أمراء الأتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكدونيا وبلاد الأرناؤود وفتح كثيراً من بلاد اليونان وعبر بحر مرمرة وفتح مدنا وقلاعا جهة تاسناليا .

ذكر ابتداء اختراع عسكر الانكشارية

وفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الأسارى من الغانمين على زقاق كليبولى وكان الغزو والجهاد فى بلاد الروم ايلى متتابعاً ، فكانت تسبى الأسارى وتأتيه كالسيل الهامى والبحر الطامى فاجتمع منهم عند السلطان طائفة كثيرة ، فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمى بالبندق فتعلموا ثم ميزهم وأرسلهم إلى خدمة الشيخ الحاج بكتاش ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعوا لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند العارف بالله تعالى الشيخ قطع كم قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جرى والجارى على الألسن انكشارى ومعناه العسكر الجديد لأن السلطان عثمان كان أكثر عساكره من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكرى ولا انتظام لهم حال القتال فاستصوب السلطان أورخان ترتيب عساكره على هذا الوجه فأحدث وجاق الانكشارية ورتبه ولم يتمه وصار تمام انتظامهم على يد ابنه السلطان مراد واستمر وجاق الانكشارية إلى زمن السلطان محمود الثانى فأبطله وأبادهم كما سيأتى سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف وأحدث النظام الجديد الموجود الآن وفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة اشترى السلطان مرادخان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهى بلواج وينى وآق شهر وقره شهر أغاج وسيدى شهر . وفى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خرج السلطان مراد المذكور إلى

Marfat.com

فقال رئيس الكفار ابن لازقا وكان قد تجمع لقتاله أهل اليونان والصرب والافلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار وتحزبوا جميعاً عليه فاتفق موافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصو ببلاد الروم ايلى فالتحم بين الفريقان القتال إلى أن هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس القوم الكافرين وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين .

ذكر استشهاد السلطان مراد الأول

ثم أنه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش فى خيله ورجله مظهراً للطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان فى كمه فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك أحد من طرف كمه وآخر من كمه الآخر احترازاً من ذلك ، فمات السلطان سنة سبعمائة واثنتين وتسعين من ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هناك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسا وقتلوا ذلك الكافر الذى ضربه وقطعوه بالخناجر وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكا جليلا عارفاً وكان أفنى عمره فى الجهاد وكان شجاعا مقداماً عالى الهمة توفى وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة وتسلطن بعده ولده (السلطان السعيد يلدرم بايزيدخان) وبعد جلوسه أخذ فى محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم وتقوت عساكره إلى أن وصلت إلى ودين وتملكوا مدينة أسكوب والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجاً سنويا ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين فملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى وآخر الأمر انتزعها هذا السلطان منهم . وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فتح السلطان المذكور قرطوة وهى معدن الفضة الخالصة التى لا نظير لها وفتح بلاد اسكوب وهى من أجل البلاد الإسلامية وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه إليه وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرسى وصاروخان وفيها هرب صاحب قسطمونى وهو ابن مختشا فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد

Marfat.com

قرمان وبلغ السلطان أنه أغار على بعض بلاد أناضولى هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آق جارى فأسر هو وابناه فنازل السلطان مدينة قونية وهى كرسى مملكته وحاصرها وكان وقت إدراك الغلال ، فرسم السلطان بأن لا يتعرض أحد لشىء من الغلال وأن لا يظلموا أحداً وأذن لأهل القلعة بأن يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ماشاءوا فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا فلما شاهدوا ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إن ملكا بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغى أن نعصيه ، ونخرج عن طاعته . فحضروا برمتهم طائعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا أنت أحق بها وأهلها فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية ، وهى عمدة بلاد قرمان رغبوا فى المتابعة بمفاتيح قلاعهم وهى بلدة آق سراى ونيكدة وقيصرية ودولى قره حصار وسلموها إلى السلطان المذكور ثم رجع إلى مقر مملكته بروسة بعد ما قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة وبقيا إلى أن أطلقهما الخارجى تيمور . وفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة استولى السلطان المذكور على سيواس وأماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم وفى آخر هذه السنة بلغه أن صاحب قسطمونى أغار على بعض البلاد التى بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهباً وتخريباً فلما بلغه ذلك وكان قد جاز البحر لغزو الكفار إلى طرف روم ايلى فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطمونى فمات قبل أن يصل إليه السلطان بايزيد وتملك ابنه وأرسل إلى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول إن أبى قد جنى وقد مات وأنا مطيع لأوامر مولانا السلطان ومن جملة مماليكه فالمناسب لعدله أن لا يؤخذ أحداً بذنب غيره وأرجو من مكارمه أن يترك لى مدينة سينوب وهى مدينة أبى ومسقط رأسى ويجعلنى فيها نائباً عنه فأجابه السلطان إلى سؤاله وعاد إلى مدينة بروسة ثم أرسل السلطان بايزيد إلى صاحب القسطنطينية يقول له إما أن تخرج من البلاد وتسلمها وإما سرت إليك فأتيتك فى أعز مساكنك فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسل معه إلى أن قر الأمر بينهما بأنه يدفع خراجاً فى كل سنة عشرة آلاف ذهب وأن يبنى للمسلمين فى داخل المدينة محلة يسكنون

Marfat.com

فيهـا ، ويكون لهم فيهـا مسجد وجامع وقاض يقضى لهم الخصومات فرضى بذلك وفعله واستمر ذلك إلى وقعة تيمور ، فنقض العهد وأخرب الجامع ، وأخرج المسلمين من البلد وساقهم إلى الروم . قال الحافظ ابن حجر فى كتابه أنباء الغمر فى أبناء العمر واشتهر يلدرم بايزيد بالجهاد فى الكفار حتى بعد صيته وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه ، ووفد إليه أمير بعد أمير بالهدايا ، ولم يبق أحد من ملوك الأرض حتى كاتبه وهاداه قال الحافظ وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول إنما نخاف أن تتملك مصر من ابن عثمان . وكذا كان يقول الظاهر برقوق أنا لا أخاف من الكفار فإن كل أحد يساعدنى عليهم وإنما أخاف من ابن عثمان . والحاصل أن هذا السلطان افتتح أيالات كثيرة فى الأناضول وروم إيلى واستولى على مدينة سلانيك ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنج ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية وأخذ فى تدبير ذلك وشرع فى محاصرتها ثم قدر الله بمسير التيمور إلى قتاله . وفى سنة ٨٠٢ اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملكهم السلطان يلدرم بايزيد وسار إلى تيمور مستغيثين به يشكون إليه من السلطان بايزيد ويرغبونه فى المسير إلى الروم ويستنجدون به عليه فى رد ممالكهم فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده والكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوط وكان السلطان بايزيد محاصراً القسطنطينية وقد قارب فتحها وأشرف عليه فتركها وتوجه بعساكره لقتال تيمور ، وكان غالب عسكر السلطان من التتر فأرسل تيمور إلى زعمائهم والكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً فوعدوه بالمعاونة ، وكان تيمور قد نازل أنقورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب أنقورية واشتد القتال فانهزم التتر الذين مع السلطان بايزيد فتبعهم كثير من العسكر فى الانهزام فانهزموا وبقى السلطان بايزيد يقاتل بنفسه إلى أن وصل إلى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه أسيراً وكان رحمه الله من خيار الملوك ، وكان مجاهداً مرابطاً قد فتح من بلاد الكفار ومدنهم الكبار ما لم يسبها من

Marfat.com

المسلمين خف ولا حافر وكان قوى النفس شديد البطش عالى الهمة ولما أخذ السلطان بايزيد أسيراً صحبه تيمور معه إلى بلاد العراق قاصداً خراسان ومكث فى أثره إلى أن توفى فى تبريز سنة ٨٠٥ ثم وقعت فتن كثيرة فى أراضى الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم واستمرت إلى سنة عشرة وثمانمائة فتم الملك والسلطنة (للسلطان محمد الأول ابن بايزيد) وكان أصغر إخوته فالله سبحانه وتعالى يؤتى الملك من يشاء ولا يسأل عما يفعل وكان دأبه الاشتغال بالحروب وكان من جملة من خرج عليه وحارب (قره دولقشاه) من التتر فى نواحى ماسية فسار عليه وهزمه وبدد شمله ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شديد انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة واستولى السلطان محمد على جميع ممالكه، ثم بعد ذلك صفى له الدهر وانتظم له الأمر ولم يبق من ينازعه فى ملكه وفتح مدينة أزمير ونقل كرسى السلطنة إلى أدرنة وأتته رسل ملوك الإفرنج بالهدايا وبالتهانى وعقدوا معه صلحا خوفاً منه وأعاد رونق السلطنة ووسع نطاقها، ثم لما بلغه أن ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد سار إليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فأحضر بين يدى السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق أن لا يخونا بعد ذلك واستولى على عدة قلاع لابن قرمان فيها قلعة صورى حصار وقلعة قير شهر وقلعة نيكده وقلعة آق شهر وقلعة سيدى شهر وقلعة أوغازى وقلعة بنى شهر وقلعة سميد إيلى ، ثم سار واستولى على صامسون وغالب هذه البلاد ، وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد ثم لما قدم تيمور إلى بلاد الروم ردها إلى أصحابها فارتجعها منهم السلطان المذكور ، وكان السلطان محمد المذكور ملكا جليلاً مهابا محبب للعلماء والصلحاء وهو أول من عين الصرة لأهل الحرمين واستمر فى ملكه ثمانية أعوام وعشرة أشهر وتوفى سنة أربع وعشرين وثمانمائة وعمره ثمان وأربعون سنة وعهد بالسلطنة لولده مراد الثانى ، وكان ولده المذكور إذ ذاك غازيا فى أقصى بلاد روم إيلى فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة إحدى وأربعين يوما حتى وصل ولده (السلطان

Marfat.com

مراد) إلى مدينة بروسة واستقر على التخت ثم بعد ذلك أظهروا موت السلطان ، وفى سنة خمس وعشرين وثمانمائة ظهر رجل ادعى أنه مصطفى بن السلطان بلدرم بايزيد وكان مصطفى المذكور فقد فى محاربة التيمور فادعى أنه هو وأقام فى نواحى سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على جميع بلاد الروم إيلى وعلى مدينة أدرنة ، ثم اجتاز البحر إلى طرف أناضول ليقاتل السلطان مراد ، وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة إلى أدرنة لقتال الخارجى المذكور فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجى وانهزم عسكر مراد وأسروا الوزير بايزيد باشا وقتله الخارجى فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة فقدر الله أن الخارجى المذكور أصابه لرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جداً وجعل يخلط فى الكلام واختل عقله فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره تيقنوا خذلانه فداخلهم الخوف فتفرقوا شذرمذر وهرب الخارجى مع ضعفه إلى طرف روم إيلى فلما شاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا غالبهم وغنموا منهم أموالا ودواب كثيرة ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجى بقرب أدرنة نظفر به فقتله وانتظم الأمر للسلطان مراد وارتجع جميع ممالكه ، وكان حريصاً على فتح القسطنطينية فأقام بمائتى ألف مقاتل وحاصرها حصاراً شديداً فقاومه أهلها أشد مقاومة ثم رفع الحصار عنها ورجع إلى دار ملكه لتسكين الفتن التى أضرمها الروم بتلك النواحى فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن وما زال يتقدم حتى داخل بلاد المورة فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهوداً بين ملوك الفرنج على محاربته فأجاب إلى ذلك الفرنسيس وجرمانيا والمجر وبولونيا فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة فى بعضها لهم وفى بعضها له ثم عقد معهم صلحاً سنة ٨٤٧ وفى سنة ٤٩ نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسيا فانتقل إليها واعتزل عن الملك وشاع هذا الخبر فى الآفاق وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض أن ملك المسلمين قد صار شيخاً كبيراً فاعتزل الملك وجعل منصبه لولده وهو صبى صغير لا يخشى منه

Marfat.com

فاتفق قرال أنكروس وقرال الألمان وقرال جه وقرال له وأمير ل طين وأمير بوسنة وصاحب أفلاق و بغدان وطوائف الإفرنج على قتال المسلمين وأن لا يدعو من بلاد الإسلام حجراً على حجر ، فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان مراد من مغنيسيا ليكون معهم لأنه سلطان شاع بذكره الأخبار وطال ما أنكى الكفار فأرسلوا يطلبونه فامتنع وقال سلطانكم دونكم فخذوه وخلوني فلم يزالوا يدخلون عليه حتى رضى .

ذكر غزوة عظمى

سار مع ولده السلطان محمد إلى طرف العدو فلما تصاف الطائفتان والتقى الجمعان تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطردونهم ويقتلونهم ولم يبق إلا السلطان مرادخان في القلب ، فلما شاهد ذلك الحال رفع يده إلى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم تمض ساعة حتى اغتر قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عساكره فانفرد وجعل يدعو السلطان مراد للمبارزة ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه فسار إليه المسلمون فقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رمح ، وجعلوا يصيحون هذا رأس قرل الملعون فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم قتلا ذريعاً وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين . وأما الغنائم والأسرى فلا تحصى ولا تحصر ، ثم إن السلطان مراد لما رجع من الغزو وأمضى سلطنة ولده السلطان محمدخان على ما كان عليه ، وسار هو إلى طرف مغنيسيا واستمر الحال إلى أن تحرك طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها وكان ذلك في سنة ٨٥٠ .

ذكر غزوة أخرى

فعند ذلك رأى الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراد إلى المملك ليسترهبوهم فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك وعاد ابنه السلطان محمد إلى مكان أبيه

Marfat.com

مغنيسا وبقى بها إلى أن توفى أبوه فجلس بعده واستمر على تخت السلطنة السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار وسار إلى بلاده المورة و باقى الأقاليم المجاورة بها فأخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على آثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الأرناؤوط والمجر إلى أن توفى سنة ٨٥٥ وعمره تسع وأربعون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة . وكان ملكا جليلا صالحاً يعتنى بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء مهد المماليك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين ، وكان مقداما فاتكا شجاعاً كريماً واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار وللشرفاء من خزينته فى كل عام مثل ذلك رحمه الله تعالى وأوصى ابنه محمد أن يهتم بفتح القسطنطينية ويوجه إليها جنوده فتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثانى) فاتح القسطنطينية وهو السلطان الطليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداما واجتهاداً وأكثرهم توكلا على الله واعتماداً وهو الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين وصارت كالطوق فى أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام ولما تسلطن كان عمره ١٩ سنة فخرج إلى قتال صاحب قرمان فخاف منه صاحب قرمان وصالحه ، فعاد إلى مقر ملكه .

ذكر فتح القسطنطينية

ثم لم يكن له م إلا فتح القسطنطينية فشرع فى مهماتها ومقدماتها وهى من أعظم البلدان وأكبرها وأمنعها حصنا لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا الطرف الغربى وهو طرف يسير ، وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجرى فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية وذلك سنه ست وخمسين وثمانمائة ثم طلب من طرف بلاده أرضاً مقدار جلد ثور يبنيها له فاستقل ذلك صاحب القسطنطينية ، وقال سبحان الله مايفعل به . فهو له فأرسل السلطان المزبور جماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الأسود إلى

Marfat.com

بحر الروم فقدوا جلد الثور قداً رقيقاً ، فبسطوه على وجه الأرض على أضيق محل من فم الخليج فبنوا على القدر الذى أحاط ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا باذخا ، فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية ، ثم بنى السلطان فى مقابلة ذلك الحصن فى بر أناضولى حصناً آخر وهو فى طرف بلاده فشحنه بالآلات النارية والمرامى الرعدية حتى ضبط فم الخليج ، فلم تقدر بسلكه بعده شىء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم ثم وجه عزمه إلى مدينة أدرنة فأمر بانشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا فى بنائها ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الأسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انتقضت المسالمة التى كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لأسباب جرت فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ فكان ذلك سبباً للاستعداد لقتاله وقوة عزمه على ذلك ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل إلى ملوك الإفرنج يستنجد بهم ووادعهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية إلى الكنيسة الرومانية الغربية ، ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه ، وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الإفرنج فلم يجد ذلك نفعاً إذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معاً ومن ذلك الوقت جرت البغضاء فى قلوبهم لملك القسطنطينية وتخلوا عنه فى المدافعة والمحاماة حتى قال بعض أكابرهم : أحب أن أرى فى القسطنطينية تاج السلطان ولا أرى أكليل البابا فنهض فى أوائل شهر جمادى الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفاً بعزم صارم ورأى حازم فى أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات فخيم على القسطنطينية وبازلها من طرف الشمال وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ فأرسلها عند الحصن الذى أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كسن فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجرى عليها كالعجلة وشحنها بالرجال والأبطال ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت فى ريح شديد موفقة فساروا فى البر على هذه الهيئة حتى انصبوا إلى الخليج الواقع شمالى البلد من طرف مدينة غلطه فامتلأ الخليج من تلك

Marfat.com

الأغربة ، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل ، فصار جسراً ممدوداً ومعبراً لطيفا وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها وإنما كان خوفهم من جهة البر فكانوا حصونها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر يريده الله تعالى فشرع المسلمون فى الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة واحد وخمسين يوما حتى أعيد المسلمين أمرها ، ومازالوا مثابرين الحصار والقتال ، فجمع ملك القسطنطينية أعيان الأمراء والقواد ، لمااشتد عليهم الأمر وأخذ يحرضهم على القتال وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع ، ثم قصدوا الأسوار وتحصنوا فيها .

ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها

فلما كان اليوم التى فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها قاتل ملكهم قتالا شديداً إلى أن قتل فى المعركة ، وقتل معه خلق كثير ، فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها ، يقال إن عدد ما فقد منها مائة وعشرون ألف مجلد وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا ابن ولى الدين باشا قبل هذا التاريخ إلى خدمة العارف بالله الشيخ آق شمس الدين وإلى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما للجهاد والحضور معه فى فتح القسطنطينية فحضروا ، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقالا : ستفتح إن شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين فى هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الصحوة الكبرى ، وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح ، فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول إليه لأنه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكى فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة إلا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال الحمد لله

Marfat.com

الذى منحنا فتح هذه المدينة قالوا الوزير فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه فى ذلك الوقت الذى كان أشار به وكانت دعوته تخرق السبع الطباق فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولى الدين ويقف عنده فقال هذا ما أخبر به الشيخ وقال ما فرحى بهذا الفتح ، وإنما فرحى بوجود مثل هذا الشيخ فى زمانى (ومن مناقب) هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوى الأبدان كما هو طبيب لدواء الأرواح . يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع للمرض الفلانى وكان فتح مدينة القسطنطينية نهار الأربعاء لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وكانت أيام محاصرتها واحدا وخمسين يوما فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله فى عصر من الأعصار لأن السلطان لما شاهد الغى والفتور من العسكر فى الحصار أمر بأن ينادى أن الغنائم كلها لهم ، ويكفينى فتح المدينة فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة فلما شاع خبر هذا الفتح فى الآفاق هابه ملوك العالم فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنئونه بالفتح ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه للدينة وصرفوا هممهم وبذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم ، وعساكرهم فلم ينالوه إنما حباه الله تعالى لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية وطوية وأحسنهم سيرة وضمن بعضهم هذا المعنى فى تاريخ الفتح فقال :

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخا بفتح المدينة المذكورة بعد حساب الحروف ٨٥٧ وقيل فى تاريخها أيضا بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة بأربعمائة وذلك جائز عن بعضهم وهى كذلك فى طيب الهواء ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع بالتوجه إلى كنيستها العظمى أيا صوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلى فيها ودعا الله تعالى وحمده وأثنى عليه وجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين وعين له أوقافاً ومرتبات ثم ان السلطان محمداً التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه

Marfat.com

فقال الشيخ إنى شاهدت فى موضع نوراً لعل قبره هناك فجاء إليه وتوجه زماناً ثم قال اجتمعت مع روحه فهنأنى بهذا الفتح وقال شكر الله سعيكم الذى خلصتمونى به من ظلمة الكفر فأخبر السلطان بذلك فحضر بنفسه إلى هناك وقال ألتمس منك يامولانا الشيخ أن ترينى علامة أراها بعينى ويطمئن بذلك قلبى فتوجه الشيخ ساعة ثم قال احفروا فى هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبرانى . فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبرانى فقرأه من يعرفه وفسره فإذا هو قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط ولا أن أمسكوه ثم أمر ببناء قبة عليه وقد روى الإمام أحمد بإسناد حسن فى مسنده والحاكم عن بشر الغنوى لتفتحن بالبناء المفعول القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها وهذا حديث معجزة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وعلم من أعلام نبوته لأن فيه الأخبار بالغيب ووقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه وإن كان الغزو إلى القسطنطينية وقع فى زمن الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا طرفاً منها فى خلافة معاوية رضى الله عنه فى الغزوة التى استشهد فيها أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه ثم استرجع الروم الطرف الذى افتتح فى ذلك الزمن فانفتح التام إنما هو هذا الذى فى زمن السلطان محمد الفاتح ففى الحديث منقبة عظيمة له وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم عن أم حرا بنت ملحان رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فهذا يحمل على أول غزوة وجهت القسطنطينية وهى التى كانت فى زمن معاوية رضى الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وكان فيها كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم رضى الله عنهم وكان فى ذلك الجيش يزيد بن معاوية قيل كان هو أمير الجيش وقيل كان الأمير سفيان بن عوف وقوله مغفور لهم مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمناً فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش ، ومات كافراً كان خارجا من عموم تلك المغفرة وهكذا يقال فى كل حديث يذكر فيه ، أن من فعل

Marfat.com

كذا يغفر له أو دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان ومثل ذلك قد يرد فى كلام بعض الأولياء بأن يقول أحدهم مثلا من رآنى دخل الجنة او من أكل طعامى دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان فلا يشكل عليك شىء من ذلك . وبنى السلطان محمد عند قبر أبى أيوب جامعاً عظيما وبعد تمام بنائه ذهب إليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه وقلده الشيخ شمس الدين سيفاً بيده ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذى يجلس على تخت الملك يذهب إلى هذا الجامع ويتقلد بالسيف وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى .

ذكر الغزو إلى بوسنة

وفى سنة ثمان وخمسين وثمانمائة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم ولم يقم للكفار قائم بعد ذلك هناك وفى سنة إحدى وستين وثمانمائة وجه همته إلى افتتاح جزيرة رودس فهدد أهلها وطلب منهم الخراج فامتنعوا وأرسلوا إلى البابا صاحب رومية يستنجدون به فأخذ يحث ملوك الإفرنج على محاربة الدولة العثمانية ، فلما بلغ السلطان محمداً هذا الخبر نهض بمائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلفراد وضيق عليها براً وبحراً حتى كاد يفتحها فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن ملك المدينة فاستمال نحو أربعين ألفا من العساكر النمساوية وقادم قائد من المجر فأضر بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة ، واستمر السلطان محمد أربعين يوما ، وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها ، وأما قائد جيشهم الذى هو من المجر فجرح جرحا بليغاً هلك به وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أثينا من بلاد اليونان ففتح دوكة وأثينا وهى المدينة الشهيرة فيها .

Marfat.com

ذكر الغزو إلى بلاد الصرب والبوسنا والأرناؤوط

وفى سنة ثلاث وستين وثمانمائة توجه إلى بلاد الصرب وفتح فيها فتوحات ، وفى سنة ست وستين فتح إيالة طرابزون وولاية سينوب وأتى بصاحبها أسيراً إلى القسطنطينية فقتله السلطان محمد وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه ، وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه على السلطان محمد ، وفى سنة سبع وستين وثمانمائة توجه إلى إتمام تملك إقليم بوسنة ، وشن الغارات على ولاية الأفلاق والبغدان والصقالبة ، ثم صوب عزيمته إلى فتح بلاد الأرناؤوط وهم صنف من النصارى يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة قيل أصلهم من عرب الشام من بنى غسان ارتحلوا من الشام بعد ما أتى الله بالإسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب إلى هذا الصوب ، ثم غلب عليهم الجهل فتنصروا فدخل السلطان بلاد الأرناؤوط فنهبها واستولى على عدة قلاع هناك ، وأمر ببناء قلعة حصينة فى ثغر عظيم هناك كالسد بينها وبين الكفار وشحنها بالرجال وسماها آق حصار وأودع فيها من المدافع والمكاحل ما يقيها ، وفى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ثم استولى على قلاع عاصيه هناك مثل قلعة اركلى وقلعة آق سراى وقلعة كولك وقلعة بولى وجعل الجميع لابنه المذكور وفى سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغبوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ثم استولى على بقية بلاد الأرناؤوط بأسرها.

ذكر إغراء العجم والتتر على الإغارة والنهب

وفى سنة ٨٧٦ بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر التتر إلى نهب بلاد العثمانيين فجاؤا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ثم اغتر يوسفجه بك فهجم على بلاد قرمان وأغار عليها وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى ابن السلطان محمد ، وكان فى غاية من الشجاعة فقاتل العدو فهزمه وأسر

Marfat.com

رئيسهم يوسنجه بك وكبله فى الحديد وأرسله مع عدة من الأسارى إلى أبيه السلطان محمد فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر وفى سنة ٨٧٧ وقع قتال بين السلطان مصطفى بن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم وظفر بزينل شاه فقتله ، ثم صار مصطفى إلى قره حصار الشرقى وهو من بلاد حسن الطويل فاستولى عليها وأدرجها فى جملة ممالكه ، وفى هذه السنة بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة فحاصرها حتى غلبها وفتحها ثم افتتح هناك عدة حصون وقلاع .

ذكر الغزو إلى بغدان

وفى سنة ٧٩ سار السلطان محمد إلى قتال كفار البغدان فخاف منه كبيرهم استفان فهرب إلى أقصى بلاده فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر عليه فكانوا خلقاً لايحصى وأسر وسبى ونهب حتى أذعن رئيسهم استفان المذكور بالطاعة وأعطى الجزية ، وفى سنة ٨٨٥ صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس فأرسل إليها أساطيل بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر فلم يتيسر فتحها لأنها كانت حصينة ثم ارتحلوا عنها ، وفى ٨٦ جهز جيشين عظيمين أحدهم لمحاربة جزيرة قبرص ، والآخر لقتال العجم وأدركته الوفاة قبل تمام الأمر . فتوفى ليلة الجمعة آخر شهر ربيع الأول من سنة ٨٨٦ وعمره إحدى وخمسون سنة ومدة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه ٣١ سنة وشهران ، وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه ، وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه تعالى ، قال العلامة القطبى عن بعض أوصاف السلطان محمد المذكور ، وللمرحوم المقدس قلادات منن لا تحصى فى أعناق المسلمين لا سيما العلماء الأكرمين ثلدها فى أجيادهم فهى باقية إلى يوم الدين ولو ذكرت مناقبه لشحنت بها مجلداً أسكنه الله تعالى فسيح الجنان وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان ، وتسلطن بعده ولده (السلطان بايزيد الثانى) ونازعه أخوه السلطان جم ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها وكان الانتصار

Marfat.com

للسلطان بايزيد واستقر الملك له ، وكان رحمه الله ملازماً للغزو فى سبيل الله مظفراً على أعداء الله محبا لفعل الخيرات ، مكرماً للعلماء والصلحاء ، وفى سنة ٨٨٨ سار بعساكره إلى بلاد قره بغدان فافتتح قلعة كلى وقلعة آق كرمان وفيها أيضاً فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة وقلعة كولك والحاصل أنه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرها مما فى تلك الأطراف ، وفى سنة ٨٩٧ توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوسنة فظفر بملكها درنجيل وقيده فى وثاق وأرسله إلى السلطان بايزيد ، وفى سنة تسعمائة وثلاث بعث جيوشاً إلى بلاد الأرناؤوط براً وبحراً وخرج فى أثرها بنفسه ومعه أيضاً جيوش كثيرة قاصداً السرب وبلاد الأرناؤوط وحارب فى تلك الغزوة بولونيا وأوقع بها واستولى على جانب عظيم منها وأخذ منها عشرة آلاف أسير ثم عاد إليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة ، وفى سنة خمس وتسعمائة سار السلطان بايزيد بعساكره فاستولى على قلعة ابنه بختى ، وعلى قلعة قرون وكان السلطان بايزيد ابن السلطان محمد من المجاهدين فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فمازال غازيا فى سبيل الله مظفرا على أعداء الله فكانت به كلمة الإسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وكان محبا لنيل الخير مثابرا على بذل الأنعام والصدقات محبا للعلماء والمشايخ والأولياء من أهل الكرامات ودخل فى طريق السادة الصوفية ودخل الخلوة وجلس الأربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ، ولما دخل الخلوة كان معه والد مولانا أبى السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محيى الدين أفندى وبنى السلطان بايزيد المذكور الجامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكيات والزوايا والخانقاه ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتى الأعظم ومن فى رتبته من العلماء العظام فى زمنه فى كل عام عشرة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد فى كل عام سبعة آلاف عثمانى ولمدارس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثمانى وكل واحد من مدرس شرح التجريد ألفى عثمانى وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله تعالى من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه

Marfat.com

وهذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها وغير كسوة الشتاء من الفرو والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته وصار ذلك قانونا جاريا مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحساناً كثيرا ورتب لهم صررا فى كل عام غير ما كان مرتبا من آبائه الكرام وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ولم يكن حكم الحرمين فى ذلك الوقت عنده فكانوا يتسمون بها ويرتقون بها ويدعون له فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتى إن شاء الله تعالى وكان إذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن إليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة ومواهب جزيلة .

ذكر ظهور إسماعيل شاه سلطان العجم

مما كان من العجائب فى زمن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ظهور إسماعيل شاه فى بلاد العجم وكان ظهوره واشتهار أمره سنة ٩٠٥ وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الأعاجيب فانتشر أمره وفتك فى البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والإلحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق وصار يدعو الناس إلى الإنحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد والله تعالى يفعل فى ملكه ما أراد وظهر من أتباع إسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعم الفساد والقتل وقويت شوكته وعظمت على المسلمين فتنته ، فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى فاستشهد على باشا فى ذلك القتال ولكن قتل الله ذلك الباغى وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم وكفى الله شر أولئك لأشرار وذلك سنة ٩١٥ وإسماعيل شاه المذكور هو إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم ابن سلطان خواجه بن على بن صدر الدين موسى بن صفى الدين إسحاق الأردبيلى وكان أهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى المذكور آنفا

Marfat.com

وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل ألوية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق والسلوك والزوايا وسلسلة طريقهم تنتهى إلى الإمام أحمد الغزالى أخى الإمام أحمد حجة الإسلام الغزالى وقيل أن لهم نسباً ينتهى إلى موسى الكاظم وكان جدهم الشيخ صفى الدين له شهرة كبيرة فى مشيخة الطريق وتوفى سنة ٧٣٥ ، ثم صارت المشيخة إلى ولده صدر الدين ثم فى ولده على ثم فى ولده سلطان خواجه ثم فى ولده إبراهيم ثم فى ولده جنيد ثم فى ولده حيدر ، ولما كانت المشيخة فى جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والأتباع وكان جهان شاه التركمانى صاحب شروان وأذربيجان متغلباً على ملك العراق وبغداد فتوهم من جنيد وكثرة اتباعه وخشى أنه يتغلب عليه وينتزع الملك منه فأخرج جنيداً ومن معه من أردبيل فتوجهوا إلى ديار بكر ثم قوى أمرهم فقاتلوا سلطان شروان فانهزم الشيخ جنيد ثم قتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضاً سلطان شروان فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه إسماعيل شاه وكان صغيراً واستمر محبوساً هو وإخوانه وهرب بعض إخوانه من الحبس سنة ٨٩٦ ثم هرب إسماعيل شاه سنة ٩٠٦ وعمره ١٣ سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير فى أبيه حيدر فغير اعتقادهم إلى مذهب الرافضة فقصد بجموعه الأخذ بثأر أبيه وجده وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وسرى إليه وهو صغير حين كان فى الحبس قيل فى تاريخ ظهور مذهبنا حق ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة فقال مذهبنا حق على النفى فإن نافى الفارسى إداة نفى فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ثم أسروه فأتوا به إلى إسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك فى تلك الأزمان من التركمان وغيرهم فما كان يهزم له جيش ولا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان

Marfat.com

وتعاظم أمره حتى كاد يدعى الربوبية وكان ظالما غشوما أفنى وأباد من الأمم بالقتل مالا يحصى من العدد وكان عسكره يسجدون له إذا خرج إليهم ويأتمرون بأمره قال العلامة القطبي فى تاريخه قتل خلقاً لا يحصون ينوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد فى الإسلام ولا فى الجاهلية من القتلى ولا فى الأمم السابقة مثل ما قتله إسماعيل شاه وقتل من أعاظم العظماء خلقاً كثيراً ولم يبق أحداً من علماء أهل السنة الذين كانوا فى بلاد العجم وأحرق كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة وكان كلما مر بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه وإخراج عظامه ثم يحرقها وإذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر ، ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره أنه جعل كلباً من الكلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخى والسماط والأطواق والفراش الحرير وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند إليها كالأمراء وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرة من يده منديلا إلى البحر وفعل ذلك قصدا وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم فى البحر خلفه المنديل ليأتوه به تقرباً إليه وليلتمسوا بركة المنديل الذى مسته يده حتى أحصى من رمى نفسه منهم فكانوا نحو ألف صاروا يتخبطون فى البحر حتى غرقوا قيل أنهم كانوا يعتقدون فيه الألوهية وأنه لا ينهزم له جيش إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التى كانوا يعتقدونها فيه ، ومما يحكى عن إسماعيل شاه سلطان العجم أنه كان فى ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضاً للقتال بل ينهزم معهم فاتفق أنه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاماً حار فى صفحة فشرع الشاه إسماعيل يأكل من وسط القصعة وهى حارة والمرأة تنظر إليه فقالت له ما أشبهك أيها الرجل إلا باسماعيل شاه الذى ظهر فى هذا الزمان فإنه يريد أن يقصد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه وذلك خطأ فينبغى له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط فأنت كل من الأطراف

Marfat.com

حتى يبرد الوسط ثم كل منه فتنبه من قولها وعمل بإشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ما صار وملك جميع إقليم العجم وبواسطته انتشر التشيع وظهر فى العجم وسلاطين العجم الموجودون إلى وقتنا هذا من ذريته وسيأتى ذكر ما وقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال وكذا ما وقع بينهم وبين ذريته وإنما أطلت الكلام فى بيان أحوال اسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك أن كثرة بغيه وطغيانه من جملة الأسباب التى دعت السلطان سليم إلى قتاله الذى سنذكره مع ما انضم إلى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التى سنذكر أسبابها .

ذكر الحرب والقتال الذى كان بين السلطان بايزيد وولده سليم

لابد قبل ذلك من ذكر الأسباب الإلهية الخفية التى كانت بتقدير الربوبية ليعلم بذلك أن الأسباب الظاهرية لابد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الأزل، قال العلامة القطب فى تاريخه : أن منجما حاذقا كان فى عصر السلطان بايزيد الثانى قد أطلعه الله على أمر يتعلق بالسلطان بايزيد فأخبره به وهو أن هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له ، وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل أخبار المنجم وكان أخباره له بذلك قبل أن يولد السلطان سليم فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوآت وهى قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات، فقال لها إذا وضعت إحدى الجوارى بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيآ وإذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتى وأكد عليها فى ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك إلى أن ولدت واحدة منهن صبيآ ، فلما رأته أمه التى ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة ، فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة جميلة ووقع حبه فى قلبها فرقت له وقالت فى نفسها بأى وجه ألقى الله تعالى إذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله فأظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد أنه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة فلما أخبرته بذلك سماها سليمة واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلمه إلا الله تعالى والقابلة وأم الولد . وصار كلما كبروآ نشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر وإذا اجتمع البنات وجلس بينهن لطم من كان منهن إلى

Marfat.com

جانبه ونهب ما وجد بأيديهن من معلومات الأطفال وغير ذلك وكن يحذرن منه فدخل السلطان بايزيد يوما إلى داخل السراية وكان يوم عيد واستدعى بيناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدى كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة ، فشرع فى فعل ما كان يفعله مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له فعجب السلطان بايزيد وصار يتأمله جيداً ويفكر فى أمره وفى أثناء ذلك دار بينهن يعسوب كبير وأردن أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد إمساكه فهربوا منه فهابوه ، فمد الغلام المسمى سليمة يده إليه وهو طائر فأمسكه ومرسه وعقصه ورماه من يده فازداد تعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات : هذا لايكون انثى اكشفوا لىَ عنه ، فبادرت القابلة وقالت : نعم هذا صبى وليس ببنت ، فقال لها كيف خالفت أمرى وماقتلتيه ، فقالت: خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتى من قتل معصوم ولا ذنب له ، فتفكر طويلا ثم قال : ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور وسماه سليما إلى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ، ولما أراد الله براز ما أراده وقدره من الأزل من ذهاب ملك السلطان بايزيد على يده ولده سليم أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بإيجاد أسباب لايحكم العقل فيها بأنها ينشأ عنها الحرب والقتال وذلك أن السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله عن الحركة بعلة النقرس فأراد النزول عن الملك لولده أحمد وكان أكبر أولاده وأحبهم إليه وقد جعله قبل ذلك أمير أماسية ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد إليهم بأن ولده أحمد ولى عهده فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع طاعته وقتاله وكان قد ولاه أبوه أدرنة فجمع العساكر وتوجه بهم إلى القسطنطينية مظهراً أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راض بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولى العهد وأنه ليس له غرض فى الملك وأطلع أبوه بقرائن الأحوال على مراد ولده سليم

Marfat.com

وأنه إنما يريد السلطنة والملك فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلا ولده المذكور فلاقاه بين القسطنطينية وأدرنه والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنة وجرى بينهما حرب شديد ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه فمنعهم أبوه السلطان بايزيد وقال اتركوه لعله ينصلح وتوجه سليم هارباً وركب البحر وقصد بلاد كفة فبينما هم فيه إذ بعث السلطان بايزيد إلى ولده أحمد يدعوه إلى أن يقلده الملك وينزل له عن السلطنة حالا فامتنع وقال إنه لا يمكن أن يقبل ذلك فى حياة والده تعظما لوالده وقال أيضاً إنه يخاف من عسكر الانكشاريه لأن هواهم رغبتهم فى سليم ، فلما علم أبوه إنه ليس لابنه أحمد نصيب فى الملك وأن الملك لله يؤتيه من يشاء وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبى أرسل إلى ولده سليم يدعوه لينزل عن الملك ويسلمه له فقدم سليم بالرأى الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الأمراء والوزراء فاستقبلوه وهنوه بالملك ولما دخل على أبيه قبل يده فدعا له بخير وسلمه الملك وأوصاه بأشياء تليق بالسلطنة ، ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لأبيه للاقامة بمدينة ديمتوقه وقال السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له السم فى الماء فلما توضأ تساقط شعر لحيته فأحس بذلك فقال ردونى فردوه فتوفى قبل أن يصل إلى القسطنطينية ثم حمل إليها ودفن أمام مدرسته التى أنشأها بالمدينة المذكورة وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياما لأن وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمائة وولايته كانت سنة سبع ثمانين وثمانمائة وعمره إثنتان وستون سنة لأن مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وله رحمة الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها ، ومن مناقبه أنه كان يجمع فى كل منزل حل فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه فى القبر تحت خده الأيمن ففعلوا ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله صلى الله عليه وسلم « من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرم الله عليه النار » ولما توفى السلطان بايزيد المذكور واستقر ابنه

Marfat.com

سليم (على تخت الملك) نازعه فى ذلك أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمائة بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة يني شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق وكان إسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامى فلما خنق أحمد هرب بعض له أولاده والتجأوا إلى السلطان الغورى وبعضهم إلى إسماعيل شاه فأرسل له السلطان سليم يطلب منه أن يبعثهم إليه فامتنع فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم وإسماعيل شاه مع ماتقدم من انتشار ظلم إسماعيل شاه وسفكه الدماء وإهلاكه الحرث والنسل وكان للسلطان بايزيد أيضا أولاد غير أحمد نازعوا سليما وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

ذكر الحرب بين السلطان سليم واسماعيل شاه سلطان العجم

ذكر كثير من المؤرخين أن السلطان سليما كان سلطانا قاهراً قوى البطش عظيم القتل كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفا بمسالك الطرق والمهالك يغير زيه ولباسه ويتجسس فى الليل والنهار ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة ، وفى الأسواق والجميات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروه له فى مجلس المصاحبة ، فيعمل بمقتضى مايسمعه بعد الوثوق منهم ، ولما استقر له الملك بعد قتال إخوته وانتصاره عليهم شرع فى قهر الملوك والاستيلاء على الأقاليم والممالك وبدأ بقتال شاه اسماعيل بن حيدر الصفوى وكان ذلك سنة عشرين وتسعمائة وكان السبب فى قتاله أن بعض أولاد أخى السلطان سليم التجأ إلى اسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع مع ماانضم إلى ذلك من بنى اسماعيل شاه وطغيانه وإفساده فى الأرض حتى أهلك الحرث والنسل كما تقدم بيان ذلك فى ترجمة اسماعيل شاه فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف ، وسار نحو الشرق لقتال اسماعيل المذكور فالتقيا فى مكان يقال له جالدران ، وكان جيش السلطان مائة وأربعين ألفاً فى أول خروجه من مقر سلطنته حتم أردفها بأربعين ألفاً ولما التقى الجيشان واشتد القتال ثم انهزموا عسكر العجم واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم

Marfat.com

وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم إلا القليل وفر اسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه وخسائه ومنع العسكر من المسير خلف المنهزمين ، ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهى كرسى مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه وكان مراده أن يطيل الإقامة ببلاد العجم ليفتتح جميع بلادهم ويدخلها فى ملكه ويرتبها ، ولكن اشتد عليه الغلاء لأن السلطان الغورى قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها إليه لأنه كان بينه وبين اسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة حتى أن بعضهم اتهم السلطان الغورى بأنه يعتقد مذهب الرافضة وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم بن اسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر ، فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فأحرقت ، قال القطبى وكان من أمر اشتداد الغلاء أن العليقة بيعت بمائتى درهم وبيع الرغيف بمائة درهم قال العلامة وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم وكانوا يكثرون مجالسته وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه فى اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه على فصحاء الطائفتين ثم قال العلامة القطبى ورأيت بيتين بالعربى بخطه الشريف كتبهما فى علو المقياس فى الكشك الذى أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة والبيتان هما هذان :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قسراً ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وتحتهما ماصورته وكتبه سليم قال العلامة القطبى ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعة ونهاية فى التمكن من الصناعة ، فيدل على مملكته رحمه الله فى اللسان العربى أيضا لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية فى حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه بها ، وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم

Marfat.com

العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها ، ولما فرغ السلطان من قتال اسماعيل شاه واشتد عليهم الغلاء رجع إلى الروم وشتى فى مدينة أماسية ولما دخل الربيع رجع إلى بلاد الشرق وافتتح قلعة كاخ وهى أمنع الحصون، ثم افتتح مدينة بيبورد وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير إلى قتال ملك مرعش البستان فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد وفى هذه السنة أحب أهل آمد أن يدخلوا فى طاعة السلطان سليم فأخرجوا إليهم الذى كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميراً من السلطان فمن لهم بيقلو محمد بيك الآمدى فوصل إلى تلك البلاد ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوماً وافتتحها ثم افتتح بلاد الموصل وجانة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجشزك حصن سوران وسائر بلاد الأكراد وعامة جزيرة الأكراد فدخلت هذه البلاد كلها فى طاعة السلطان سليم ولم تكن قبل من الممالك العثمانية بل كان بعضها عند العجم وبعضها عند ملوك من غير العجم تغلبوا عليها .

ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغورى

وفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغورى صاحب مصر والشام وحلب لأنه كان متواطئاً مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره مائة وخمسون ألفاً وخرج الغورى من مصر بجيش كثيف لمحاربته والتقى الجيشان فى مرج دابق بقرب حلب ، واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغورى فى المعركة ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم يستقبلون السلطان سليم ويهنونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل ، ودخل مدينة حلب وخطب له فيها وكان الخطباء يقولون فى أوصاف سلاطين مصر خادم الحرمين الشريفين فلما خطب الخطيب بحلب قال فى وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين ففرح بذلك واستبشر مولانا السلطان سليم وعلم أن الله تعالى ينصره على الغورى حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين

Marfat.com

له ، وخلع على الخطيب حلته التى كانت عليه ، وكانت تساوى خمسين ألف غرش ثم سار إلى الشام فاستقبله أهلها بالإكرام والإحترام وسألوه منه اللطف والإنعام . فعاملهم بالجميل ، وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفاً ، ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح فى مسيره مدينة بيت المقدس ثم سار وفتح مدينة غزة وطبرية وصفد واللجون والرملة ووصل إلى مصر فى الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وكان قد تسلطن بمصر بعد مقتل الغورى السلطان الأشرف طومان باى قيل أن الغورى خاله وكان معه أربعين ألفا من الجراكسة فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر فوقع القتال بين العساكر فانهزم طومان باى وعسكره وقتل منهم خلق عظيم ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم فى باب زويلة وأقام السلطان بمصر نائباً عنه خيرالدين بك الجركسى وخرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من السنة المذكورة وقدم إلى دمشق وعين لأمارتها مع أعمالها الأمير جان بردى فاستولى على مدينة ملطية ودبوركى ودارنوه وبهسنى وكركر وكاخته البيرة وعنتاب وأنطاكية وقلعة الروم وأطاعته قبائل العرب المجاورون للشام ومصر ، ولما رجع السلطان سليم إلى القسطنطينية أخذ فى تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة فطلع له دمل فى جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمل حتى اتسع وصار جرحا عظيما واتسع الخرق على الراقع وتعطل السلطان عن الحركة وعجزت حذاق الأطباء فى علاجه وكانت توضع الدجاجة فى جرحه فتذوب واستطال به ذلك المرض إلى أن توفى سنة سبع وعشرين وتسعمائة تاسع شوال وعمره أربع وخمسون سنة ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر .

فائدتان استطراديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا

(الأولى) ذكر كثير من المؤرخين أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الإشارة إلى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمائة وعشرين وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين وأن السلطان سليما منهم فقال ابن كمال

Marfat.com

باشا أن ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والايماء والإشارة من قوله تعالى ﴿ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَن الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ . وبيان ذلك أن قوله ولقد إذا حسبت على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مائة وأربعين ويقابله لفظ سليم فإن حساب عدد حروفه يبلغ مائة وأربعين وقوله من بعد الذكر إشارة إلى أن ذلك بعد تسعمائة وعشرين لأنه عدد حروف ذكر بعد إسقاط أداة التعريف على قاعدتهم فى ذلك فتكون الإشارة فى ذلك سليم بعد تسعمائة وعشرين مكتوب فى الزبور أنه يرث الأرض وأنه من عباد الله الصالحين ، قيل أن السلطان سليما لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر وكان ذلك من أقوى الأسباب لخروجه لقتال الغورى وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج ولله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أسرار كثيرة وله فى كل شىء حكمة والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها .

الفائدة الثانية

إن مولانا السلطان سليما لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتاقت نفسه إلى تملك الأقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين فأراد أن يجهز جيشا ويسيره إلى الحجاز وينتزعه من عمال السلطان الغورى ، وكان أمير مكة فى ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان وقد كان فى سنة ٩١٨ أرسل ولده الشريف أبا نمى إلى مصر لمقابلة السلطان الغورى فأكرمه وأشركه مع أبيه فى إمارة مكة وكان عمر أبى نمى فى ذلك الوقت ثمان سنين وكان السلطان الغورى حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة منهم العلامة القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن ظهيرة ، وكان سبب حبسه مع من معه أن الغورى طلب منهم مالا مصادرة وظلما مبلغه عشرة آلاف دينار فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم إلى مصر واعتقلهم فى الحبس ولما قتل الغورى وتسلطن طومان بك أطلقهم وقيل إنما أطلقهم السلطان سليم ، فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش إلى الحجاز اجتمع القاضى صلاح الدين بن ظهيرة بوزيره مولانا السلطان سليم وقال له لا حاجة إلى تجهيز جيش فإن الشريف بركات يكفيكم هذا الأمر

Marfat.com

ويحصل لمولانا السلطان المطلوب وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم وأنه أول من يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والأقطار الحجازية ويكفى بدلا عن الجيش أن تبعثوا له توقيعاً شريفا من مولانا السلطان فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وأن يكون ولده أبو نمى مشاركا له كما كان فى مدة السلطان الغورى وكتب القاضى صلاح الدين للشريف بركات الأخبار بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبى نمى وجعل ذلك صحبة الأمير مصلح بك وبعث معه محملا وكان ذلك على إقبال شهر الحج ، فلما قدم الأمير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة للكعبة المعظمة خرج لمقابلته إلى الزاهر الشريف بركات وولده أبو نمى وكثير من الأشراف وغيرهم فى موكب عظيم ولبس الشريف وولده الخلعتان ودخلوا مكة وأخذوا البيعه لمولانا السلطان سليم ودعوا له فى الخطبة وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضى والقبول ، ثم أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمى سنة ٢٣ إلى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات ، ثم توفى بركات سنة ٩٣١ واستقل ولده أبو نمى بالإمارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم واستمر الشريف أبو نمى مستقلا بإمارة مكة إلى أن توفى سنة ٩٩٢ وعمره ٨٩ سنة لأن ولادته كانت سنة ٩١١ وكانت مدة ولايته إمارة مكة مشاركة لأبيه استقلالا ٧٣ سنة ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاءوا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة ، ولما ورد الأمير مصلح بك إلى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجرى له خيرات كثيرة يرجع ثوابها إليه منها أنه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمائة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك وكتب دفتراً قرر فيه أسماء جماعة من المجاورين ورتب لكل شخص منهم مائة دينار تؤخذ من خزينة مصر وقرر ثلاثين نفرا يقرأون كل يوم ختمة وعين لكل واحد اثنى عشر دينار وقسم الأمير

Marfat.com

مصلح أيضاً الذخيرة وهى صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة ، فأبقاها السلطان سليم ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف أردب حب لأهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل المدينة ، وجاء الأمر للأمير مصلح بك أن يوزع ذلك فجلس فى الحرم الشريف وطلب حضور المفاتى وبقية العلماء والأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطانى واستشارهم فى توزيع ذلك ، فقالوا له لابد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات فكتبوا صورة الأمر السلطانى وأرسلوه إلى مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالى فى ذلك فكتب إليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف السلطانى وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجلس ، فاجتمعوا ثانياً بعد وصول الجواب من مولانا الشريف ، واتفق رأيهم على بيع شىء من ذلك القمح ليصرف فى نقله من جدة إلى مكة وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد ما يخصه فكتبوا بيوت كل محلة وما فى بيوت كل بيت من عدد الأنفار رجالا ونساء وأطفالا وخدما ما عدا التجار والسوقة والعسكر فبلغ عدد الأنفار الذين كتبوهم اثنا عشر ألفا فخص كل نفر ست رباعى بكيل الربع الكبير الذى هو أربع كيل من أربع وعشرين قدحا بالكيل المصرى ودفعوا لكل نفر دينارا من قيمة القمح الذى باعوه لأجل نقله من جدة إلى مكة وجعلوا لكل واحد من المفاتى الأربعة ثلاث أرادب وزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت ، قال العلامة القطبى وهذه الصدقة أول صدقات الحب الشريف السلطانى ، ثم قال فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدى الزمان فإن دولتهم الشريفة عماد الإسلام وإحسانهم ما زال متواصلا إلى كافة الأنام سيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام فإنهم فازوا بالإنعامات الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة ما لم تصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا إحسانهم اهـ كلام القطبى

Marfat.com

وقال العلامة ابن علان أن السلطان سليما كان كثير المحبة لأهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر وهو أول من بعث إليهم صدقة الحب إنتهى ، ثم إن السبعة الآلاف الأرادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون فيها حتى صار لأهل مكة اثنا عشر ألف أردب ولأهل المدينة سبعة آلاف أردب فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها لكل خصلة حميدة مرضية ومما فعله الأمير مصلح بك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفى بمكة فإنه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفا على أربعة أعمدة فى صدره محراب وكان صنعة التسقيف المذكورة سنة ثمانمائة واثنتين فى مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق ، واستمر كذلك إلى أن جعله الأمير مصلح قبة سنة تسعمائة وثلاث وعشرين واستمر على ذلك خمساً وعشرين سنة ، ثم هدمت القبة وبنى المقام مربعاً وجعلت الطبقة العليا للمكبرين ، وموضع هذا المقام كان فى الجاهلية موضع دار تجتمع فيها قريش للمشورة ويسمونها دار الندوة ، ثم اشتراها معاوية رضى الله عنه فى زمن خلافته ، وصارت ينزلها الخلفاء إذا قدموا للحج ، ويخرجون منها إلى المسجد للصلاة والطواف ، ثم خربت وتهدمت وعمرت فى خلافته المعتضد سنة مائتين وثمانين وأدخلت فى المسجد وفتحت جوانبها إلى المسجد وجعلت سقوفها على أساطين ، ثم غير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمائة وست ثم سنة ثمانمائة واثنتين إلى أن كانت عمارة الأمير مصلح ، ثم غيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتى ذكر ما يكون بعد ذلك وقد كانت مذاهب الأئمة الأربعة عليها العمل والاعتماد فى الحرمين وغيرهما من أول ظهور الأئمة الأربعة إلى ما بعدهم قد كان الأئمة المجتهدون كثيرين ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم وإنما بقيت مذاهب الأئمة الأربعة وتحررت وتوارد عليها أنظار العلماء حتى أن أهل السنة والجماعة أوجبوا تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها ، نقل العلامة السنجارى عن التقى الفاسى أن صلاة هذه الأئمة على هذه الصفة قديمة لكن قال لا أعلم فى أى وقت كانت ثم نقل ما يدل على أن الحنفى والمالكى كانا موجودين مع الشافعى سنة أربعمائة وسبع وتسعين وأن الحنبلى لم يكن موجوداً وإنما كان إمام الزيدية

Marfat.com

ثم قال ووجدت على ما يدل على أن الحنبلى كان موجوداً فى عشر الأربعين وخمسمائة وفى البحر العميق وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ، وأما كيفية الصلاة فى هذه المقامات فإنهم يصلون مرتين الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى ثم الحنبلى وكلام ابن جبير يقتضى أن المالكى كان يصلى قبل الحنفى ثم تقدم عليه الحنفى من بعد سنة تسعين وسبعمائة واضطرب كلام ابن جبير فى الحنفى والحنبلى لأنه ذكر ما يقتضى أن كلا منهما يصلى قبل الآخر ، وهذا كله فى غير صلاة المغرب أما فيها فإنهم يصلون جميعاً فى وقت واحد ثم بطل ذلك كله فى موسم سنة إحدى عشرة وثمانمائة بأمر الملك الناصر ابن برقوق ، وصار الشافعى يصلى بالناس المغرب وحده واستمر ذلك إلى أن ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر بأن يصلى المغرب الأئمة الثلاثة فى وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك وأول وقت فيه ذلك ليلة السادس من ذى الحجة سنة عشر وثمانمائة إنتهى (والحاصل) أن الأمر كان مختلفاً فى تقدم بعضهم وتأخر بعضهم واستقر الأمر فى عصرنا هذا بعد خروج الوهابى من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين أن الشافعى يصلى فى الصبح أولا ، ثم المالكى ثم الحنبلى ثم الحنفى وأما بقية الأوقات فيصلى أولا الحنفى ثم الشافعى ثم المالكى لكن لا يصلى فى المغرب إلا الحنفى ثم الشافعى فقط وكان الحنبلى لا يصلى فى مقامه إلى الصبح فقط .

وفى سنة إحدى وثلاثمائة وألف صدر الأمر من سيدنا الشريف عون الرفيق بن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والى ولاية الحجاز السيد عثمان نورى باشا بأن الحنبلى يصلى أيضاً بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلى المالكى واستحسن الناس ذلك لأن مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لا يدركون صلاة الأئمة الثلاثة فيصلون جماعة متفرقة ، فلما صار الحنبلى يصلى أيضاً صاروا يصلون معه ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبى فى تاريخه حيث ذكر أن عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم إلى أن قال وكنت أشاهد فى سن الصبا خلو الحرم الشريف

Marfat.com

وخلو المطاف من الطائفين حتى أنى أدركت الطواف وحدى من غير أن يكون معى أحداً مراراً كثيرة كنت أترصده خلياً لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط وأما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف بل يمكن أن لايخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافياً عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثار على هذه العبادة كثير من الصلحاء لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ولا يشاركه غيره فى تلك العبادة بعينها إلا الطواف فإنه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر حتى حكى لى والدى رحمه الله إن وَلياً من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهاراً ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع وإذا بحية تشاركه فى ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالى فقالت له إنى من الجن وإنى أرصد ما رصدته قبلك بمائتى عام فقال لها حيث كنت أنت من غير البشر فإنى فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه قال ، وحكى لى شيخ فى معمر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود فخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة وكنا نرى القوافل تأتى بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشترى منهم جميع ما جاؤا به فكانوا يبيعون ما جاؤا به بالأجل اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الأسعار رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم ، وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى بحر إنعامها وإحسانها ونعمتها الوريفة أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة وأما بناء المقامات فى المسجد الحرام فأما مقام الحنفى فقد علمت بناءه مما سبق وأما الشافعى فيصلى فى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأما مقام المالكى والحنبلى ففى البحر العميق كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وفى تاريخ القطبى

Marfat.com

بعد أن ذكر عمارة الحريق الواقع فى زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ذكر أن فراغ العمارة كان سنة سبع وثمانمائة فى مدة أمارة مكة للشريف حسن بن عجلان وأنهم فى تلك العمارة عمروا ما فى صحن المسجد من المقامات الأربعة التى وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة اه ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا التعمير ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ فعله وعبارة البحر العميق تقتضى أن التعمير الواقع سنة سبع وثمانمائة هو أول إحداث مقام المالكى والحنبلى حيث قال : كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ومقام المالكى بين الركن اليمانى والركن الغربى ومقام الحنبلى على حذاء الركن الذى فيه الحجر الأسود فى سنة ١٣٠٠ قال كثير من الناس أن المقام المذكور منحرف وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه فيكون سبباً لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف وسبباً لانحراف صف الشافعى الأول خلف مقام إبراهيم عليه السلام فإن الصف الأول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلى يحصل فيه انحراف وعدم استقامة فلو جعل مقام الحنبلى متوسطا بين الركن اليمانى والركن الذى فيه الحجر الأسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى ، ورفع الأمر إلى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالى ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نورى باشا ثم وقع الإشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطاً فأنهى الأمر إلى باب السلطنة السنية وجاء الإذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثانى فهدم المقام المذكور سنة ٣٠٠ وجعل متوسطاً كما هو موجود الآن فجاء فى غاية الحسن ، هذا وقد طال الكلام الاستطرادى لارتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثيراً للفوائد فلنرجع إلى إتمام الكلام الأول فنقول : أن الأمير مصلح بيك لما أتم ما كان مأمورا بإجرائه بمكة من الخيرات توجه إلى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وقسم الصدقات التى لأهل المدينة المنورة وأجرى كثيراً من الخيرات ثم توجه إلى دار السلطنة السنية .

Marfat.com

ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان

ولما توفى السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولى عهده ، وكان غائبا فى سروخان والياً عليها فأخفى الوزراء موت السلطان سليم إلى أن حضر ولده السلطان سليمان فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم ، وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع ، وكان محباً للجهاد ولنصرة دين الله ومرغما أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه وكان مؤيدان فى حروبه ومغازيه مشهوداً فى وقائعه ومراميه أيان سلك ملك وأين توجه فتح وفتك وأين سافر سفر وسفك وصلت سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنفية وأحيا مالها من مآثر ونصر مذهب السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع ودفع أهل الإلحاد وقمعهم فما لهم من ناصر ، وكان رحمه الله سلطانا رفيع القدر حسن الطبع فى الحرب والسلم موصوفاً بالعلم والحلم والحزم قال العلامة القطبى فى وصفه ، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية فى هذا القرن العاشر فقد ورد أن لكل قرن مجدداً شأنه ظاهر . هذا مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب الغض الذى يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر ، وكان يعرف الألسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية وينظم نظما بارعا حسناً ، وكان دائم الفكر فى أحوال الرعية والمملكة وله ديوان فائق بالتركى وآخر عديم النظير بالفارسى يتداولها بلغاء الزمان ، وكان رؤفا شفوقا صادقا صدوقا إذا قال صدق وإذا قيل صدق لا يعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوىء الأخلاق بل هو صافى الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الإيمان سليم القلب خالص الجنان لا يرتاب أحد فى كمال ديانته ولا يشك فى صلاحه وولايته قال القطبى بعد ما ذكر :

وما تناهيت فى بث محاسنه ... إلا وأكثر مما قلت ما أدع

ولد رحمه الله سنة تسعمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمائة فى

Marfat.com

شوال وأطال الله عمره وطول دولته حتى بلغت ثمانية وأربعين سنة وشهوراً وعاش أربعاً وسبعين سنة ، وكان رحمه الله شجاعا كريماً حسن الخلق والخلقة فإنه كان ذا صورة جميلة ظاهراً وباطناً وهو الذى أسس قواعد الدولة العثمانية ومهد الملك لهم وسهل الأمور وفتح البلاد ووضع كثيراً من القوانين الموافقة للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة وكان شديد المحبة للغزو والجهاد للكفار فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات .

ذكر أول فتح له وانتصار

أول فتح لمولانا السلطان سليمان وانتصار انتصاره على والى دمشق لما خلع طاعته عند سماعه بموت أبيه وأراد أن يكون سلطانا وهو الأمير جان بردى بيك الغزالى وأصل ذلك أن المرحوم السلطان سليمان استخدم من أصحاب الغورى أميرين وهما خير الدين بيك وجان بردى بيك الغزالى وكلاهما من الجراكسة ، وكان بينهما وبين الغورى عداوة ، وكان يكرههما وهما يكرهانه ، فلما كان القتال بين الغورى والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغورى أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجابا أمامه ووقف الغورى مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهم متأخرين عنهما وأراد بذلك أن يقتلا بالبعادق فى أول القتال فيسلم هو ومن معه فتفطن خير الدين بيك والغزالى لذلك ، فأرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه الأمان فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وتعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك القتال ، فلما تلاقى العسكر فر خير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفر الغزالى بمن معه من الميسرة وبقى السلطان الغورى ومن معه فى القلب فهلك من هلك وهرب من هرب وقتل الغورى تحت سنابك الخيل ، فلما تم الأمر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرب خير الدين بك والأمير جان بردى وأدناهما ثم ولى الأمير جان بردى دمشق والأمير خير الدين مصر فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما فلما بلغ الأمير جان بردى والى دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها فجمع جموعا ، وسار إلى مدينة حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة فلم يقدر عليها ، وكان نائب حلب إذ ذاك قرجه أحمد باشا فجد فى دفعه

Marfat.com

واجتهد فرجع جان بردى إلى دمشق وزاد فى تحصين القلعة وترميمها فأرسل إليه السلطان سليمان وزيره فرهاد باشا فى عسكر كثير فالتقوا مع عسكر جان بردى فى موضع يقال له المصطبة بأرض القابون وذلك فى صفر سنة ٩٢٧ فانهزم جان بردى وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل ولم يبق له ولا لجنوده أثر وقال القطبى أنهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الباب العالى فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع إلى دار السلطنة فخلع عليه السلطان وزاد فى قدره ورتبته .

ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان

الغزوة الأولى قتال قرال انكروس لارش ويقال لهم المجر كان من سعودات السلطان سليمان سليم ، أنه فى أول ولايته كان بين دول الإفرنج اختلاف واضطراب وفتن بين الفرنسيسى وأسبانيا وإيطاليا فاغتنم السلطان سليمان هذه الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة ٩٢٧ ، وكان رحمه الله محباً للجهاد فى سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه لإعلاء كلمة الله لم ترتفع راية الإسلام على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر منه جهاداً ونصرة للدين فبرز بجيوشه بنفسه من القسطنطينية براً لإحدى عشر ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كثير وأمر بتجهيز أساطيل كثيرة بحراً فجعل منها ٥٠ للمجاهدين وأربعمائة الدواب والأثقال وسيرهم حتى دخلوا فى نهر الطونة فأرسلوا بقرب بلغراد وهى مدينة حصينة لها سور منيع وقد أحاط بها نهران عظيمان ، وهما نهر الطونة ونهر منارة ، قيل أن السبب فى هذه الغزوة أن المجر قتلوا المباشر الذى كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخراج فكان ذلك سبباً لغضب السلطان وجعل السلطان خروجه على طريق وارنة ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشاً حاصروا قلعة بوكر دلوه وهى قلعة حصينة على شاطىء نهر صاوه فحاصروها حتى ملكوها ثم توجهوا إلى بلغراد ثم لحق بهم السلطان وصاروا جميعاً محاصرين بلغراد ولم يزل يشتد الأمر ويعظم القتال حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيراً من الكفار وفازوا بغنائم لاتحصى واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب

Marfat.com

كثيراً منها ، فلما شاهد الكفار هذا الفتح العظيم جاؤا له بمفاتيح ثمان قلاع منيعة هناك ثم أمر السلطان بتعمير ماتهدم من قلعة بلغراد وعين لها أميراً وقاضياً ورجع إلى كرسى سلطنته سالماً غانماً فى شهر ذى القعدة الحرام من سنته .

الغزوة الثانية غزوة رودس

وهى جزيرة فى وسط البحر مابين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصنا حصينا فكان فى غاية الاستحكام مكينا جعلوه لأخذ المسلمين وأتقنوه فى غاية الإتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين ، وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة إلى السفائن التى تمر فى البحر من مسافة بعيدة فيتهيئون للتحصن إن كان ذلك عسكراً من المسلمين ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبداً يجهزون أموالهم إليه لتصرف فى استحكام بنائه وإتقانه وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمى على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب ويهيئون أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة إذا أحسوا بسفنة فى البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا إليها تلك الأغربة وأخذوها وغنموا مافيها من الأموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم ، وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك ، فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الأذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم وكان سفره الميمون إليها ونزوله ومخيمه الشريف فى اسكدار متوجها إلى هذا الغزو لعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها فى شهر رمضان من السنة المذكورة وكان عدة الجيش الذى جهزه مؤلفا من مائتى ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمائة سفينة فأحاطت الجيوش برا وبحرا بجزيرة

Marfat.com

رودس وحاصرها فأرسل ملكها يستنجد بملك الفرنسيس وملك أسبانيا فلم يجيباه لما كان بين ملوكهم من الفتن فأرسل البابا صاحب رومة إليهما يحثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة لأنها من الحصون المانعة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين ، فلم يلتفتا إلى كلام البابا وفى رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآها قلعة حصينة كان بانيها ماهرا فى الهندسة بحيث أنه بنى سور القلعة تحت الأرض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وجعل للبلد سورين فى عرش سبعة أذرع وملأ مابينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ولها من جانب البحر مينا عظيمة مدورة كالحوض ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ولها بعض بروج تناغى فى الرفعة والإحكام سمك السماء وحضر خير الدين بك صاحب مصر فى أربعة وعشرين غراباً إمدادا للمسلمين واستمروا فى أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق وللدافع مدة تزيد على ثلاثين يوماً وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيئا قال العلامة القطبى وما أمكن من فى البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذى حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ولا أمكن أيضا القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد فى البحر والرمى على من يقربها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمون بالمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبل وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا إلى أن وصل التراب فى الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه فصار الكفار تحت للمسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق وثقب الأسوار من تحت الأرض ، ثم أنهم ملأوا الثقوب بالبارود وأضرموها بالنار فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها إلى القلعة ، فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الأمان فأمنهم السلطان ثم رجعوا عن ذلك لأنه أتاهم مدد من الكفار فى عدة مراكب فى الليل فشرع المسلمون فى الحرب ثانيا قيل إنهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت خرابا حتى اضطر الكفار وطلبوا الأمان وأرسل أمير القلعة خمسين نفراً من كبارهم بالرسالة فقبل السلطان سؤالهم فأمنهم وأذن لهم فى المسير مع جماعة

Marfat.com

وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عددا كثيراً مأسورين عندهم من الأشراف والأعيان والعباد من مدة متطاولة فى سلاسل وأغلال فأطلقوهم وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة ويتسربه من بلاد إيطاليا فأقاموا فيها إلى أن نقلهم الملك شركان امبراطور أسبانيا إلى جزيرة مالطة فنسبوا إليها فكانوا يقال لهم شقالرية مالطة وصارت من ذلك العهد دار إقامتهم إلى أن استخلصها منهم بونابرت وهوآت إلى مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة ، ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينه رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقى بها وكان فتح رودس لستمضين من شهر صفر الخير سنة تسعمائة وتسع وعشرين وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس بذلك تواريخ ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله) ٩٢٩ وفتحت عدة قلاع فى ذلك العام ورجع السلطان إلى القسطنطينية كرسى ملكه سالماً غانماً .

ذكر عصيان أحمد باشا والى مصر وخلعه السلطان

وأخذ البيعة من الناس لنفسه

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربى معه ونشأ فى خدمته وملازمته اسمه ابراهيم باشا وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا فظن أن وزارة الصدارة لاتتعداه إلى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه فأعطى السلطان سليمان الصدارة لابراهيم باشا فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة فى كثير مما يتعلق بالصدارة ، فشكاه ابراهيم باشا إلى السلطان ودبر فى إزالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعاً كثيرة يستجلب بها خاطره فمضى إلى مصر والياً وصار يتعقبه إبراهيم باشا فى أشياء كثيرة للعداوة السابقة ويرميه عند السلطان بما يوجب قتله فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله بالأمر الشريف السلطانى ويتولى أحدهم مكانه إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة من يختاره السلطان وأرسلت

Marfat.com

هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المذكورين فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطانى ورد إليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوى إلى جبل يعصمه من السلطان وإنه يقابل ويقاتل بجيش بلفقه من مصر . فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر فى أيام الجمع ورتب عسكراً بمصر من العوانية وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى أهل قلعة الجبل وجمع عليهم الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوى ومحمود بك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقاً سلطانيا وناديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه ، فاجتمع تحت الصنجق السلطانى خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمود بك وجانم الحمزاوى بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجل النصف الثانى هجوم العسكر السلطانى عليه فهرب إلى السطح وتخلص من مكان إلى مكان وخاص إلى البر والتجأ إلى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية يسمى عبد الدائم وقوى العسكر السلطانى ونهبوا ماجمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا إليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم فقطعوا رأسه وطافوا بها مصر وعلقوها فى باب زويلة ، ثم جهزوها إلى الأعتاب السلطانية وذلك فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وضبط مصر محمود بك وجانم الحمزاوى إلى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة متوالياً مصر واستمر ابراهيم باشا فى وزارته العظمى ، ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم إلى مصر لإصلاحها فجاء إليها بغاية العظمة والإقبال ونظر فى أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ورجع ابراهيم باشا إلى دار السلطنة فكان مقبولا معظما عند السلطان نافذ الأمر والنهى إلى أن أفرط فى الدلال وزاد فى الإدلال فاستبد بالأمور واستقبل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وإدلاله وكثر حاسدوه فوشوا به إلى السلطان سليمان وقالوا له إنه يريد قتل السلطان

د

Marfat.com

والجلوس على تخت السلطنة ، فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الأمر ، فقال يوما لإبراهيم باشا وهما فى مجلس أنس أنى أريد أن أجعل السلطنة لك فقال العفو يامولانا السلطان فإن العبد لا يبلغ مرتبة السيد فقال له السلطان لا بد من ذلك فقال ابراهيم باشا يكفى أن يتفضل مولانا السلطان على بأن يأمر فى دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمى فإنى أكتفى بالمشاركة فى السكة فلما أطلع السلطان على صحة ذلك الأمر بالقرائن التى ظهرت له أمر بقتله فطلبه السلطان فى ليلة من ليالى أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس وإنعامات وافرة ووهب له جميع ما كان فى مجلسه من أوانى الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده فى مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه إلى أن غلب سلطان المنام على مقتلته وأماقيه فأمر بذبحه فذبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيراً وكان السلطان قريباً من موضعه ، وقد صمم فى أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفى نبراسه وأخمدت أنفاسه ولعل كثرة إحسانه إلى الناس ونشر مكارمه التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى فى الدار الآخرة ولعله صدقت نيته فى بعضها فصادفت قبولا وصارت له عند الله ذخرا ، فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء الأبرارا ، وماربك بظلام للعبيد ، وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمائة وإحدى وأربعين وفى قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولى الأبصار والمستبصرين ورحم الله القائل :

ومصاحب السلطان مثل سفينة فى البحر ترعد دائما من خوفه
إن أدخلت من مائها فى جوفها أدخلها وماءها فى جوفه

وفى سنة ثلاثين وتسعمائة هلك سلطان العجم اسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طهماسب شاه .

Marfat.com

ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسلطان سليمان

فى سنة اثنتين وثلاثين حضر إلى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان مضمونها الشكاية إليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده وذكر فى تلك الكتابة تفخيما وتبجيلا وتعظيما كثيراً لمولانا السلطان يستعطفه به فأجابه إلى مطلبه وأنجده وجهز له جيوشاً كثيرة برا وبحرا ، فكانت تلك الجنود مع الفرنسيس إلى أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدما وأتباعا للدولة العثمانية .

الغزوة الثالثة إلى الأنكروس

فى سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الأنكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ولم ينجح فيهم التخويف والموعظة ، فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهز لهم جيشا يبلغ مائتى ألف مقاتل ، وقيل ثلاثمائة ألف ، وخرج بنفسه ، فلما وصل إلى بلغارد لم يزل مشغولا بفتح الحصون والقلاع جاء أكثر أهلها يطلبون الأمان وسلموا مفاتيح القلاع ، ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى إلى نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا ، فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسرا ممدوداً أمام قلعة هرسك فاجتاز العسكر منه إلى بلاد الكفار ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع فبقى المسلمون فى بلاد الكفار وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم ، ولما سمع القرال لارش ويقال له أيضا لارس وهو رئيس كفار أنكروس أعنى المجر جمع جنوده ، وسار بهم من كرسى مملكته إلى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وأن يبادرهم فى القتال اغتراراً بمن معه من الجند وخيم فى مفازة هناك تسمى صهارج وأشرف المسلمون

Marfat.com

محل الـكفار وربوة القتال فرتبو الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب وتضرع السلطان إلى الله تعالى رسالة النصر وتوجه إليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعل أمام العسكر فى هيئة الحاجزين العسكرين مائة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الـكبار وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ووقف عساكر السلطان الأنقشارية تسع صفوف كما هى عادتهم فى الحرب وهجم الـكفار بأجمعهم على القلب فرأوا أنه لا سبيل إلى العبور بسبب العجلات فانحازوا إلى طرف اليمين فوقع بينهم وبين عسكر المسلمين أهل روملى مقتلة عظيمة ، فلما علم الـكفار أنهم لا طاقة لهم بهم انحازوا إلى طرف عسكر أناطولى فاقتتلوا أيضاً معهم قتالا شديداً ، وكان قد أصاب رئيس الـكفرة القرال لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه فتضعضعت جنوده عن المقاومة وامتد القتال إلى غروب الشمس ، ثم انتصر المسلمون وانهزم الـكافرون وصاروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى صارت أجساد الـكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل وغنم المسلمون من الأموال والدواب شيئاً لا يحصى ، قيل أن القتلى من الـكفار عشرين ألفاً ثم أغار الجند على بلاد أنـكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤا بالأسرى والغنائم واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع الواقعة فى الجهة الجنوبية من تلك المملـكة ، ثم رجع قافلا إلى القسطنطينية فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة .

الغزوة الرابعة إلى بلاد النمسا وقرادنز

كانت هذه الغزوة سنة ٩٣٥ وسببها أنه اجتمع كفار النمسا والألمان وقرادنز وأغلى على قلعة للمسلمين تسمى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة ، فلما بلغ الحضرة السلطانية ما فعلوه استشاط غيظاً وأمر بالتجهيز للغزو ليحصل قمعهم فبرز من دار السلطان إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة

Marfat.com

واستمر راحلا بجيوش كثيرة إلى أن وصل إلى المخيم العالى فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت بخراج أنكروس كل عام فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالأمان وعادت إلى بلادها واستمر الوطاق السلطانى وتوجه كثير من العساكر إلى محاصرة قلعة بدون التى كانوا أخذوها فحاصروها وضيقوا على من فيها إلى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وكان فتحها بعد حرب شديد ، ثم ولوا هاربين ومأسورين ومقتولين لأربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ثم فتحت قلعة تياق حصارى ثم توجه العساكر إلى محاصرة قلعة أخرى قريب تخت النمسا كانت من أعظم قلاع الكفار فأحاط الجند بها وحاصروها فطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة مولانا السلطان ، ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الإسلام غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت وأخربت ونهبوا من كانوا نازلين بأطرافها وحواليها وسبيت أولادهم ونساؤهم وعاد السلطان إلى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة .

الغزوة الخامسة إلى بلاد النمسا أيضا

فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من القسطنطينية بمائة وعشرين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع لحرب النمسا ونازل مدينة فينا عاصمة مملكة النمسا وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال وحصلت أمطار شديدة تأذى المسلمون منها وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر وصعد بعضهم على الأشجار هربا من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم فى مشقة شديدة حتى انكشفت المياه ، ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة وقتلت عسكر الانقشارية الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ولما وصل مولانا السلطان إلى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه وأجلسه عن يمين كرسيه ولما أراد الانصراف خلع عليه خامة ثمينة وأعطاه

Marfat.com

ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ورجع السلطان إلى مقر سلطنته سالماً .

الغزوة السادسة إلى بلاد الألمان

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن زال النيمسا جمع طائفة من كفار الألمان وأراد الإفساد والطغيان فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى المبادرة إلى قتال هذا اللعين فجهز الجيوش براً وبحراً وأرسل في شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظة وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غرابا مشحونة بالعساكر الأبطال فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبى كثيراً منهم وتوجه مولانا السلطان براً من دار السلطنة في رمضان من السنة المذكورة ، فوصل بجيوشه إلى مملكة الألمان وأحاط بما فيها من الحصون والقلاع بعساكره وضيقوا عليها ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيراً من زراعي الكفار وغنموا ما لا يحصى من الأموال وقتلوا من الرجال ما لا يخطر بالبال وهرب ملوكهم وتركوا صملوكهم وبذلوا ما بقي معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة السنية إلى سؤالهم وكتب لهم توقيع الأمان وعاد مولانا السلطان إلى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

الغزوة السابعة إلى بلاد السرب

في سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمائتي ألف مقاتل لمحاربة السرب فافتتح في طريقه أربع عشرة قلعة واستولى على أكثر حدود بلاد النيمسا ثم رجع إلى القسطنطينية سالما غانما ، وفي سنة أربعين عقد صلحا مع ملوك الفرنج أهل أوروبا ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل بينهم .

Marfat.com

الغزوة الثامنة إلى بلاد العجم

فى سنة أربعين وتسعمائة توجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى محاربة العجم فجهز جيوشاً كثيرة وأرسلها مع الصدر الأعظم فى أوائل شهر ربيع الأول فافتتح كثيراً من القلاع والحصونِ والمدائن ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه فى ثامن ذى القعدة حتى انتهى إلى تبريز فاستقبل الصدر الأعظم قبل وصوله إلى تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم وهرب سلطان العجم وصار ينتقل فى الجهات والأطراف حتى انتهى فى هربه إلى خراسان ولما وصل مولانا السلطان إلى تبريز استقبله أهلها وهنوه بالقدوم ، فلما جاء الشتاء توجه إلى مدينة بغداد ، وكانت بيد سلطان العجم ، وكان له نائب بها وهو بكلو محمد خان فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث إليه بالطاعة ثم هرب إلى بلاد العجم فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وكان إسماعيل شاه نقض تربته وهدمها فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهداً عظيما وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام وبنى فى بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر ، وكان دخول مولانا السلطان بغداد فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ولما أقبل الربيع نزل منزلا يقال له صاروجه قش ، ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل فى بلاده حتى وصل إلى مدينة دركزين فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح وكتب إليه سلطان العجم أنه لا يقاتل أبداً ويرجوه من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأل العفو وأن يعود مولانا السلطان إلى بلاد الروم وأعطى العهود أنه لا يخون وتكون البلاد التى أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبداً وأنه يكون تحت خدمته بلبيه كلما دعاه فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحاً وأمر العساكر بالرجوع فرحل بهم ورجع إلى مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وزينت المدينة واستبشروا بقدومه وألطف تاريخ قيل فى ذلك : فتحنا العراق .

Marfat.com

الغزوة التاسعة إلى مملكة أسبانيا وجزائر الغرب

كانت هذه الغزوة فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة كما فى التاريخ القبطى وذكر بعض المؤرخين أنها كانت فى سنة خمس وأربعين وحاصلها أن مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمائة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا فافتتح عساكر البر لبحر قلاعا وحصوناً كثيرة بعد حروب كثيرة وتملكوا أربعة وثلاثين حصناً وخمسا وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا وضربوا مراكب البندقية ، وكانت مائة وسبعة وستين فشتتوها وسلمت البندقية لمولانا السلطان قلاع نابولى ورومانيا وغيرهما ودفعت لمولانا السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع سالماً منصوراً مظفراً وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم مما لا يحصى .

الغزوة العاشرة إلى البغدان

وكانت هذه الغزوة فى سنة أربع وأربعين وتسعمائة توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة إلى بلاد البغدان وقتل فيها وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالا كثيرة وأسر نفوساً عديدة غير محصورة وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيداً من عند الله سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل إلى دار السلطنة لست بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

الغزوة الحادية عشرة إلى اسطبور من بلاد أنكروس

سبب هذه الغزوة أن مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها أردل بانو بتلك البلاد ثم توفيت فأراد قرال النمسا أن تتملك تلك البلاد فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة إلى قتال قرال النيمسا ، فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطان فر هاربا إلى الجبال وتقهقر عن القتال فتبعته الأبطال ففر منهم

Marfat.com

فجالت العساكر المنصورة فى تلك البلدان وقتلوا أهل البغى والعدوان وسبوا الأولاد والأطفال والنساء وتركوا ديار الكفر قاعاً صفصفا وغنموا مغنانم كثيرة وفتحوا قلعة اسطبور وفتحت أيضاقلعةرشوة وقتلوا من الكفار مالا يحصى وعاد مولانا السلطان بعساكره إلى مقر سلطنته منصورين مؤيدين .

الغزوة الثانية عشرة غزوة استرعون

كانت هذه الغزوة سنة ٩٥٠ وذلك أن مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد الروملى من طوائف الكفار بالغزو والجهاد فتوجه من دار سلطنته بالجيوش المتواترة وسار إلى أن أحاط بقلعة واليوه وقامة شقلا ولاشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون فحاصرها إلى أن فتحهما فى غرة ربيع الأول من العام المذكور ثم افتتح قلعة استرعون وهى قلعة فى غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والأموال مملوءة بالعدد والعدد الوافر فحاصروها وألقى الله الرعب فى قلوب أهلها ، ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذاً وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الأموال وسبيت النساء والأولاد والأطفال وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع والقلاع وكذلك فتحت قامة استولاين بلغارد وهى قلعة سامية العماد وعين لها ولغيرها من القلاع الأمراء الحفاظ النبلاء الأيقاظ ونصب لكل منها قاضيا يجرى الأحكام الشرعية وسنجقاً للاستحفاظ ، وصارت من الممالك المحروسة السلطانية وصارت البيع والكنائس مساجد للصلاة والعبادات ، ورجع مولانا السلطان إلى كرسى ملكه مظفراً منصوراً .

الغزوة الثالثة عشره سنة أربع وخمسين وتسعمائة

هذه الغزوة كانت إلى الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وإنما جهز الجيوش وأرسلها وسببها إلى طائفة من الفرنج يقال لهم البرتوقال كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم فى بحر الهند ، فأرسل سلطان الهند إلى مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو إليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا على ممالكه ويطلب نجدة من مولانا السلطان

Marfat.com

فجهز إليه عساكر فى مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا فوصل بها إلى الهند ودفع البرتوقال فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين إلى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها ورجع سليمان باشا إلى اليمن ثم إلى دار السلطنة غانما سالماً .

الغزوة الرابعة عشر إلى بلاد العجم

كانت هذه الغزوة أيضا سنة أربع وخمسين وتسعمائة إلى بلاد العجم وسببها أن سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمى القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ، ثم وقع بينهما اختلاف آل الأمر منه إلى القتال ولم يكن للقاسب طاقة لمقاومة أخيه وجيوشه ففر هاربا مع جماعة من خواصه إلى الروم ملتجئاً إلى مولانا السلطان سليمان فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الأحمر شيئاً كثيراً ووهب له عدة أحمال من الأقمشة وعدة خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه إلى المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر ، وفى الثامن من شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمائة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصداً بلاد العجم ، فلما قرب من حدود أذربيجان نزل ببرهان واستخلص شروان من يد جماعة طهماسب ، وفى عشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة وصل إلى تبريز وفوض أمرها إلى القاسب ميرزا أخى سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه ، فلما تولى القاسب إمارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم على عادة ملوك العجم فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه ، وكان قصد السلطان أن يسير على مدينته وأن يخلصها منه لأنه ملكها من نواب السلطان بعد أن ملكوها فوصل إليها فى عاشر رجب ، وكان طهماسب شحنها بالرجال والأبطال وأحصنها غاية الإحصان ولم تزل العساكر يعالجون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها ، فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلى بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع إليه واستشفع به فشفع القاسب عند

Marfat.com

السلطان سليمان فى إعطائهم الأمان والعفو عنهم فقبل شفاعته فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الأعلام الإسلامية وولى السلطان اسكندر باشا الدفترى أمير الأمراء بها ، ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير إلى طرف ديار بكر فسار يشتى حتى وصل إلى مدينة آمد فبينما هو مخيم فيها إذ ورد أن العجم لما بلغهم عود السلطان دخلوا مدينة أذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع، فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير إليهم وعضده بجماعة من العسكر واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم ، ثم أن القاسب أخا سلطان العجم تضرع إلى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم إلى بلاد أصفهان وقم وقاشان لأن بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه فأجابه السلطان سليمان سؤاله وعضده بطائفة من عساكر الأكراد والأعجام واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل إلى حلب ووصل القاسب بمن معه إلى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل إلى حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ثم عاد إلى بغداد وشتى بها ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولى ببغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت أن عرض محمد باشا إلى السلطان سليمان بأن القاسب ترفض ورفض طاعة السلطان ولم يكن الأمر على حقيقته وإنما هى مكيدة فعلها فى حقه بغضاً وعداوة فلما اطلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب إلى بلاد الأكراد ولم يزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة .

الغزوة الخامسة عشرة إلى بلاد العجم أيضاً

وفى سنة ستين وتسعمائة كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب فى غرة ذى الحجة ، ولما وصل إلى أذربيجان كتب إلى سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره على ترك الحرب والاختفاء فى الكمون

Marfat.com

ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل إلى مدينة وان وهى من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعاً وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ثم لم يزالوا كذلك حتى وصلوا فى سادس عشرين شعبان من سنة إحدى وستين وتسعمائة إلى مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور شامخة لأركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته، فلما دخلها العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها فصارت البلد كأنها أرض قفراء ماعمرت قط وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدورا على قتله، ثم أغاروا على مراغة فنهبوا وأحرقوا واقتتلوا مع ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم وأخذوا تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم، وفى أثناء ذلك وصل وفد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب محصله أنه ندم على ما أظهر من عداوة وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ إلى عتبة السلطان يطلب منه الصلح فأجابه إلى مسئوله وخلع على الوافد ثم توجه السلطان وشتى بمدينة أماسية ثم رجع إلى كرسى مملكة القسطنطينية .

الغزوة السادسة عشرة إلى سلطان المغرب

لهذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق وهو يدل على ضخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلو همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وإن لم يخرج فيها السلطان بنفسه فينبغى ذكره لغرابته تتميما للفوائد وهو ماذكر فى تواريخ أهل المغرب منها التاريخ المسمى نزهة الحادى فى أخبار أهل القرن الحادى وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبد الله الأفرانى المراكشى وذلك أنه ذكر هذا الخبر فى ترجمة السلطان الملقب بالشيخ أبى عبدالله محمد المهدى بن أبى عبدالله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش وفارس (وحاصل) ذلك الخبر أن السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه تلقب بالمهدى وتاقت همته إلى بلاد المشرق فكان يقول لابد لى أن أذهب إلى مصر وأخرج الأتراك من أحجارهم وأنازلهم فى ديارهم فبلغت مقالته مولانا السلطان سليمان العثمانى وكان أبو عبدالله

Marfat.com

لايسعى سلطان العثمانيين إلا سلطان الحواتة لكون الغالب على الأتراك سفرهم فى السفاين فأنهى ذلك للسلطان سليمان العثمانى فبعث له أناساً برسالة فلم يحتفل بهم بل قال اخبروا صاحبكم أنى مقتحم عليه بلاده ومتوجه للقائه فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبى عبد الله الشيخ وما قاله لهم بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين بالجزائر أن يأتوا برأس أبى عبد الله ، فبعثوا رجلا من أبطال جندهم فى شرذمة من الأجناد مظهرين أنهم هربوا من السلطان العثمانى ورغبوا فى خدمة أبى عبدالله ونيتهم المكيدة به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك ، فلما قدموا على السلطان أبى عبد الله فرح بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه وكان عنده جماعة من الأتراك استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم ،فلما حضر هؤلاء الأتراك فرح بهم الأولون إذ كل غريب للغريب نسيب وأن من الغريب يعجب الغريب فلم يزل الأتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبون المكيدة للفتك بأبى عبد الله فسافر للقتال بعض العساكر عليه فلما كان بجبال درنة بموضع يقال له أثلاثة دخلوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسكر وبقية الخدم فضربوا رأسه بشافور ضربة واحدة أماتوه بها واحتملوه فى محلاة وذهبوا به فى الظلماء عامدين إلى جهة سجلماسة كأنهم رسل إلى تلمسان لئلا يفطن بهم أحد ثم أدركوا فى بعض المواضع فقاتل معهم طائفة حتى هلكوا وهرب بعضهم بالرأس إلى أن أبلغوه للسلطان سليمان بالقسطنطينية فلم يزل الرأس معلقا بها إلى أن تلاشى وكان قتله فى التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة وحمل جسده إلى مراكش ودفن فى قبور الأشراف انتهى .

الغزوة السابعة عشرة لم يخرج فيها السلطان بنفسه

فى سنة أربع وستين أيضاً سارت جيوش السلطان سليمان إلى اليمن لإصلاح اليمن وتملكه ودفع المتغلبين فيه فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وتمام الإصلاح ودفعوا البرتقال التى كانت تقطع البحر وتغير على بلاد الإسلام بعد امتداد الفتن إلى سنة ثمان وستين وتسعمائة .

Marfat.com

الغزوة الثامنة عشرة

وفى سنة سبع وستين وتسعمائة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة إلى جزيرة جربا فى إفريقيا وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيراً وأتى به إلى القسطنطينية ، فلما بلغ ذلك ملك أسبانيا ركب على بلاد الجزائر وأخذ بعض قلاع ومراكب تخص الدولة فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة خرج القبطان سنان باشا من ميناء القسطنطينية بعمارة تحتوى على مائة وإحدى وثمانين مركباً ومعه السر عسكر مصطفى باشا فلما وصلوا إلى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا فى عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد إلى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين وسمروا على أخشاب وطرحوا فى البحر أمام المدينة وهى محاصرة وكان قد وقع فى يد حاكم المدينة أسرى من الأنكشارية فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤسهم ووضعها فى المدافع وضرب بها المحاصرين ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا .

الغزوة التاسعة عشرة

وفى أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر فأرسلوا يطلبون الصلح ولم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم فغضب السلطان وأمر بحبس رسولهم وعزم على السفر إليهم بنفسه فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة فعفا عنهم وأمنهم .

الغزوة العشرون

وفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة نمصارى المجر تسمى سكدوار والحال أنه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النقرس وهو روم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين فمنعه الأطباء عن السفر فلم يقبل

Marfat.com

منهم لمحبته الجهاد وقال أريد أن أموت غازياً فخرج لتسع مضين من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة فسار بعسكر كثير متزاحم الأفواج متلاطم الأمواج ، وبعث وزيره برتو باشا إلى فتح قلعة كولة فلم يلبث إلا قليلا حتى فتحها وأما السلطان فإنه وصل إلى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذى به وكثرة الأمطار وسار منها إلى سملين فتسلمها وفتح جملة قلاع وبلدان وأما قلعة سكدار فهى قلعة فى غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء فى حضيض الماء شامخة الارتفاع فى الهواء إلى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بجيوش النصارى وأبطالهم فكانت فى المتانة إلى حد الغاية وقد أحاطت بها المياه والأوحال من كل جانب فلم يزدد أمر القلعة إلا استعصاباً واشتد مرض السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يجعل بالفتح ونصر المؤمنين وقال قد تحقق عندى الفتح بتيسير إن شاء الله ويكتب فى التواريخ أن سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله وهو أوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثانى ثم انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأخفى الوزير الأعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ودعا رئيس الأطباء فشق بطنه وملأه بالأجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ثم لم يزالوا يجدون فى أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا صاحبها وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه وكان من جملة أسباب فتحها أن النار اشتعلت فى خزينة بارود الكفار وهى مخزونة فى القلعة المذكورة ، فأخذت جنبا كبيراً من القلعة رفعته إلى عنان السماء زلزلت الأرض زلزلة هائلة وتطايرت جلاميد الصخار إلى الهواء ورمت شرراً ولهبا ودخانا إلى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيراً من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقى منهم فتزاحم المسلمون على دخولها والهجوم على من فيها فاقتلعوها من أيدى الكفار ووضعوا السيف فى جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار وما ذكرنا من أن الفتح إنما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام هو مافى بعض التواريخ وفى تاريخ القطبى أن الفتح كان قبل وفاة السلطان وأنه لما جاءه خبر الفتح وهو فى غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة

Marfat.com

واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن ، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة ٩٧٤ ولم يزل العسكر هناك فى ترميم القلعة وإصلاحها حتى بعث محمد باشا إلى السلطان سليم يدعوه إلى سكدوار ، وكان يومئذ على إمارة كوتاهية فلما جاء الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك فى التاسع من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وتمت له البيعة واطمأن الناس ، ثم خرج فى اليوم الثالث وتوجه إلى اسكدوار فلحق العسكر ولم يختل عليهم شىء فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى فى العجلة ونقلوه إلى القسطنطينية ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة ، وكان قدوم ولده السلطان سليم إلى القسطنطينية من سكدوار فى شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان الحرب لم يزل قائماً بين العساكر العثمانية وملك النمسا ، ومن العجائب التدبير الذى حصل من الوزير الأعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان فإنه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات وأعطى الأمراء الترقيات ، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات بحصول النصر والظفر وأرسل سراً يستدعى ولى العهد السلطان سليمان الثانى ويستعجله فى سرعة الوصول وكتم ذلك عن جميع العسكر والأمراء والوزراء والأنام وأحسن التدبير فى هذا الكتم ، واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام وهم فى ديار الكفار وذلك من كمال العقل التام والرأى الصائب إلى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم وقع الصلح على الهدنة ثمان سنين ودفع ملك النمسا لخزينة السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع مولانا السلطان سليم إلى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطنها ورثت الشعراء مولانا سليمان بقصائد كثيرة .

ذكر خبر عجيب

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى أنه قبل وفاته أحضر بقشة وأوصى أن تجعل معه فى القبر فلما أخبر بذلك شيخ الإسلام المولى أبو السعود العمادى رحمه الله قال لابد من الإطلاع على ما فى هذه البقشة قبل أن نجعلها معه فى القبر ،

Marfat.com

فلما فتحوها وجدوا فيها الأسئلة التى كان مولانا السلطان يسأل عنها شيخ الإسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه فبكى شيخ الإسلام المذكور وقال إن مولانا السلطان أراد ليبرىء ذمته عند السؤال عن هذه الأحكام وجعل السؤال متوجهاً إلى من كتب ما فيها فأسأل الله النجاة والخلاص .

الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان

التى لم يحضرها بنفسه

هذه الغزوة وكانت فى الحجاز وهى مما ينبغى أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وإن كان المباشر لها مولانا الشريف أبا نمى ، وحاصلها أن طائفة البرتوقال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الإسلام فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب ، وكان ذلك فى أواخر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيراً من بنادر الإسلام وخربت وأفسدت فيها ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبى الدوائر فى خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمى أمير مكة بنفسه وترك الحج ونزل إلى جدة فى جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء بالجهاد فى نواحى مكة وقال من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة ، فبلغ المبادرون للجهاد مبلغاً عظيما لا يحد ولا يعد ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عدداً وعيشاً رغداً وخدم مولانا الشريف أبى نمى يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام ويشترونه بأغلى الأثمان حتى فرغت الحبوب والأقوات وكادت تعدم فأقبلوا على نحر الإبل ، فكان مولانا الشريف يأمرهم بأن ينحر لكل مائة نفس بعير أو ناقة واستمر الأمر على ذلك مدة فقال له بعض الناس أن هذا الفعل يستأصل ماعندك من الإبل فأجابه بأنى نويت أن أنحر ماعندى من الإبل فإذا فنيت أمر بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله ، فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة ويلبس

Marfat.com

الخلعة الواردة ويحج الناس على عادة أجداده الكرام ، فلما وصل أمراء الحج قابلهم وفعل مثل ما أمره والده ، وحج بالناس ، فلما قضوا الحج توجهوا إلى جدة لمقابلة مولانا الشريف أبى نمى وإلباسه الخلع الواردة فلاقاهم وهو شاكى السلاح لابساً درعه فى هيئة المقاتل ، ولما قدموا عليه أمر بإطلاق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمائة مدفع فكان مشهداً عظيما فألبسوه الخلع الواردة وأضافهم وأكرمهم غاية الإكرام وانصرفوا راجعين ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خائبين ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد فى إكرام مولانا الشريف أبى نمى وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل إليه غير ذلك من الأنعامات التى لا تحصى وهذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبى نمى تدخله فى عداد الغزاة المجاهدين فى سبيل الله ولم تكن لأحد غيره من أسلافه وأحفاده وأمراء مكة فرحم الله الجميع رحمة واسعة .

تنبيه

ذكر العلامة الفاسى فى الأعلام بأخبار بلد الله الحرام أن الحبشة جاءت إلى جدة فى خلافة الرشيد سنة ١٨٣ فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين إلى مكة فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمد بن إبراهيم المخزومى ، فلما رأت الحبشة ذلك هربوا إلى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة فى البحر وقيل إن هذه القصة كانت سنة ١٧٣ وقد ورد فى فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة منها ما ذكره شيخ الإسلام حافظ بن حجر العسقلانى فى كتابه المسمى لسان الميزان عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان على رأس السبعين والمائة فالرباط بجدة من أفضل الرباط وفى رواية عن ابن عمر أيضاً يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة وروى أيضاً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من أبواب الجنة فى الدنيا الإسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان وفضل جدة على هؤلا كفضل بيت الله على سائر البيوت وفى شفاء الغرام للعلامة الفارسى عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم مكة رباط وجدة جهاد ، وكان

Marfat.com

عطاء يقول إنما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج إلا منها . وروى ابن جريج أن فضل مرابطى جدة عن المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان وعن فرقد السنجى أنه يكون فى آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الأرض مثلهم شهداء . وقال الإمام حجة الإسلام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين أن بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اه .قال صاحب السلاح والعدة ينبغى لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوى الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعناده بالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد إذ العبادات متوقفه على النية لقوله إنما الأعمال بالنيات .

ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والزايات والمدارس والخانقات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين فى كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان فى ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك أنه جدد عمارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٩٣٥ وفى سنة ٩٥٦ أرسل منبراً من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، وفى سنة ٩٦٠ جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب على والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام وبنى أربع مدارس للمذاهب الأربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر تعميراً كثيراً فى الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبإصلاح رخام المطاف ، ثم فى سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدد ، وفى سنة ٩٦٧ أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة فى تحصيل الماء وكان

Marfat.com

تمام هذا التعمير فى مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط فى التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطنهم على الأنام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام ، ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان فى الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لأهل الحرمين وهى مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهى وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام إلا أنه هو الذى ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغاً كبيراً وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم ، فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرد لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة المنورة ألفى أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحة قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى ، ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالى وهى جمع جاليه ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلاءهم عنها وهى من أجل الأموال إذا أخذت على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء ، فلما كانت أيام مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد فى تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها للمذكورين وزاد على ذلك قدراً كثيراً وأخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط حوالى مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الإسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين فى الممالك الإسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الأطعمة للفقراء وناهيك بكثرة وهذه المصاريف فى وجوه الخيرات فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة إلى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة ومن خيرات مولانا السلطان سليمان

Marfat.com

وفتوحاته أنه وقف أوقافا كثيرة متفرقة فى ممالك الإسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة فى جميع ممالك الإسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الأوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ . وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم فى العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا إلى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكوراً وعمله مبروراً .

ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى

ابن مولانا السلطان سليمان

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٧٤ وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده فى شهر جمادى الآخرة كما تقدم . وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفى المذهب كبقية أسلافه مكرما للعلماء والصالحين محبا لهم مواظبا على الصلوات الخمس فى الجماعات وكان إحسانه يصل إلى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن ، فلما جلس على كرسى السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات .

ذكر أول غزوة من غزواته

شاع فى أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثانى على تخت السلطنة عصيان بنى عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين فى أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة . وفى سنة ست وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم إلى اليمن لإتمام الإصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ثم أردف بستان باشا وغيره فانتصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتوقال وملكو صنعاء وغيرها

Marfat.com

الغزوة الثانية إلى قبرس

وهى تتضمن غزوات لايزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور إلى التجهيز على جزيرة قبرس ، فجهز عساكر كثيرة فى البحر ثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ، فلما وصلت العساكر إلى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولا إذا هى مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها ، وقتلوا كثيراً من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤسهم فى طباق من فضة إلى أهل قلعة كرينة فلما شاهدوها خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفاتيح القلعة فتسلمها، ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبنى ماخرب منها وتوجه إلى حصار قلعة ماغوسة وهى من أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت فى هذه القلعة من المدافع سبعمائة وأربعة وستون مدفعاً كبيراً ومن البنادق مالا يعلم عددها إلا الله تعالى فحاصرها العسكر حصاراً شديداً وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والأحجار المنجنيقية وشقوا بطون الأرض شقا وفتقوا قمورها فتقا وبعث أهل قبرس إلى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الأمان فأمنهم الوزير المذكور وطاب كثير منهم المسير إلى بلادهم ، فمكنهم من ذلك ، وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الإسلام ، وعمروا ماتخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم سارت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانها ثم إلى جزيرة كورفس وهى مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعانوا فيها نهباً وتحريقاً ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك ، فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا أن العدو ماقابلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر ، وقد ملأوا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقته العساكر مرسين فى الميناء ، فوصل إليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم ، فهاهم سائرون

Marfat.com

عليكم وواصلون إليكم فى جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك أسبانيا مع البندقية على حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض ، فكان رأى الوزير الأعظم برتو باشا فى ذلك أن لا يقابلهم ولا يقاتلهم ، وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان حبانا إلى الغاية وكان مارآه هو الأنسب بمقتضى الحال وخالفه كاشف البحر على باشا فى ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغواراً فقال لابد من لقاء الكفار فإن وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالإسلام ، وزاد فينا قوة وبسطة فلو سارت أغربتنا وهى خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر مايفى بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم فاتفق الجميع على لقاء العدو فالتقى الجمعان فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان فى طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين والجأتهم إلى البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس إلى الغروب ، وقتل المرحوم على باشا المذكور وجماعة كثيرة لاتحصى وغنم الكفار مامعهم من الأموال والأسباب والأغربة والشوانى وما فيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الإفرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك العلبة عيداً يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذى يفعل ما يشاء .

الغزوة الثالثة إلى قبرس أيضاً

لما كان ماتقدم اهتم السلطان فى إنشاء مراكب وسفائن أخرى مع مايناسبها من المدافع فجدوا حتى تم لهم مارأموا فى مدة سبعة أشهر وما كان ذلك إلا عناية من الله تعالى كأن لم يمسهم ضر ولا شر ، وفى سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطينى صحبة كاشف البحر قلج على باشا القبودان فى مائة وخمسين غراباً غير ما انضم إليهم من المراكب ، فسار يحمى البلاد عن هجوم العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الإفرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفى هذه السنة

Marfat.com

أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود إلى شرف الدولة فصدر الأمر بالقبول وتوقف الحرب .

الغزوة الرابعة إلى البغدان

فى تلك الأيام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع من دفع الخراج فأرسلت إليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيراً ولما حضر ضربوا عنقه .

الغزوة الخامسة إلى تونس

كانت هذه الغزوة فى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة فى سفن وأغربة وغلايين وشوانى مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر على باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق لواد وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الإفرنجى وأسروا صاحبها الأصلى محمد الحفصى وكان قد تحصن فيها خوفاً من العثمانية واستعان بالإفرنج الأسبانيين ، فلم يغنوا عنه شيئاً فأسرته عساكر السلطنة السنية وجاؤا به إلى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبى ، فقال إن سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدى وأن سلطنتهم كانت بتولية بنى عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثه واستمر إلى ظهور الدولة العثمانية ، قال القطبى لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف ، وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الإفرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البلاد ويوصلون جنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولى النصارى سلطاناً من الحفصيين يكون تحت حكمهم إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم المسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له

Marfat.com

حلق الواد كأنه بناه شداد وشحنوها بالأبطال وملؤها بآلات الحرب والقتال وصارت الفرنج تمكن للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون ويرسلون منها المسافرين ويأخذون كل سفينة غصباً وكبير ملوكهم صاحب أشبيلية جزيرة الأندلس بعد أن أخذوها من المسلمين أعادها الله دار إسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا لما تملك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود إلى أن تملك تونس فى قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصى إلى أسبانيا فبعثوا معه جنوداً وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثانى ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشا فى مائتى سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فأحاطوا بتونس وحاصروها وضيقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديداً وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد ، وكان عمق الخندق ستين ذراعاً وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الأبطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ومن أعجب الاتفاق أن هذه القلعة بنتها النصارى فى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها الوزير المذكور فى ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها فكانت الأيام بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور أن ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كثيرة وخزائن من الأموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لا تصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه إلى تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا إلى أن فتحوها وأسروا صاحبها الإفرنجى وصاحبها الحفصى وبعثوا بهما إلى دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة ، هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار .

Marfat.com

ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى المعنوية إضعافه المبرات والخيرات لأهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فإنه كان مسقفاً بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصار فى غاية من الخراب والوهن فبرز أمره السلطان بتعميره وأن يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قبباً وطواجن كما هو مشاهد الآن ، وبرز الأمر بالتعمير سنة ٩٧٩ وكان الشروع فيه فى منتصف المحرم سنة ٩٨٠ وتوفى مولانا السلطان سليم المذكور قبل كمال التعمير فأتمه ولده السلطان مولانا مراد فكان التمام سنة ٩٨٤ فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ وتوفى مولانا السلطان سليم سنة ٩٨٢ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر ، وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الإحكام بحيث أنه لم يبصر أحد مثله ، فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشى فيه إذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسود منها جنبه الذى سقط عليه فمرض منها أياماً ثم توفى رحمه الله وأقيم فى السلطنة بعد ابنه (السلطان مراد الثالث) وكان وقت وفاة أبيه غائباً فى مغنيسيا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوماً إلى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه ، وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا تربى فى حجر السعادة ، واشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيراً من أسلافه واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شىء من الكبائر وكان مكرماً للعلماء والصالحين والفقراء محباً لهم كثير الإحسان إليهم وكان واقفاً عند مراد ربه لا يتعداه عاملا فى أمره بتقوى الله مراعياً للعدل والإحسان فيم استرماه لم يزل قائماً بنصرة الدين وحماية بيضة الإسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه إلا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الأنام وكان له نظم فائق باللسان العربى والتركى والفارسى .

ذكر أول غزوة من غزواته إلى بلاد العجم

كان أهم شىء عنده بعد جلوسه فى السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة مايقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام

Marfat.com

بعده ولده خدا بنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه فى سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير إلى بلاد الشرق فبنى قلعة فارس وشحنها بالمدافع والمكاحل ، ثم سار إلى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج إلى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديداً فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس إلى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوها قديما وغلب عليها الكرج ، ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجى ملكة تلك البلاد ابنها الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع فرحب بالوزير وآنسه وعين له امرأة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدى الوزير، ثم سار إلى طرف شروان بعد أن نصب أميراً على تفليس وبث سراياه إلى الأطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا بن ازدامر والياً بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا إلى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للاغارة فى الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثنى عشر ألفا لقتال عثمان باشا فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره ، ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك ماينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه فى شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك فى شروان جعفر باشا وتوجه إلى القسطنطينية بطلب ليكون صدر أعظم وقاتل فى مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم ، ولما وصل إلى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه .

الغزوة الثانية إلى بلاد العجم أيضا

وفى سنة ثمانى وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا إلى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل إلى حدود العجم فأرسل إليه الشاه فى الصلح وبعث

Marfat.com

للسلطان أحد وزرائه يدعى إبراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الأمر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا ، وفى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر إلى بلاد العجم فسار وتوغل فى بلاد أذربيجان واستولى على مدينة واكا وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا ، وفى سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة إلى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفى هذه السنة أيضا سار الوزير الأعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة إلى قتال العجم فشتى ببلاد قسطمونى وسار إلى بلاد العجم فى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر مالا يعلم عدده إلا الله فعارضه الأعجام فى الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز فى أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف ، ثم شرع فى بناء قلعة حصينة ثم بناء سور المدينة فأتم الجميع فى مدة خمسة وثلاثين يوما ، ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر فى أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم إلا النساء والأطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها إلى بلاد الروم بعد أن أبقى فى مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميراز بن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع العسكر كثير فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بغلته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح إلى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمى المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقاً كثيراً من عساكر الأعجام وانجلى الأمر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير فى ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لأجل إعطاء الترقى والعطية للعساكر ، فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق ، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا بمدينة وان فلما رحلوا أعترضهم العدو يمينا وشمالا ووقع بينهما مناوشات فلما وصلوا إلى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور فى نحو ثلاثين ألفا فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الأعجام بعد أن حصل غالبهم بالسيف .

Marfat.com

الغزوة الثالثة إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة أربع وتسعين وستمائة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة إلى بلاد العجم وصلوا إلى مدينة تبريز وحصلوا قلعتها ورموا سورها وكانت الشاهية حاصروها مراراً عديدة وقربوا من أخذها وبنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنها رجالا وسلاحا، ولم يزل الوزير المذكور يشتى ببلاد الروم ويرجع فى الصيف إلى بلاد العجم حتى مهد البلاد التى أخذت من الكرج وبنى قلاعا وحصونا كثيرة وقاتل قره باغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد إلى بلاد الروم والحاصل أن الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالا ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل منهم حد لا يتعداه أحد منهما وكان ذلك فى مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب ابن اسماعيل وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وستمائة لأنه كان أعمى وأقيم بعده ولده عباس شاه .

الغزوة الرابعة إلى بلاد المجر

فى سنة إحدى بعد الألف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة بستريم وقلعة طاجة وشتى بمدينة بلغراد وفى السنة الثانية فتح قلعة قران بضم القاف وقلعة بانق وهى من أحصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهى مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها وذلك بعد أن نال المسلمون شدة عظيمة قيل أن النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصندوق النبى صلى الله عليه وسلم فتلقاه رجل قبل السقوط ، فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتان فجعلوا يموتون فى فرشهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جافت من الموتى وسر المسلمون بذلك سروراً عظيما ، وتوفى السلطان مرادخان الثالث سنة ثلاث بعد الألف وعمره خمسون سنة ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر وتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثالث) قال فى خلاصة الأثر عند ذكره الملك الأعظم الباهر الشأن

Marfat.com

كان سلطان عظيم القدر مهابا جواداً عالى الهمة مظفراً فى وقائعه صالحاً عابداً ساعياً فى إقامة الشعائر الدينية مراعيا لأحكام الشريعة مطيعاً لأوامر اللهمنقاداً لما يقرب إليه مداوما للجماعة والأوقات الخمس قائما السنن والرواتب ، ومن عادته المرضية أنه كان إذا ذكر صلى الله عليه وسلم نهض قائما وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة ، وقال القرمانى فى تاريخه كان كامل الأوصاف محباً للعدل والإنصاف محباً للعلماء والصلحاء مكرما لهم بأنواع الإكرام شديد المحبة للجهاد ونصر الإسلام .

الغزوة الأولى من غزواته

كانت هذه الغزوة إلى المجر فى أول مدة سلطنته خرج عن الطاعة ميخائيل ملك الأفلاق واجتمع ملك النيمسا وبلاد الأردل وعاثو فى بلاد روم ايلى فبعث السلطان محمد جيشا تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الأعظم فكسره الإفرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا ، وكان شيخا مسناً فلم ينجح بل كسر أيضاً فعزله السلطان وأعاده إلى الصدارة ، ، فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب فخرج بنفسه فى شوال سنة أربع بعد الألف بجيش غفير قاصداً بلاد المجر فوصل بلغراد وحاصر مدينة أكراد ففتحها ، وكان فيها قلعة فى غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره فى ضربها بالمكاحل فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها فى أواخر صفر سنة خمس بعد الألف ، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصارى فطلب الأمداد منهم بالعساكر والذخائر فاجتمع إليه ملك النيمسا وحاكم الأردل وحاكم البغدان وحاكم الأفلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج فجاؤا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء ، وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق إلى القلعة التى بها المعدن فبينما هو فى أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به ، وكان عسكر الإسلام غير مستعدة والنصارى فى غاية الكثرة جداً بحيث أن

Marfat.com

جمعهم المخذول لا يحصى فوقع حرب عظيم فى ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا ، وكان ذلك يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول، وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضاً واستعدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقا فى الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بدداً ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجة سعد الدين ، وكان فى صحبته فحضر بين يديه وجعل بثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى فلم يكن بأسرع من أن قوى المسلمين وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مسعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب ، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأحصيت قتلى المسلمين فكان الذى استشهد من القواد ما يقرب من أربعمائة ومن الصناجق أصحاب الألوية بضعة عشر رجلا ومن الأمراء الكبار أربعة أنفار ومن العساكر كثير ومن الكفار مالا يحصى والحاصل ما وقع له من النصر لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان وذلك إنما هو بمحض لطف إلهى وإمداد ربانى غير مثناه ، ولقد حكى أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان صاحب القرال وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ فى الشجاعة المرتبة التى لا تسامى وأنهم على عادتهم يصورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا فى التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التى رزقها ، وفى خلاصة الأثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة فقال الصديق الأكبر رضى الله عنه أن انهزام المسلمين كان مقدراً لكن لما كان السلطان محمد سعيداً أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة حتى حصل له الظفر والتأييد ودخل السلطان إلى مقر ملكه ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل .

الغزوة الثانية إلى بلاد الأنكروس

فى هذه السنة عين محمد باشا السطورجى سرداراً على بلاد الأنكروس فتقابل مع

Marfat.com

الكفار بجيش جرار ووقع بينهما قتال ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا القرياق إهمال فى مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الكفار .

الغزوة الثالثه جهز مولانا السلطان محمد جيشا مع محمد باشا

فى سنة سبع بعد الألف فتح محمد باشا المذكور قلعة واردار وفى هذه السنة استولى الكفار على قلعة يافق وبعض قلاع وفيها أيضاً كبس ميخائيل اللعين على غفلة قرب نيكبولى ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزما فحاصر اللعين قلعة نيكبولى مدة ، ثم رحل عنها وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجى لإهماله فى أمر المحاربة إليه السلطان وإتعابه العسكر وإسرافه فى المصارف وانتزاع يافق فى زمانه واقتلاع بعض قلاع فأرسل من قتله .

الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشا

فى سنة ثمان بعد الألف ففتحوا قلعة فانيسره ، وكان فتحها على يد الوزير الأعظم إبراهيم باشا ، وكان فتحاً عظيما يعادل فتح إكراى وسر بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام ، وكان فى أيام محاصرتها وقع إضراب عظيم فرأى بعض الصلحاء فى منامه شيخ الإسلام صنع الدين جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء وهو اللهم قوى قلوب المؤمنين بقوة الكرام البررة وألق الرعب فى قلوب الكفرة الفجرة فشاع هذا الدعاء ودوام على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد وفى هذه السنة استولت النصارى على استون بلغراد ثم استرجعت منهم .

الغزوة الخامسة إلى بلاد المجر

فى سنة عشر بعد الألف بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جغال لمحاربة المجر ففتح تلك السنة قلعة قنجة .

Marfat.com

الغزوة السادسة إلى بلاد العجم

فى سنة إحدى عشر بعد الألف جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز واضطرب أمر المسلمين فضمت تبريز إلى وان وجهتا الكافل حلب نصوح باشا وعين السلطان عسكراً جرارة وأردف بهم نصوح باشا ثم توفى السلطان محمد قبل تمام الأمر ، وكان تمامه فى مدة سلطنة ابنه (السلطان أحمد الأول) وكانت وفاة السلطان محمد سنة إثنتى عشرة بعد الألف وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وشهران وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الأول وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان والقمر ليلة الرابع عشر يسمى بدراً فلذلك قال بعضهم أن السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدراً لأنه أضاء به الملك ، فإنه لما تسلطن كان البغاة والخارجون قد كثروا فى كل ناحية من أواخر سلطنة والده فسمى السلطان أحمد فى إخمادهم وجد فى قطع دابرهم حتى أبادهم ، وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء وآل البيت والصحابة متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل سمح الكف جواداً لا تزال إحساناته للفقراء واصلة وعطاياه لأرباب الإستحقاق مترادفة وجاء تاريخ جلوسه فى السلطنة (هو خير السلاطين) ومن خيراته ومآثره أنه فى سنة أربع وعشرين وألف أرسل إلى الحجرة الشريفة النبوية فصين من الألماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق الكوكب الدرى وهذا الكوكب هو الذى تجاه الوجه الشريف فى الجدار وهو فى مسمار الفضة مموه بالذهب فى رخامة حمراء ومن استقبله كان مستقبلا الوجه الشريف وله صدقات كثيرة فى أهل الحرمين .

ذكر غزوة من غزواته

جهز جيشاً فى ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الأعظم على باشا فر إلى بلاد لجر فمات على باشا وهو متوجه فأقام بدله محمد باشا الذى كان سردار اً فى الروم إيلى ثم سعى مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر والهدنة عشرين سنة ودخل إلى دار

Marfat.com

السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف فقبل مولانا السلطان أحمد ذلك

ذكر غزوة أخرى

فى سنة ثلاث عشرة بعد الألف جهز جيشاً وبعثه مع محمد باشا الهوسوى أحد الوزراء العظام لفتح قلعة استرغون فسار إليها ولم يتمكن من فتحها تلك السنة ثم فتحها فى سنة أربع عشرة .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

فى سنة أربع عشرة بعد الألف جهز جيوشاً إلى بلاد العجم ، وكان عليها سنان باشا ابن جفال فوصل إليهم وقتلهم وانتصر فى أول الأمر ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معه فكان ذلك سبباً لانهزام الجيوش فانهزموا وقتل منهم خلق كثير .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة ست عشرة بعد الألف جهز جيشاً عظيما يقوده مراد باشا ، وكان قد كبر وشاخ فجعل الأمر لنصوح باشا وتأخر فى ديار بكر ومرض ومات فتقدم نصوح لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ إلى بعض الجبال ، وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا إلى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكر اسم السلطان فى بلاد العجم ويدعو له فى الخطبة وأن الشاه عباس يدفع مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التى أحدثها فى بلاد السلطنة العثمانية فقبل الشاه عباس ذلك وانعقد الصلح ورجعت العساكر العثمانية إلى بلادها .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة خمس وعشرين بعد الألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يف بالشروط فتجددت الحرب ثانياً بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشا فغلب وانتصر

Marfat.com

واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد ، ثم وقفت الحرب بسبب كثرة الثلج والبرد ومات من العسكر جانب عظيم وأشيع أن الشاه إنما نقض الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالإعانة فأمر مولانا السلطان أحمد بقتل نصوح باشا فقتل سنة خمس وعشرين وألف وفى سنة ست وعشرين توفى السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وأوصى بالسلطنة لأخيه مصطفى بن محمد لأن أولاد السلطان أحمد كانوا صغاراً وأخوه أكبر منهم وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به فكان يرعاه فبويع أخوه (السلطان مصطفى) وخلع بعد ثلاثة أشهر لأنه كان صالحا زاهداً متقشفاً فلم تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غير تقيد بأمر مركوب ولا غيره لأنه تارك للدنيا وليس يراغب فيها بحيث أنه كان فى مدة سلطنته لبسه جوخة خضراء بأكمام عربية وأما أكله فإنه لم يأكل الدسم مطلقاً وإنما كان يأكل الكعك الناشف واللوز والبندق وأنواع الفواكه وأما أمره فى النساء فإن والدته أحضرت له جوارى عديدة فلم يقبل منهن واحدة ، وكان لا يدرى من أحوال الملك إلا ما يلقى إليه ، فلما رأى أركان الدولة أن الأمر به لا ينتظم ذهب المفتى المولى أسعد بن سعد الدين إلى اسكدار للشيخ محمود المعتقد الصالح العالم العامل يستشيره فى خلعه فأشار بخلعه وأن يولى مكانه السلطان عثمان ابن السلطان أحمد ، ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى أغا ضابط الحرم قريب العشاء من ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول فأرسل القائم مقام إلى الصوباش إذا جاءتك فى عد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الأبواب فقال سمعا وطاعة ، وكان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم فى مدة السلطان مصطفى وأما مصطفى أغا فإنه أول ما مضى من ليلة الأربعاء ست ساعات ذهب إلى أبواب السرايا وقفلها جميعاً وكذا أبواب الأمكنة التى فيها أكابر الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذى فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفرش وذهب من حينه إلى السلطان عثمان فى مجلسه الذى هو فيه وهو محل عمه مصطفى الذى كان فيه فى حياة السلطان أحمد وفتح عليه الأبواب فحصل له رعب وخوف من أن يكون

Marfat.com

عمه أرسله إليه ليقتله فقال له لا تخف أنت صرت سلطانا فلم يصدق ذلك فصار يحلف له أن القول صحيح ولا زال يتلطف به إلى أن أدخله إلى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا بابا بابا ويدخل من كان داخل الأبواب للمبايعة حتى لم يبق أحد فى السرايا بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته ، ثم أرسل مصطفى أغا للمفتى وقائم مقام الوزير فحضرا وبايعا ثم ذهبوا إلى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج إليهم وقال لهم ما جاء بكم فى هذا الوقت فكان أول من تكلم شيخ الإسلام أسعد فقال له : إن أمر المملكة اختل وإن الأعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله أنا ما طلبت منكم الملك ولا أردته وليس لى به مصلحة فقالوا جميعا لا نكتفى بقولك هذا ولا بد أن تذهب معنا وتبايع ولدأخيك (السلطان عثمان) فإنا قد أجلسناه على التخت فقال جعله الله مباركا وليس عندى مخالفة وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع لوزراء وأركان الدولة وأشهد على نفسك بالخلع فقال لهم أفعل ذلك فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضى العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها إلى الصوباش وفيها الأمر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودى بذلك وتم الأمر وما انقطع فى ذلك عنزان وكان ذلك يوم الأربعاء ثامن من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خلقا وخلقا وأجلهم سيما وطبعا له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية وكان ينظم الشعر التركى .

ذكر أول غزوة من غزواته

كان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم فى مدة السلطان مصطفى فلما بلغه خلعه رجع يطالب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى ، فلما وصل إلى دار السلطنة وعلم حقيقة الأمر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم فى مدة السلطان عثمان

Marfat.com

سنة ثمان وعشرين وألف ونجح فى هذه التجريدة كل النجاح وارتجع من العجم للمالك التى اختلسوها وأرسل عباس شاه سلطان العجم يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان فأجابوه إلى ذلك .

غزوة ثانية إلى البغدان

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونيا والدولة وحرضهم على العصيان فأرسل السلطان عثمان إليهم إسكندر باشا فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين ألفاً وأسر عشرة آلاف ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذى حملهم على العصيان وأرسله إلى دار السلطنة وألزم أهل بولونيا أن تدفع مائة ألف ريال وألزمهم أيضاً بمصاريف الحرب .

غزوة ثالثة إلى بولونيا

فى سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونيا وهم القزاق وكان الذى خرج معه من الجيش ستمائة ألف مقاتل فأرسل أهل بولونيا يستنجدون بملوك الإفرنج فأمدتهم دولة الروسيا وفرنسا والبابا والمجر والديمسا وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مائتى ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم غنائم كثيرة ، ثم عقد صلحا معهم ورجع إلى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك فى أيامه وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع وأمر فى أيامه بتعطيل حانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها .

ذكر إرادته الخروج للحج المؤدى إلى قتله

فى شهر رجب من سنة إحدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه إلى الشام وأخرج خيامه وسرادقه إلى اسكدار سابع رجب وصمم على هذا الأمر فحصل اللغط من العسكر فى ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت

Marfat.com

العساكر واتفقوا على عدم السفر معه وأخرجوا فتوى أن السلاطين لا يكلفون بالحج ، فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضباً شديداً ولم يلتفت إلى كلام المفتى فأخذ المفتى وأحضا به يهيجون العساكر ثم تجمعوا فى المكان المعروف آت ميدانى واتفقوا على قتل الوزير الأعظم دولار باشا وضابط الحرم السلطانى والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان إلى السفر للحج ، ثم هجموا فى ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه ، ثم فى وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الأعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر ، وفى ثانى يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضاً والعسكر كلهم بالأسلحة وآلة الحرب وذهبوا إلى الموالى وجمعوهم بالجامع الجديد الذى عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضى عسكر وقاضى دار السلطنة وبعض الموالى إلى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولا فامتنع من تسليمهم ، واستمروا فى مراجعته إلى وقت الظهر ومل العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى فى الموضع المحبوس فيه نائماً على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسين أمامه ومملوك يدعى درويش أغا فاستيقظ السلطان مصطفى فلما رآهم ظن أنهم يريدون قتله فمد لهم عنقه بكل خضوع فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له ياسلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجاً قم فانهض بنا ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه إلى فسحة الجنينة وأركبوه على حصان المفتى وساروا به إلى جامعهم ، ولما علم السلطان عثمان ذلك تحير فى أمره فأخذ معه الوزير الأعظم السابق حسين باشا وذهب به إلى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان يذهب ونأخذ خاطر العسكر ونجعل لكل إنسان منهم خمسين شريفيا وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب إلى العسكر وكلمهم فى ذلك فما كان جوابهم إلا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم إلى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدى السلطان مصطفى فأرسله إلى يدى قاتله وأحضروا دولار باشا ضابط الحرم وقطعوا رأسيهما وعلقوا رؤس الجميع على جامع

Marfat.com

السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة (للسلطان مصطفى) فجعل زوج أخته داود باشا وزيراً أعظم وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا إلى يدى قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وذلك فى اليوم الثامن من رجب وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة وقيل فى تاريخ قتله .

مات سلطان البرايا فهو فى الأخرى سعيد
قال لى الهاتف أرخ أن عثمان شهيد

٥١ ٦٦١ ٣١٩

١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة وألف ووفاته سنة إحدى وثلاثين ومدة خلافته أربع سنوات وشهر وعمره سبعة عشر سنة ، وبعد تمام البيعة للسلطان مصطفى بيومين جمهرت العساكر الصباحية أمام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ونشأ من ذلك فتنة أخرى آل الأمر فيها إلى قتل داود باشا فقتل بعد عشرين يوماً وصار البحث عن الأشخاص الذين تداخلوا فى قتل السلطان عثمان فقتلوهم واضطربت أمور السلطنة والوزارة ، وأقام أهل الأناضول وأمراؤها ونوابها على ساق للطلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام فى ولايتهم وامتنعوا من الدخول فى بيعة السلطان مصطفى ولم يزل الأمر يزداد شدة إلى أن خلعوا السلطان مصطفى رابع ذى القعدة سنة ألف واثنين وثلاثين فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر وماعاش بعد ذلك كثيراً وكانت ولادته سنة ألف رحمه الله ولما خلعوه وأقاموا فى السلطنة (السلطان مراد الرابع) أخا السلطان عثمان بن أحمد . قال فى خلاصة الأثر وكان عمره إحدى عشر سنة وسبعة أشهر وجاء تاريخ ولايته (مراد خان العادل) ١٠٣٢ ومع صغر سنه كان ذا عقل ثاقب ورأى سديد ، وكانت تظهر عليه أمارات شجاعة وقوة القلب فكان من أعظم

Marfat.com

أبطال ذلك الزمان وكان إسكندر الثانى فى تلك الأيام بل كان من أعلى السلاطين مقداراً وأوسطهم همة واقتداراً خضعت لعظمته رؤساء الأكاسرة وذلت لحرمته وقهره تصلب فى قمع المفسدين سديد الرأى فى أمره لأنه ابتدأ أولا باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه ، فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس إلى درقة مطبقة إحدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها فأرسلها إلى مصر وبرز أمره إلى العساكر بإخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد فى علوفته فحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك .

ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان وأعاده السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التى افتتحها العثمانيون وملكوها فمن ذلك مدينة بغداد وكانت بغداد فى كفالة الوزير يوسف باشا فوقع بينه وبين واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباش فحاصر بكر الوزير فى قلعة بواسطة العسكر ، فأصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد فبعث إليه رئيس الدولة جانبا من العسكر لتأديب هذا العاصى وجعلوا أمر هذا العسكر تحت رئاسة حافظ باشا ، فلما بلغه ذلك كتب إلى شاه العجم أن يحضر لكى يسلم له بغداد فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثمائة وأنعم على بكر الصوباش بعمامة قزل باش وقبل وصول العجم إلى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد فأرسل بكر الصوباش لحافظ باشا يطلب أن يلقبه بكلس بك لكى يطرد الأعجام فلم يقبل منه حافظ باشا ذلك، وفى أثناء ذلك وصل رسول العجم إلى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا أن بكر الصوباش صار يخص شاه العجم فإذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاما غليظا واشتبك القتال ، فلما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه

Marfat.com

فتح بغداد لأنها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب إلى بكر الصوباش أنه والى بغداد يريد بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ففرح بذلك بكر الصوباش ورأى أنه بلغ غاية مرامه فقتل جماعة شاه العجم وعلق رؤوسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التى بعثها إليه الشاه عباس ووطئها برجليه وأرسل رسولا إلى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك ، وأما الشاه عباس فإنه لما بلغه مافعله بكر من الانتقاض والخيانة حضر بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة فامتنع وأجابه بأنه لا يسلمها ولا يقدر الشاه عباس على فتحها ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد، فأمر بكر الصوباش بإطلاق المدافع من الأبراج على الأعجام واشتبك القتال بين الفريقين وأرسل بكر إلى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش الأعجام ويستنجده فأنجد بفرقة العساكر تحت رياسة كور حسين باشا فلما وصل إلى قرب بغداد نزل بعساكره فى موضع يقال له كروان سراى ، فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع حديعة وأرسل يطلب حسين كورباشا ليتحادث معه فى أمر الصلح فذهب ومعه بعض كبار العسكر فبينما هم فى أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من الأعجام كانوا كامنين لهم فى الطريق فقتلوهم وقدموا رؤوسهم لشاه عباس عوضا عما فعله بكر بقتله الأعجام الذين علق رؤوسهم على شرافات السور ، ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الأهالى تشكوا من الجوع ، واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم وخرج كثير منهم إلى معسكر الأعجام وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه فى الخيانة وكان هو المتسلم بمحافظة قلعة بغداد فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغتر وقبل وعد الشاه وفى الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلا للأعجام فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وألف وكان بكر نائما فانتبه مذعورا من ذلك الضجيج وصراخ الأعجام وكانوا أصعدوا ناسا منهم إلى المنار يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وتملك بغداد فلتطمئن الأهالى وتفتح الأسواق وترجع إلى أشغالها ، وذهب منهم جماعة إلى بكر فى منزله

Marfat.com

فقبضوا عليه وأتوا به إلى الشاه فلما وصل أمامه رأى ولده جالساً إلى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة الأولى التى حصلت منه فى حق الشاه ، ثم أمر الشاه أن تسلب جميع أموال بكر وتعطى لولده ، ثم أنهم أخذوه ووضعوه فى قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته وفى اليوم السابع طرحوا ذلك القفص الذى فيه بكر فى موقد نار لكى يقرروه عن المكان الذى اختفى فيه الأموال ، ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه فى قارب مشحون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب فى الدجلة أمام الناس وحصل فى بغداد قتال بين أهل السنة والأعجام بسبب هذه الفتنة ، ولما كان بينهم سابقاً من العداوة حتى جرى الدم فى أزقة المدينة وأخذ الأعجام خطيبين مشهورين من أهل السنة أحدهما يدعى نورى أفندى والآخر عمر أفندى وأمروهما أن يسبا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فامتنعا فعلقوهما فى نخلة وأطلقوا عليهما الرصاص فماتا من ذلك ، وأما الشاه عباس الذى كان قد وعد محمد بن بكر بالولاية فى مكان أبيه فإنه أخذه وأرسله إلى خراسان وأمر بقتله هناك فقتل وبعد ذلك أقام الشاه عباس فى بغداد مدة ، ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على الموصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع إلى بغداد وذهب حافظ باشا إلى القسطنطينية ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفا وسار لمحاصرة بغداد وتخليصها من العجم وانتشب فيهم القتال وطال الحصار فسئموا العساكر وقاموا على حافظ باشا فعزلوه وحبسوه فى قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه وأرجعوا حافظ باشا ، ثم قاموا عليه أيضا ليقتلوه فهرب منهم واختفى فى موضع يقال له قلعة الأمام ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعا عن حصار بغداد فسير الشاه عباس خلفه جانبا من عساكره ليضربوه فى الطريق فقاتلهم حافظ باشا وهزمهم هزيمة هائلة وقليل منهم رجع إلى بغداد ثم قام على مراد باشا فقتله لأنه السبب فى اختلال الأمور ثم سار حافظ باشا بعسكره إلى الموصل فأقام مدة ثم جاءت الأوامر من الدولة أن يتقدم إلى حلب إلى أن تأتيه نجدة من العساكر ، وبعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا ، ثم مات وولى بدله خسرو باشا وكان الجيش الذى مع خسرو باشا ١٥٠ ألف مقاتل فجاء وحاصر بغداد وحصل قتال شديد ولم تحصل

Marfat.com

نتيجة فرجع إلى الموصل وصنع وليمة لكثير من العساكر ، فلما حضروا قتلهم زاعما أنهم السبب فى اختلال الأمور وأرسل يطلب أربعين ألفا وجرت أمور يطول الكلام بذكرها، ومات الشاه عباس سنة ست وثلاثين وألف وبقيت بغداد بيد العجم إلى سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها مولانا السلطان مراد بنفسه .

ذكر فتح بغداد

فى سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغداد ومعه مائة ألف مقاتل ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمائة ألف ، ولما خرج من دار السلطنة كان لابساً لبس العرب القدماء وعلى رأسه خوذة من البولاد اللامع محاطة بشال أحمر مسدولة أطرافها على أكتافه ، ولما وصلوا إلى بغداد أحاط العساكر بأطرافها ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثيرة لينجد بهم عساكره الذين فى بغداد والتقى بعساكر الدولة على شاطىء الدجلة فقاتلوه قتالا شديداً وهزموه هزيمة قبيحة وكان يوما مهولا مشئوما على الأعجام ثم شددوا الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الأبراج وكانت مائتى برج فخرقتها وهدمت كثيراً منها ، وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانبا عظيما من جدار السور ، فلما رأى اهل بغداد ملواهم بعثوا إلى الشاه أنهم يريدون التسليم فبعث الشاه إلى السلطان فى طلب الصلح فلم يقبل ، ثم شدد السلطان الحصار ووالى القتال إلى أن يسر الله فتحها يوم الجمعة ثامن شعبان وكان مدة حصارها أربعين يوما ، ودخلها العسكر ومولانا السلطان مراد فى أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفا وأسروا كثيراً من رؤسائهم وقيل أن الذين قتلوا من العجم فى هذا القتال خمسون ألفا وبقى منهم ثلاثون ألفا طرح البعض منهم نفسه فى نهر بغداد والبعض تشتتوا فى القفار وأمر السلطان بقتل كل من يخفى عنده رجلا عجميا فجمعوا منهم بعد ذلك ألف رجل وأتوا بهم إلى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكان الذى فقد من عسكر السلطان عشرة آلاف ، ثم أمر مولانا السلطان بتجديد

Marfat.com

عمارة مشهد الإمام الأعظم أبى حنيفة ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنهما وأزال ما كان أحدثه الأعاجم فى المشهدين وأمر ببناء ما تهدم من السور والقلعة وشحنها بالعساكر وترك فى بغداد عشرة آلاف من العسكر وعين لكفالة بغداد وولايتها وزيراً ورجع إلى دار سلطنته ومقر ملكه سالماً غانماً منصوراً وكان لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم مقيدين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر كما فعل اسكندر لما فتح مدينة بابل وبالجملة فقد كان هذا السلطان من أعظم ملوك آل عثمان ، ومما كان فى مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوى فى جميع ممالكه ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره إلى أهل الحرمين الشريفين وأمره المتولى الجهات خصوصاً مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم فما من أمر يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك ومن ذلك أيضاً إلتفاته إلى أخبار الرعية مطلقاً والبحث عن أحوال ولاة البلدان إلتفاتاً تاماً بحيث أن ولاة الجهات لايجاوزون حداً ومن سعادته العظمى عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها ، وذلك أن فى سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة فاتفق العلماء المهندسون أنه لابد من تجديد الجميع فعرضوا الأمر إلى مسامع مولانا السلطان مراد المذكور فبرز أمره العالى بالتعمير فهدموا الباقى وعمروا الجميع فهذا البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد وتم التعمير فى شعبان سنة أربعين وكان أمير مكة فى ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن إدريس بن حسن أبى نمى وتوفى أثناء التعمير وولى أمارة مكة مولانا الشريف عبد الله بن حسن بن أبى نمر وهو جد مولانا الشريف محمد بن عون فكان تمام التعمير فى مدته وجاء تاريخ ذلك ، رفع الله قواعد البيت ، ولبعضهم :

١٠٤

مراد بنى بيت الإله وزاده سناء بهاء يزدهى زيد مجده

٨٠٩ ٢٣٠ ١٠٣٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله ، ثم فى سنة خمس

Marfat.com

وأربعين برز الأمر السلطانى بتجديد الباب فجدد ووضع عليه حلية الباب الأول ووازنت قبل وضعها فجاءت مائة وأربعين رطلا خارجا عن الزرافين فوزنها وما شابههما مما كان على الباب ثمانية عشرة رطلا ، وكتب على الباب الجديد اسم مولانا السلطان مراد وذلك موجود إلى الآن ، وأرسل الباب القديم إلى دار السلطنة وجعل فى الخزائن السلطانية وكانت ولادة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٢١ وتوفى تاسع شوال سنة ١٠٤٩ وعمره ٢٩ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وإحدى عشر شهراً وخمسة أيام رحمه الله تعالى

ذكر ولاية مولانا السلطان ابراهيم بن أحمد مع ذكر أول غزواته

لم يختلف المرحوم السلطان مراد ولدا وبقى من أخواته السلطان ابراهيم فبويع بعد وفاة أخيه قال فى خلاصة الأثر كان ملكا معظما حسن النظر سمح الكف وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وبعد مضى سنتين من ولايته جهز جيشا لمحاربة القزاق فلم ينجحوا ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوفة فلما تضايق أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا فدخلها العساكر السلطانية وعمرتها وأقامت فيها جانباً من العساكر للمحافظة .

غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان إبراهيم جيشا فى مراكب بحرية نحو أربعمائة مركب لمحاربة جزيرة كريد بمائة ألف مقاتل وسبب ذلك أن مراكب مالطة كانت قد تعدت على بعض مراكب الدولة ثم ذهبت فاحتمت عند مشيخة البندقية فى كريد فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على مدينة قندية وهى من أعظم مدن هذه الجزيرة وفى أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنائسها جوامع ورجعوا إلى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها جانباً من العسكر فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدى العساكر السلطانية واستأسروا جانباً منهم ، فغضب السلطان من هذا الأمر وجهز عليهم تجهيزاً آخر فأخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة رتمو وكانت

Marfat.com

قلعة حصينة إلى أن ملكوها واستعانوا باللغم حتى أهلك خلقاً كثيراً ثم ملكوا بقية جزيرة كريد إلا قلعة قندية وطال أمره مدة طويلة فتركوها وسيأتى ذكر فتحها فى مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم وجزيرة كريد من أعظم الجزائر وأكبرها تشتمل على بلاد واسعة ورسانيق كثيرة وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعاً وعشرين ألف قرية وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوما هى ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وافرة ، ثم أن رجال الدولة خلعوا السلطان إبراهيم سنة ثمان وخمسين وألف بسبب أنه كان منهمكا فى اللذات والشهوات مسرفاً فى إنفاق الأموال وسلاطين آل عثمان إنما عظم شأنهم بزهدهم وعدلهم ، وقد حكى أن بعض سلاطينهم تواعد مع شيخ الإسلام الذى كان فى وقته أن يجتمعا فى جامع من جوامع دار السلطنة فى وقت مخصوص بالخفية للتشاور فى بعض القضايا فحضر السلطان فى الوقت الذى تواعد فيه وأبطأ شيخ الإسلام فى الحضو وما جاء إلا بعد مضى مدة ، فلما حضر سأله عن سبب تأخيره فقال لما أردت الخروج رأيت عمامتى وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلى أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت فهذا يدل على أنه ليس عند شيخ الإسلام غيرها فقال له السلطان لو كان عندى غير هذه التى على رأسى لأعطيتك إياها فانظر إلى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الإسلام فالأصل كله الزهد فى الدنيا والعدل فى بيت المال فالخلفاء الراشدون إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالزهد فى الدنيا والعدل فى بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام فالسلطان إبراهيم لما رأوه مسرفاً فى الانفاق رأوه مخالفاً لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا فى السلطنة محمداً فكانت مدة سلطنة السلطان إبراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر وفى ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ماجهز جيشاً إلى ناحية إلا انتصر ولا قصد فتح ناحية إلا افتتحها لولا ما نقموا عليه من الإسراف فى بيت المال وجميع السلاطين الذين جاؤا من بعده كلهم من ذريته .

(فائدة) فى خلاصة الأثر أنه اتفق للسلطان إبراهيم المذكور مالم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر أنه استقرى

Marfat.com

من ولى السلطنة ، وكان اسمه إبراهيم فوجدوا لم يتم لأحدهم أمرها وقال الراغب فى محاضرته قال أبو على النظام كان المهدى يحب ابنه إبراهيم فقالت له أم إبراهيم ألا تراه بلى الخلافة فقال لا ولا يليها من اسمه إبراهيم أن إبراهيم الخليل أول نبى عذب بالنار وأن إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش وبويع إبراهيم بن المهدى ، فلم يتم له الأمر وأحكم إبراهيم الإمام أمر الملك ليكون أول خلفاء بنى العباس فقتل ، قتله مروان بن محمد بن مروان وطلب الخلافة إبراهيم عبد الله بن الحسن المثنى فقتل وبايع المتوكل لابنه إبراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل فسبحان ممن دبر الأمور على طبق علمه وأجراها بحكمته وفى مروج الذهب للمسعودى قال إبراهيم بن المهدى كنت أنا والرشيد على ظهر حراقه وهو يريد نحو الموصل والمداوون يمدون الشطرنج بين أيدينا فلما فرغنا قال الرشيد يا إبراهيم ما أحسن الأسماء ؟ قلت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما الثانى بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال فما أسمجها قلت إبراهيم فزبرنى ، وقال ويلك يا إبراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت بشؤم هذا الاسم لقى مالقى من النمرود وألقى فى النار قال وإبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لاجرم لما سمى بهذا الاسم لم يعش قال فإبراهيم الإمام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم ابن الوليد خلع وإبراهيم بن عبد الله الحسن قتل ولم أجد أحداً سمى بهذ الاسم إلا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطروداً فما انقضى كلامى حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا إبراهيم باعاض كذا وكذا من أمه أى بظرها قال فالتفت إلى الرشيد فضحك حتى فحص برجله اه .

ولاية السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم

كانت ولايته سنة ١٠٥٨ بعد خلع أبيه ، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين ، وكانت أمور الدولة فى ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الأركان قد كثر حسادها وأعداؤها وكانت من جهة المالية فى ضيق وعسر والعساكر غير منقادة لأولياء أمورها وأصبح وكلاء الدولة فى الولايات غير مبالين فى تنفيذ أوامرها فمن هذه الأحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والأكابر ، فكان الوزير يتولى أياماً ثم يعزل أو

Marfat.com

يتنى واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة فى تعسكير والسلطان مع صغر سنه لايزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه اللياقة لأن يتبوأ مسند الصدارة إلى أن عثروا على محمد باشا كوبرلى ، وكان مسنا حاذقاً ذا رأى وخبرة وسياسية كاملة لأن طول الأيام علمه مالم يعلمه غيره فولى الصدارة سنة سبع وستين وألف وشرع فى سد الخلل الذى أوقع الدولة فى الانحطاط وبيرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام .

ذكر غزوة فى أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كوبرلى جهز جيوشاً لقتال القزق والمجر وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم ، وفى سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب للبندقية وأخذ جزيرة بتقداس وجزيرة ليمنوس .

ذكر غزوة أخرى يتبعها أخرى

وجهز جيشاً لقتال الصرب فانتصر عليهم وقتل منهم مائة وخمسين ألفاً وخرج جماعة من الأروام فى بلاد الأفلاق وأظهروا العصيان فأرسل إليهم عسكراً فقاتلوهم وانتصروا عليهم وجهز جيشاً لقتال البندقية فاخترمته الوفاة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل إتمام الأمر فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل ، وكان أكثر من أبيه فى الحذق وحسن السياسة ، وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها ، وكان صائب الرأى كامل الفراسة (فراسة عجيبة) مما ينسب إليه من الفطنة أنه جاءه يوما شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوماً شخص آخر برقعة ، فلما رآها طلب ذلك التوقيع فجىء به فقابله على الرقعة فإذا الخط واحد ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به فلما مثل بين يديه أراه التوقيع ، وقال أليس هذا بخطك فأقر فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه .

غزوة إيوار

من الغزوات التى وقعت فى أيام وزارته غزوة إيوار عينه السلطان محمد لفتحها فسار

Marfat.com

بجميع العساكر وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها .

ذكر غزوة عظمى إلى كريد

وفى سنة سبع وسبعين توجه بجيش إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التى كانت بقيت فى هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما تقدم شرح ذلك فلما وصلها بنى بالقرب منها مكانا كان متهدما لتهيئة مهمات الحصار ، ثم نزلها بمن معه من العساكر ، وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل الصور القديم وطال الحرب بين الفريقين مدة وأرسل أهل قندية إلى فرنسا يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل وجاءهم أيضاً نجدة من مالطة ، ومن البابا فاجتمعت مع عساكر فرنسا ونزلوا إلى البحر وهجموا على العساكر العثمانية ، واقتتلوا قتالا شديداً كان النصر فيه لعساكر الإسلام فقتلوا أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل ، فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ثم أن أهل قندية أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك وأخرجهم منها ووضع فيها العساكر الإسلامية ورجع الوزير إلى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطية وغيرهم غنيمة ، وكثير من الأسرى وفى غرة جمادى الأولى سنة ثمانين وألف وردت البشائر إلى الأطراف بالزينة ، وكثرت تباشير الناس بفتحها ، وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ومن نوادرها التاريخ اللفظى المعنوى للفاضل الشيخ أحمد الصفدى وهو قوله (فى عام ألف وثمانين عام)

غزوة إلى بلاد القرم يتبعها أخرى إلى بولونيا

وفى سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين باللية من النصارى فافتتح قلعة قنجة وفى سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر إلى بولونيا وفتح مدينة كينا كره الشهيرة فى متانة قلعتها وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ثم عقد صلحاً مع أهل

Marfat.com

بولونيا ووضع عليهم خراجا سنويا ، ولما رجعت العساكر الإسلامية بلغهم أن أهل بولونيا بدسائس النمسا والبابا تحركوا وأظهروا العصيان وانضم إليهم عصاة من الأفلاق والبغدان والقزق واتسع الأمر وتوفى الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف وحزن السلطان وجميع الناس عليه وولى الصدارة مصطفى باشا ، وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقى فى الخدم والمناصب وتعلم كثيراً من سياستهما وإن لم يكن مثلهما .

ذكر غزوة عظمى إلى جهرين

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التى بالقرب منها وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى إنهم يبالغون فيما يدخل منها حد المبالغة وسبب ذلك أن بلاد النصارى المعروفين بالمسكوف والقزق محتاجون إليها وليس فى بلادهم مملحة غيرها ولما فتحت هذه القلعة سر الناس سروراً عظيما لأن فتحها كان فى غاية الصعوبة ، وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤن بالوزير المذكور فى قصدها ، وأشاعوا أخباراً فى انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك ما يعرفونه من بينها تابعة لملك المسكوف أكثر ملوك النصارى جيوشاً وأكبرهم ملكا وبالجملة فإن فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات وبعد فتحها زينت دار الخلافة ثلاثة أيام ، وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلسترة بروم إيلى فكتب إلى قائمقام القسطنطينية أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى ثم قدم السلطان فشرعوا فى الزينة وبذلوا جهدهم فى التأنق فيها واتفق أهل ذلك العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة فى دور من الأدوار ، ثم وقع بعدها حريق فى القسطنطينية حرق فيه نحو اثنى عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق فى كثير من المحلات حتى حسب ماوقع منه فكان تسعين حريقاً كل ذلك فى سنة واحدة فكان ذلك الفرح سبباً لهذا الترح فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

Marfat.com

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ثم طلب الوزير مصطفى باشا من السلطان محمد الإذن بالسفر إلى بلاد لانكروس وافتتاح مدينة فينا قصبة بلاد النيمسا فأذن له السلطان ، وشرع فى تهيئة الأسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر وجمع من الجيوش مالا يدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر ، ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمما على أخذ النصارى بالقوة الجسيمة ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين إلى أن وصلوا قلعة يالق يوم الخميس ثانى عشر رجب سنة ١٠٩٤ ، ثم توجه يوم السبت قاصداً قلعة بج وأطلق أمره فى نهب القلاع والقرى التى على الطريق فما كان للعسكر مشغلة إلا نهبها وإحراقها وإتلاف زرعها فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مائة قلعة ومايتبعها من القرى أشياء كثيرة جداً وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوى على ألف بيت أو أكثر وجميع هذه القلاع والقرى فى نهاية الإحكام وحسن البناء والبيوت فى غاية من اتقان الصنعة مسورات بالرخام وفيها من السماق مالا يوصف وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاث طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب ، وعاثت العسكر فى بلاد الكفار إلى قريب قزل ألما التى هى محل الأنكروس المعروف بالبابا ونهبوا ماقدروا عليه وحرقوه ومن أغرب ماوقع فى هذا الأثناء أن سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناساً قلائل من النساء والرجال العاجزين عن الحركة فيقتلونهم ويستولون على القلعة ثم يطلعون فيها النار ففعلوا هذا فى أكثر من أربعين قلعة وغنم المسلمون غنائم لاتحصر وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش وهرب عسكر النصارى من بج ونواحيها وأخذوا معهم كثيراً من الأموال فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلا ، ولما وصل الوزير المذكور إلى بج وهى مدينة فينا وكانت النيمسا قد حصنتها تحصيناً عظيما ، وضرب مخيمه بها وهى قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والأبنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكانا باسم الملك تحتوى هذه الأمكنة على عجائب الزخارف

Marfat.com

والفواكه والفساق ومن السماق والرخام وقد تقدم أن عسكر بج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق إلا عشرين ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية فى داخل القلعة فأمر الوزير بمجاهدة القلعة فنصب عليها المكاحل . وشرع فى رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس، فضاق بمن فيها الخناق فى أقل من قليل والتجأوا إلى أن يسلموها طوعا فأبى الوزير خوفاً من أن ينهب العسكر ما فيها من المال فراجعه الوزراء والعسكر فى المبادرة إلى دخولها صلحا خوفاً من يأتى أمر فقال إن ضمنتم لى العسكر فى أن لا يأخذوا شيئاً فعلت فأبوا فتمادى الأمر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء فى أعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة ومالهم علم بما سيحدث وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم ويستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين وكان ملك النيمسا لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فر من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونيا فى الاتحاد وقتال من بعاديهما فاتفقت النيمسا وألمانيا وكثير من الفرنج على قتال المسلمين وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه وكانت مدة الحصار ٤٥ يوماً فبينما الوزراء يدبرون فى الفتح عنوة إذا بطلائع الكفار أقبلت وفى أثرها عسكر سد الفضاء وشبت نيران القتال لا يبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر وهجموا دفعة واحدة والعسكر فى غفلة عما يراد بهم واختلطوا بهم طامعين فى قتلهم وسلبهم وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ولم يكن أسرع مما انقلب العيان وجمدت فى الوجوه العينان وكان المقدم من المسلمين من عمد إلى الفرار ولم يقر له فى تلك الحركة القرار فقتل من قتل ونجا من نجا واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتمسر إليه الوصول ومكر الوزير بمن معه هاربا وتفرق العسكر فى تلك البرارى الوهاد ونفد ما كان معهم من الزاد ونفذ أمر العلى الكبير وهو على جميعهم إذا يشاء قدير ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الأفلاق والبغدان والأردل العصيان وزحف الكفار على بلاد الإسلام ، قال بعض المؤرخين فى وصف

Marfat.com

اليوم الذى هجم فيه النصارى على المسلمين وهجموا دفعة واحدة على صفوف العسكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دائر من الصباح إلى المساء حتى تخضبت الأرض بالدماء وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء وصمت الأذان من صوت المدافع والقنابر ، وكان يوما مهولا لم يسمع بمثله فى زمان غابر وبقى الوزير مصطفى باشا فى بلغراد فى قلق واضطراب مترقبا لما يظهر فى حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب فبرز الأمر السلطان بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سوء تدبيره فقتل فى المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين وعين للصدارة بعده إبراهيم باشا وبعد تلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوروبا على طرد المسلمين من قرة بلادهم ، فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمموا على إخراج المسلمين من أوروبا فتكفلت النيمسا وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا والبندقية وغيرهم من ساكنى شطوط البحر الأبيض فى دلمانيا بكثير من البلاد وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج من جملة أماكن والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة فلم ينجح تدبير إبراهيم باشا الصدر فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين وألف وسار بالعساكر إلى بلاد المجر ، وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلى لكنه كان قاصراً فى التدبير فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب إلى القسطنطينية فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف وأقيم فى الصدارة سيواس باشا ، وكان السلطان مشغولا بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثرة الجوع والغلاء والحرائق فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا السلطان محمداً سنة تسع وتسعين وتوفى سنة أربع ومائة ألف ، وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر .

﴿ لطيفة ﴾ فى مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهودى يدعى أنه المسيح ومسلم يدعى أنه المهدى فى عام واحد وهو عام ١٠٧٢ أما اليهودى فظهر فى أزمير زاعما أنه المسيح وكان اليهود ينتظرون النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء عليهم

Marfat.com

السلام فلما بعث عيسى عليه السلام كذبوه ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه أيضا ولم يزالوا ينتظرون النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام فإذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون أنه هو النبي المبعوث فى آخر الزمان الذى وعدهم به موسى عليه السلام ، فلما ظهر هذا اليهودى بأزمير ادعى أنه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه وأظهر لليهود أنه هو النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام وكان فصيح اللسان جميل المنظر وزعم أنه يوحى إليه وأنه إنما يتكلم بالوحى فصار يعظ الناس ويجتمعون عليه ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم فى الممالك العثمانية فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجا ليتبركوا به ويبالغون فيما يحكونه عنه من إظهار عجائب وخوارق عادات كان يوهم عليهم بها ويصنعها بالحيل كالحواة فيزعمون أنها بمعجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك كله فى مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم فاتح مصر فأراد الوزير المتولى دمشق أن يقبض على ذلك اليهودى المدعى لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه وكان اليهود الذين بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتى إليهم فتوجه إليهم واستعدوا للاقائه ليأخذوا بيده ويتبعوه ، فأرسل الصدر الأعظم وقبض على ذلك اليهودى وهو فى المركب الذى جاء فيه ووضعه فى السجن فكان اليهود يطلبون الإذن من الصدر الأعظم ليأذن لهم فى زيارته فى السجن وتقبيل أقدامه فكانوا يأتون لذلك من جميع الجهات فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالا جزيلا يأخذه منهم وجمع من ذلك مالا كثيراً فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم ثم إن السلطان محمداً أحضر ذلك اليهودى بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التركى كلاما ضعيفاً غير فصيح فقال له السلطان محمد أن مسيحاً مثلك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ثم قال له السلطان هل تصنع شيئاً من العجائب فقال نعم فى بعض الاوقات فقال له السلطان محمد إنى أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة وأمر أن يجرد من ثيابه ويوقف فى فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فإن نجا ولم يهلك علم صدقه فيما يدعيه فلما سمع هذا الكلام خر راكعاً على الأرض وقال إن قوتى لا تقدر على هذه العجيبة فأمر

Marfat.com

السلطان بقتله فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول فى الإسلام فقبل السلطان محمد منه ذلك فأسلم وحسن إسلامه وصار يعظ اليهود فأسلم خلق كثير وأما الرجل المسلم الذى ادعى أنه للهدى فإنه رجل من الأكراد وظهر أيضاً فى هذا العام فى ناحية الموصل وتبعه خلق كثير فقبض عليه وأتى به إلى السلطان محمد أيضاً فأحضره وعرض عليه مثل ماعرض على اليهودى فأبت نفسه الشقيقة أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسه بل رضى أن العساكر ترمى عليه الرصاص فرموا عليه فمات من ذلك وبعده خلع السلطان محمد وأقيم فى السلطنة أخوه السلطان سليمان الثانى ابن ابراهيم .

ولاية السلطان سليمان الثانى

فولى السلطنة وأمور الدولة فى غاية الارتباك وزيادة على ذلك هاج العساكر الانقشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيراً من الوزراء ليقتلوهم وقتلوا الصدر الأعظم سيواس باشا وأقيم بعده اسماعيل باشا واستولت النيمسا على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية وبعد ثلاثة أشهر عزل اسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلى مصطفى باشا سنة ألف ومائة وواحدة وفى تلك السنة توجهت العساكر العثمانية إلى ناحية أدرنة وفى ذلك كانت عساكر النيمسا محاصرة بلغراد ثم ملكوها فى تلك السنة بعد حصار طويل .

ذكر غزوة السلطان سليمان الثانى

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكى يخرج بنفسه وكانت الخزينة خالية من المال فعرضوا على أهل القسطنطينية أن كل عائلة تجهز خيالين وفى أثناء ذلك توجه من طرف الدولة إلى فينا بلاد النيمسا ذو الفقار أفندى لأجل المخاطبة فى عقد الصلح فعرض عليه امبراطور النيمسا أنه عند دخوله يسجد أولا عند باب القلعة وثانياً فى وسطها وثالثا أمام كرسيه ثم يقبل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجداً كذلك فأبى وأقام عشرة أشهر فى هذه المنازعة ، ولما رأى السلطان أنه قد طال أمر هذه

Marfat.com

المخاطبة أمر بالذهاب إلى الحرب فتقدمت العساكر إلى بلاد المجر وحاربتهم وأخرجت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد وكان الجرنال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة فى نواحى بلاد اليونان وكسرهم وكان عددهم خمسين ألفا وأما عساكر النيمسا الذين كانوا فى نواحى الطونة فقتلهم العساكر العثمانية وشتت شملهم فتركوا البلاد والقلاع وفر من بقى منهم .

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النيمسا إلى القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له فى بلاد النيمسا لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغاضى عن ذلك فعزم على حرب النيمسا فأمر بتجهيز العساكر وأخذ فى استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النيمسا حتى احتموا بالدولة وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التى كانت عنده وعند السلطان وأرسلها إلى دار الضرب فسبكها معاملة ثم توجه لمحاربة النيمسا ومعه نحو مائة ألف ففتح بيساو ودين سمندريا وبلغراد ثم رجع إلى القسطنطينية مظفراً منصوراً .

ذكر غزوة أخرى

وفى سنة ألف ومائة واثنتين بلغ الدولة تقدم النيمسا فزحف عليهم مصطفى باشا بالعساكر المنصورة ، وتوفى السلطان سليمان فى رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء وعمره خمسون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان أحمد الثانى ابن ابراهيم

وأول غزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعد أخوه السلطان أحمد بن إبراهيم وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائراً بالعساكر لمحاربة النيمسا وكانت عساكر الدولة تقدمت إلى قرب بزرزدين واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر

Marfat.com

الأكراد فلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم فى وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده وإذا برصاصة أصابته فى رأسه فوقع قتيلا رحمة الله عليه وبموته تغلبت عساكر النيمسا على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة وقتل خلق كثير من المسلمين قيل أن عدد القتلى كان ٢٨ ألفا وفى ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الإفرنج نصراً شديداً ، وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجى على باشا ثم عزل سنة أربع وأقيم بيقلو مصطفى باشا وحدث فى هذه السنة حريقة فى القسطنطينية أحرقت ربع المدينة .

ذكر غزوة فى خلافة السلطان أحمد الثانى

فى ذى القعدة من هذه السنة توجه الوزير إلى بلغراد لمحاربة النيمسا وكانت محاصرة بلغراد فلما بلغ النيمسا قدوم الوزير رفع الحصار وهربت من أمامه فأمر الوزير بترميم الأماكن التى أخربتها عساكر النيمسا ورجع بعد ذلك إلى أدرنة وبقى جيش الدولة محافظة هناك ، وكانت دولة انجلترا تداخلت مع دولة هولاندا فى إتمام الصلح مع الباب العالى والنيمسا ولم يتم . وفى سنة خمس ومائة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجر وبسبب الأمطار الكثيرة رجعوا إلى البلغراد . وفى سنة ست توفى السلطان أحمد وعمره أربع وأربعون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر .

ذكر ولاية السلطان مصطفى الثانى وغزوة يتلوها غزوات

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل أصدر فرمانا شريفاً يقول فيه لا يجوز لعبيد الله أن يتمتعوا بالراحة وهو هم على تخت السلطنة فمن الآن وصاعداً أحتم أن التلذذ والكسل يهجر من دولتى العلية لأن الأعداء قد أحاطوا بمملكة الإسلام واستأسروهم وسوف آخذ ثأرهم إن شاء الله تعالى وأسير أمام جيوشى لأن جدى سليمان العظيم الذى تتصاعد رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزرائه فقط للجهاد بل كان يخرج بنفسه

Marfat.com

للمبارزة فى الجهاد المقدس حتى أن فخره ومجده قد انتشر فى جميع الأقطار المسكونة وأنا سوف أصنع نظيره فأطيعوا أمير المؤمنين والسلام ، وكان السلطان مصطفى المذكور محباً للعلوم والمعارف متديناً عادلا وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق ، ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لاينبغى أن يخاطر بنفسه فلم يلتفت إلى كلامهم .

ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى

ثم عزم على الخروج بالعساكر فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتتتهم فى جهات البحر الأبيض وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النيمسا وملكوا جملة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيترانى ، وكانت عساكره أكثر من عساكر الدولة بخمس مرات وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون وعند دخول الشتاء رجع السلطان بجانب من العساكر إلى أدرنة وترك الباقى يحارب النيمسا ، ثم دخل بالعساكر القسطنطينية فى موكب حافل ومعه أسارى كثيرة ومدفع وبيارق من غنائم النيمسا وفى أثناء ذلك حاصر ملك المسكوف قلعة أزوف فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها وقتلت من عساكره ثلاثين ألفاً ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر وتملك المسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعا .

ذكر غزوة عظمى

بلغ السلطان أن النيمسا جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوى ، وكان متدربا فى الحرب ، فسار السلطان سنة ثمان ومائة وألف بمائة ألف مقاتل إلى مدينة أدرنة وارسل الجيوش منها لمحاربة النيمسا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديداً ، وكان النصر للمسلمين فقتلوا من النصارى عدداً كثيراً وشتتوهم فى جميع الجهات ورجع السلطان إلى مقر ملكه .

Marfat.com

غزوة أخرى

فى سنة تسع بلغ الباب العالى رجوع عساكر النيمسا مع الجنرال أوجين الفرنساوى فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الأعظم محمد الماس باشا واستولوا فى طريقهم على عدة قلاع ، ثم التقوا بجيوش النيمسا التى مع أوجين الفرنساوى ووقع بينهم وقعات ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الأعظم فى ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ثم انهزم ورجع إلى بلاد المجر ، وفى أثناء ذلك سعت دولة فرنسا وانجلترا وهولاندا فى الصلح واختاروا مدينة كرلوفر لانعقاد الجمعية بهذا الصدد والسبب أن الدولة كانت كلت وقلت النقود من كثرة الحروب فحصل القبول لهذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرنسا وانكلترا والمسكوف والنيمسا والبندقية وبولونيا وهولندا وبعد ٣٦ جلسة فى ٧٢ يوما تم الصلح فى رجب سنة ١١١٠ وانعقدت شروطه باتفاق الجميع وتلك الشروط تعرف بشروط كازلاويز ، وكان من جملة الشروط حصول الهدنة ومتاركة الحرب مع النيمسا ٢٥ سنة وأما الموسكوف فلم يقبل إلا بهدنة سنتين وبعد انعقاد الصلح هاجت الماس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت إلى أن قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندى قبل أن السلطان مصطفى لما بلغه أنهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسى السلطنة فكانت مدة تملكه ٨ سنين و ٤ أشهر ، وكان خلعه سنة ١١١٥ ومات فى السنة التى بعدها فعمره ٤١ سنة .

ولاية السلطان أحمد الثالث

تسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم ، وكان من الصالحين المحبين للجهاد وإقامة الحق ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شىء عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا سبباً فى تلك الفتنة ، وقتل كثيراً منهم .

Marfat.com

ذكر غزوة فى زمن السلطان أحمد الثالث

ثم جهز عمارة لمحاربة البندقية فى جهات المورة فملكوا أكثر الجزائر واستأثروا كثيراً من البندقية واستولوا على مراكبهم ، وفى سنة ستة عشر ومائة وألف قامت الحرب على قدم وساق بين قيصر الروسيا بطرس وكارلوس ملك السويد واسترسلت إلى سنة فانكسر أخيراً كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسيا بطرس الأكبر ، ولما انهزم ملك السويد دخل فى حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الإكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ومكث فى بلاد الدولة مداوماً الالحاح عليها لمحاربة الروسيا إعانة له فامتنعت الدولة من إجابته .

ذكر غزوة إلى الروسة

ثم أجابته فى سنة ١١٢٣ وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشاً تحت قيادة محمد باشا البلطجى ، فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر برت وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر فى خطر مبين ولو لم تتدارك الأمر زوجته كاترينا بحذاقها ودرايتها لأصبح زوجها أسيراً ، فعقدت صلحاً مع الوزير الأعظم تحت شروط منها ترجيع بحر أزوف إلى الدولة وهدم الحصون التى على سواحل هذا البحر ويترك للدولة للدافع التى فيها وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القذف ، وأن تتعهد لملك السويد بحرية الرجوع إلى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وأمر بعزله ونفيه ، فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا وتم رأى رجال الدولة على إبطال ذلك الصلح مع الروسية وإشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير فى تلك العهود ، وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب ، فلذلك صار يؤخر فى تجهيز المهمات الحربية واجتهد فى تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمسة وعشرون سنة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا وذلك سنة أربع وعشرون ومائة بعد الألف ثم إن ملك السويد أراد الرجوع إلى بلاده

Marfat.com

وطلب من الدولة ألف كيس ، فأمرت له بها ، ثم طلب ألفاً أخرى فأمرت له بها ، فغضب الوزير وأراد إخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها ، فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه إبراهيم باشا ، ثم بعد عشرين يوما عزل وأقيم مكانه داماد على باشا فعقد الصلح مع الروسية على ٢٥ سنة وفى أثناء ذلك حضر ملك إلى السويد كتاب من أخته تقول له : إن حضوره لازم لأجل راحة المملكة ، فعزم على الرحيل واستأذن الدولة فى الرجوع فأمرت له بستمائة جاويش لأجل محافظته فى الطريق وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل وصيوانا مطرزاً بالذهب وسيفاً مرصعا بالأحجار الثمينة ، فرحل من بلاد الدولة سنة ست وعشرون ومائة بعد الألف شاكراً أفضال الدولة على ماصنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الأعمال الممدوحة التى تستحق أن ترقم فى صحائف التواريخ لتكون تذكاراً بين الملوك وأهل السويد لا ينسون هذا الجميل الذى فعلته الدولة العلية فى حق ملكهم .

ذكر غزوة عظمى

وفى سنة ست وعشرين أيضاً فتحت الدولة والحرب على البندقية واستولت العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة وألف ، وكانت مشيخة البنادقة استغاثت بملك النيمسا وهو إذ ذاك امبراطور ألمانيا فلبى دعوتها وبعث إلى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمد من طرفها إلى حدود بلاد المجر لأجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقية وإن أبت عن ذلك فإنه مستعد أن يشهر الحرب عليها فلم تجب الدولة هذا الطلب .

ذكر غزوة

بل أرسلت على الفور الصدر الأعظم بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة ألمانيا فوافاهم ثمانون ألفاً من عساكر الألمان تحت قيادة الأمير أوجين الفرنساوى والتقى الجيشان عند كارلوفيتز ، التحم القتال بين الفريقين مدة أيام ، وكان الصدر الأعظم داماد على باشا من

Marfat.com

أحسن أبطال زمانه فكان ينزل فى ميدان الحرب ويقاتل بنفسه أشد القتال فقدر الله أنه قتل فى ميدان القتال فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاماً مهولا واستولت عساكر العدو على المهمات والمدافع ، ثم تقدموا إلى مدينة تميغار وحاصروها شهرين وملكوها .

ذكر غزوة أخرى

وولى الصدارة خليل باشا فجهز جيشا لقتال العدو وسار إلى أدرنة ومنها إلى بلغراد واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضاً على جيش المسلمين وملك العدو مدينة بلغراد فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا وعزل بعد ثمانية أشهر وأقيم مكانه داماد إبراهيم باشا وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلا بالحرب مع العدو فى جهة بوسنة ولما بلغت هذه الأخبار ديوان السلطنة فتحت المخابرة فى الصلح سنة ثلاثين ومائة وألف وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة ألمانيا وجمهورية البندقية على حدته فأجاب الأمير أوجين بأن الإمبراطور لا يفتح المخابرة إلا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت نظره وأردف هذا الطلب بأن يعطى له ما عدا مصاريف الحرب ومدينتى بلغراد وتميغار وإقليما بوسنة والصرب والوافدان فى الجهة اليمنى من نهر الدانوب والأفلاق من حدود بغدان إلى نهر دنيستر وأن ترجع المورة إلى البندقية فعظمت هذه المطالب على السلطان أحمد وفضل فقد التاج على التسليم بشروط مجابة للعار فتداخلت أخيراً دولتا انكلترا وهولنده فى نقض الخلاف وصار القرار على أن يبقى فى يد كل من الدولتين الأملاك التى تكون فى يدها عند امضاء المعاهدة وأن يبقى إيالة المورة للدولة العلية وفى سنة ٣٣ حدثت حريق مهولة فى القسطنطينية أحرقت نحو ربعها وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونيا شروط الصلح وروابط العهود .

Marfat.com

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

فى سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون فى حدود العجم إلى السلطان أحمد يشكون من المظالم والتعدى التى يجريها الشيعة عليهم ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم فأجابهم السلطان أحمد وسير جيشاً إلى بلاد العجم وفتحوا جملة حصون ومدينة أرمقان ونهاوند وتبريز وشتتوا جموع الأعاجم قتلا وأسراً وامتلأت أيديهم من غنائمهم فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة فى الصلح فقبلت بشروط أن يرجع إلى الدولة البلاد التى كان استولى عليها وفى أثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهماسب فأرسل إلى الدولة يطلب ترجيع الأملاك التى أخذت من أبيه وحاصر تبريز وملكها واستولى على ستمائة حمل جمل من الأمتعة فصدر الأمر من السلطان أحمد بتجهيز العساكر لحرب الأعاجم وعند ما كانوا على هيئة الذهاب وذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هاجت العساكر الانكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وشيخ الإسلام وقبطان باش وكتخدا بك لشكايا يشكون منها فلم يقبل السلطان منهم ذلك فقالوا نسمح عن شيخ الإسلام فقط ثم قتلوا الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكتخدا بك، ثم أن بعض العسكر أنكروا أن المقتول إبراهيم باشا وقالوا أن المقتول رجل يشبهه وليس هو ورجعوا يطلبون من السلطان إحضار إبراهيم باشا وأخذوا يصرخون يعيش السلطان محمود وساروا يطلبون السلطان محموداً فى المكان الذى هو فيه وأتوا به إلى الديوان وأجلسوه على كرسى السلطنة وبايعوه بعد أن خلعوا عمه السلطان أحمد وكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفى سنة تسع وأربعين وعمره ستون سنة ومدة ملكه سبع وعشرون سنة وأحد عشر شهراً.

ولاية السلطان محمود الأول

وأما ابن أخيه الذى أقيم فى السلطنة بعده فهو السلطان محمود الأول ابن مصطفى بن محمد بن إبراهيم هكذا ذكرت هذه القصة فى كثير من التواريخ ورأيت فى تاريخ مكة

Marfat.com

للرضى حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير إبراهيم باشا ، فقال فى تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف كان جلوس السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان محمود بن السلطان مصطفى بن محمد ورفع عمه السلطان أحمد بن السلطان محمد المتولى سنة ألف ومائة وخمس عشره وكان هذا الرفع والجلوس لأسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم، وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد إبراهيم باشا ومن كيخيته حتى زاد الحال على المسلمين اجتمع من أطراف العسكر اثنا عشر نفراً لا زيادة واستمر عشرة أيام وهم فى كل يوم يخرجون ويجتهدون فى أن يعضدهم أحد من العسكر فلم يحصل ذلك وفى اليوم الحادى عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدرى أين ذهبوا ولم يبق منهم إلا واحد فصار ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جواداً وامتثلوا له جميع ما أمر ، وصارت عدتهم فوق العشرة آلاف وفى أثناء ذلك السلطان أحمد حافظ للوزير وكيخيته وأمير البحر المسمى بالقبطان وهو فى غاية الذلة والهوان أرسل إليه أمير الأمة المذكور بأن أدفع إلينا الوزير والكيخية ، نريد أن نقتص منهم مظالم الخلق فاضطرب حالهم ضطراباً انجلى عن قتل الوزير لكيخيته بيده ثم قتل القبطان أيضاً بيده ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل إليهم برؤوس الثلاثة بناء على أن ذلك مرض لهم فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا إن قتل القبطان كان ظلماً لأنه لم يصدر منه ما يوجب ذلك وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن لنا به غرض بل كان مطلوبنا حضورهما حيين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما فى البلاد ، ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضا فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفىء هذه الثائرة إلا إخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة ، فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب إليه فى الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ثم أرسل إليهم بأن يتفرقوا فأبوا إلا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفى جماعة فتم لهم ما طلبوه ، ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضاً ، فأرسل إليهم شيخ الإسلام بأنكم إذا لم تتفرقوا وإلا أخرجت لواء النبى .

Marfat.com

صلى الله عليه وسلم وأخذت عليكم فتوى ووجهت الجهاد عليكم ، فعند ذلك تفرقوا فطلب ذلك الرجل الذى كان أمير هذه الأمة المجتمعة ، فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يدرى أين ذهب واستقرت السلطنة للسلطان محمود الأول وصدرت منه الأوامر العلية إلى جميع ممالكه وزينت البلاد وكان من أغرب الاتفاق أن أخرج تاريخ ذلك قوله تعالى ﴿ فاعْتَبِروا يَا أُولِى الأَبْصَار ﴾ .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

وقد وقع فى مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسية وألمانيا عدة سنوات وكذا وقعت أيضا محاربات بينه وبين العجم .

ذكر غزوة إلى العجم

فمنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت فى حكم الدولة وأخذوها وحاصروا بغداد فجهز السلطان محمود عليهم جيوشاً سنة ست وأربعين ومائة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشتتهم فى الجهاد وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجع بعض جيوش الدولة إلى كردستان ليخلصها من أيدى الأعجام واشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا فى ميدان الحرب ، وقد كان فى السنة التى قبلها عقد صلحاً مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدى العجم ، فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك ، ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة ، فلما بلغ الخبر الباب العالى جهز السلطان جيشاً آخر لقتال العجم ، ولما وصل الجيش إلى شط نهر كوبال صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ودخلت عساكر الموسكوف فى بولونيا فشكتهم الدولة إلى ملوك أوروبا لأن ذلك مخالف للشروط التى كانت بينهم فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره فى بولونيا لمنع دولة فرنسا من تسليم أحكام بولونيا فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف .

Marfat.com

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وسارت العساكر فى سنة تسعة وأربعون ومائة بعد الألف بعد أن عقدوا صلحاً مع العجم غير الصلح الذى تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع ، وفى مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر الموسكوف وأخذت بعض جهات من أراضى الدولة فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت إلى القرم واقتتلوا مع الموسكوف فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ثم أن الموسكوف اتحدت مع النيمسا وألمانيا وكانت ألمانيا تابعة للنيمساورجموا واستلموا قلعة أزوف وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة واستولت عساكر النيمسا على ثمان مدن من بلاد الصرب والأفلاق وعلى قلعة نيش .

غزوة أخرى

فرجعت إليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النيمسا قدام بنالوغا وتشتت فى جهات البلاد وامتد الانتصار إلى أن طردت عساكر الدولة النيمسا من الأفلاق والبغدان وأرصوفا واسترجعت قلعة نيش وأحرقت لهم سبع مراكب حربية فى البحر تجاه قلعة اليرابت وتوسطت فرنسا فى الصلح فلم يقبل السلطان ، فلم تزل فرنسا تراجع السلطان إلى أن تم الصلح بشرط أن النيمسا ترجع بلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الأفلاق والصرب وغير ذلك وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة وعقدوا هدنة طويلة وهى سبعة وعشرون سنة واشترطت الدولة على الموسكوف أن لا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية فى البحر الأسود وبحر أزوف وأن الموسكوف يرجع الأماكن التى استولت عليها فى مدة الحرب وأن يهدم قلعة أزوف وبعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم فأجابتها الدولة إلى ذلك وعظم أمر السلطنة فى تلك السنة . هذا تلخيص ما كان فى مدة السلطان محمود الأول وكان من أعظم سلاطين آل عثمان عقلا وهمة وتدبيراً ومحبة للجهاد ونصرة الدين وإقامة الشرع

Marfat.com

وتوفى رحمه الله سنة سبعة وستون ومائة بعد الألف وعمره ستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة (ولاية السلطان عثمان الثالث) وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان بن السلطان مصطفى بن محمد بن إبراهيم ومكث قريبا من أربع سنين وتوفى سنة إحدى وسبعون ومائة بعد الألف (ولاية السلطان مصطفى الثالث) وأقيم بعده فى السلطنة السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم ، فلما استقر فى ملكه أخذ فى تعظيم ملكه وتقوية ما وهن منه وكان ذلك بإسعاف وزيره الصدر الأعظم محمد راغب باشا المشهور بالعلم والتدبير وحسن السياسة ، وفى سنة ست وسبعون ومائة بعد الألف توفى راغب باشا وبعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية وفى هذه السنة خلعت كاترينا امرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسى السلطنة وجلست مكانه وسجنته ، ثم أمرت بقتله فقتل وأخذت تسعى فى إخراج اليونان عن طاعة الدولة العثمانية وحركت اليونان فى الموردة والأرناؤوط وأخذوا يستعدون لخلع الطاعة وانهض على بك بمصر وتغلب عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال وأرسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفاً لحماية البلاد على شاطىء نهر الطونة وأرسلت اليونان إلى كاترينا ملكة الموسكوف ستنجد بها فبعثت لهم جيشاً لم يغن شيئاً فهزمتهم عساكر الدولة غير أن عساكر الموسكوف فى تلك الأيام انتصرت على عساكر الدولة التى كانت على حدود الطونة واستولوا على بغدر وا كرمان واسماعيل وقلاع على شاطىء هذا النهر، ولما بلغ الباب العالى هذه الوقائع صدر الأمر بتكثير الجيوش ، وفى السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت إلى بلادها بعد أن فقد منها عساكر كثيرة فى الحرب وبالطاعون وحينئذ أخذت النيمسا وبروسية فى التوسط فى الصلح وتوقيف الحرب ولكن لما رأت الدولة أن مطالب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب .

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وفى سنة ألف ومائة وست وثمانين سار الصدر الأعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف فضربهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمائة أسير وسار حسن باشا قبطان باشا

Marfat.com

بجانب من العساكر الشهانيه وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضاً وأخذ مدافعهم وذخائرهم ، وفى أثناء هذه الغلبات توفى السلطان مصطفى سنة سبع وثمانون ومائة بعد الألف وعمر ثمان وخمسون سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة .

ولاية السلطان عبد الحميد الأول

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع بن إبراهيم وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بإنجاز الجيوش وتكثيرها .

ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الأول

بعث مع الصدر الأعظم أربعمائة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية فحصلت لهم هزيمة وانحصروا فى شملة ووقعوا فى صعوبة كلية ، فاجتهد السلطان فى إرجاع قوة الدولة وكانت العساكر قد كلت من الحروب وحدث بين العساكر الانكشارية شغب فتركوا الصدر الأعظم فى ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر فرجع إلى شملة وأرسل يعلم الباب العالى بذلك فصدر الأمر بعقد الصلح فتم على شروط تعرف بعهد كوجيك قينارجه وهى منطوية على استقلال التتر فى بلاد القرم واليوجك والكوبان ، وعلى سير السفن الروسية فى بحر الدولة ، وترك أزوف وكيل برون وبعض القلاع إلى الموسكوف وقبول الدولة انقسام بولونيا والموسكوف يترك للدولة الأفلاق والبغدان والجزائر التى كانت فى يدها فى البحر الأبيض وبعد إمضاء هذه الشروط عاد الصدر الأعظم محسن باشا بمن معه من العساكر إلى دار السلطنة وتوفى فى طريق مدينة أدرنة وأقيم مكانه محمد عزت باشا وأخذ السلطان عبد الحميد فى إصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين فى ممالكه ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدى من حين إلى حين على حدود الدولة حتى أنها أغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد تلك يتحمل التعديات بمرارة عظيمة زمانا طويلا ويرى سلطنته مشرفة على وهدة السقوط

Marfat.com

وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافى ولما رأى أن كثيراً من ممالكه وقعت فى قبضة الأجانب شرع فى استعدادات جديدة للحرب .

ذكر غزوة أخرى

وبعث جيوشاً متعددة فمنها جيش سار به حسين باشا القبطان فقتل كثيراً من العصاة وبعث برأس ظاهر العمر الذى تغلب فى جانب سورية وبرأس حاكم البغدان الذى كان يحاكيه فى الشقاوة .

غزوة أخرى

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكنى المورة فسار إليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس فأرعب قلوبهم وكسر عزائمهم وألزمهم الطاعة وطلب العفو لهم من الباب العالى وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائما فى تخفيض قوة الدولة العثمانية وما اكتفت بتملك القوم فأرسلت أناسا فى كثير من الممالك يزرعون فيها الفتن فلما نظرت رجال الدولة تعدى الروسية على حقوق الدولة استشاطوا فى ذلك ونادوا بالحرب وكانت الإنكليز تحرض الدولة على ذلك ويؤكد لها الإعانة وأن دولة اسوج وبلونيا ينهضان معها لإسعاف الإسلام وأن بروسية تقاوم النيمسا .

ذكر غزوة أخرى

فصدر الأمر إلى الصدر الأعظم يوسف باشا فتوجه لحرب الروسية والنيمسا وكانت كاترينا ملكة الروسية حضرت إلى بلاد القرم بجيش عظيم وحضر امبراطور النيمسا بجيش عظيم وكان قد تعاهد معها على محاربة الدولة وكانت فرنسا متفقة مع الروسية سراً فاقتتلت عساكر الدولة مع النيمسا فى محل يقال له فتح الإسلام والجزيرة الكبيرة فانتصرت العساكر الإسلامية واستولت على كثير من القلاع والحصون .

Marfat.com

غزوة أخرى

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رئاسة شاهين على باشا وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النيمسا حتى كاد امبراطور النيمسا يقع أسيرا تقدمت عساكر الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقى الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر ، فلما شاهد الصدر الأعظم ذلك كتب إلى الباب العالى يستأذن إلى السعى فى عقد الصلح ، وفى أثناء ذلك توفى السلطان عبد الحميد سنة ألف ومائتين وثلاث وعمره ست وستون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة .

ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوس السلطان سليم وجه همته إلى اصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية ، وأمر بجميع الجيوش من جهات البلاد لتكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك فاجتمع فى وقت قريب نحو مائة وخمسين ألف مقاتل ، وكان اجتماعهم فى مدينة صوفيا وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النيمسا لمحاربة العساكر الإسلامية التى كانت تحت رئاسة الصدر الأعظم يوسف باشا وقبطان باشا حسين باشا ، فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة فى البغدان وبقى نحو شهرين فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا على أكثر مدافعهم ومهماتهم وبسبب ذلك عزل الصدر الأعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة إلى كتخدا حسن باشا ، ثم عزل وصار بدله حجازى حسن باشا سنة ١٢٠٤ فتوفى وصار بدله شريف حسن باشا ، وأما عساكر الروسية فتقدموا أيضا فى البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وايالتى الافلاق والصرب وكل المدن التى على شاطىء الطونة وكادوا يستولون على قلعة اسماعيل التى هى أعظم حصن فى بلاد الدولة التى فى تلك الجهات وبينما هم كذلك إذ حضر الخبر بموت امبراطور ألمانيا وكان متعاهداً مع ملكة الروسية على محاربة الدولة وجلس فى مكانه

Marfat.com

أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة انكلترا وبروسية وشرطوا عليه أن يرد للدولة ممالك الدولة التى افتتحها النيمسا ، فرد لها كل الأراضى التى افتتحها مع النيمسا وأبقى فى يده روكزيم إلى حين تمام الصلح بين الدولة والروسية ، وسعى فى عقد الصلح بين الروسية والدولة فلم تقبل ملكة الروسية كاترينا وكانت مواظبة عل الحرب فتقدمت عساكرها إلى قلعة اسماعيل ، وأقامت الحصار عليها وكان فى القلعة نحو ثلاثين ألفا ، فقطعوا عنهم الزاد والمهمات ، وصرخوا على عساكرهم للوت وإلا قلعة اسماعيل وهجمت عساكرهم على تلك القلعة وافتتحوها ، واشتد القتال بين الجيشين حتى ملأ القتلى خنادق تلك القلعة ، ولما هجم الليل صعدت العساكر على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حربا شديداً ، فكانت النساء والأولاد يجمعون سلاح القتلى ويهجمون على عساكر المسلمين وما زالوا كذلك حتى قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا دخلوا القلعة ولم ينج منهم إلا رجل واحد طرح نفسه فى النهر وذهب إلى القسطنطينية وأعلمهم بأن الغلبة وقعت على عساكر الدولة لأنهم مكثوا ثلاثة أيام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى أن الدم جرى كالسواقى وقتل من النساء والأطفال فى تلك المعركة خمسة عشر ألفاً ، ولما وصل هذا الخبر إلى القسطنطينية هاجت العساكر هيجانا عظيما وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه فى الحروب البرية والبحرية ولكن النصر من عند الله ولا أراد لقضاء الله وقدره ولأجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجىء لهم برأسه وأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا الذى عزل سابقاً وبعد ذلك تقدمت عساكر لروسية وقاتلت العساكر الإسلامية فى الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك فى سنة خمس ومائتين وألف فتوسطت دولة الإنكليز والبروسية فى الصلح فتم سنة ست ومائتين وألف على شروط وهى أن الروسية ترجع للدولة كل الأماكن التى فتحتها خلا أوكزاكوف والأراضى الواقعة بين بوغ وسليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أودسا سنة ألف ومائتين وسبع تذكاراً لنصرها وهى مدينة شهيرة أكثر سكانها نصارى على البحر

Marfat.com

الأسود سكانها نحو أربعين ألفاً ، ثم سعى السلطان سليم فى ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها وأرسل يطلب من فرنسا مهندسين أو معلمى صنائع وضباطاً إلى غير ذلك فبعثت له بجانب عظيم ثم أن العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وأقاموا فيها إلى سنة ست عشرة فالتزمت الدولة العلية أن تشتهر حربها إلى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة انكلترا وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر فى غزوة مدة السلطان سليم الثالث

وفى سنة ألف ومائتين وأربع عشرة وجه عمارة مع عمارة الروسية وفتحتا السبع الجزائر التى كانت لجمهورية البندقية ، وكانت فرنسا يومئذ متولية عليها وهذه هى المرة الأولى التى اتحد فيها هاتان الدولتان ، وفى سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضاً بين الدولتين المشار إليهما فى صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر وفى سنة سبع عشرة ومائتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرنسا .

ذكر غزوة إلى بلاد الروسية

وفى سنة إحدى وعشرين اتفقت الدولة مع فرنسا على حرب الروسية فكان ذلك داعياً لتعسكيرها مع انكلترا إلا أنها كانت تسعى فى ملاشات شوكة نابليون امبراطور فرنسا ولكن لم تستطع انكلترا أن تمنع السلطان سليما من محاربة الروسية لأن جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الأفلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود ، فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده ويدافع عن حقوقه فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا جلبى ومصطفى باشا البيرقدار إلى الأفليمين المذكورين فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الأراضى العثمانية ولما أيست انكلترا من إيقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرنسا سارت بمراكبها إلى الإسكندرية وتملكوها فأخرجهم منها محمد على

Marfat.com

باشا حاكم مصر ، وكان من الأسباب فى حضور الانكليز لأخذ الإسكندرية أن الصناجق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد على باشا محاربات وشتتهم فى الأرياف . فأرسل كبيرهم محمد بك الألفى للانكليز يستنجد بهم فحضرت مراكبهم فى ثغر الاسكندرية فى أول محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وعدتها اثنان وأربعون مركباً مشحونة بالعساكر ، وضربوا على الاسكندرية بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور فعند ذلك طلب أهل الاسكندرية الأمان فرفعوا عنهم الضرب ، ودخلوا البلد ثم سيروا جيشاً منه إلى رشيد فدخلوها ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فرجع الباقون إلى الاسكندرية منهزمين ، واستعد محمد على باشا لمحاربتهم وإخراجهم من الاسكندرية وشرع فى تعمير القلاع واستنفر كافة الناس لقتالهم واستمر الحال إلى أواخر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وتوجه محمد على باشا لعساكره إلى جهة البحيرة والاسكندرية وحصل بينه وبين الإنكليز الذين فى الاسكندرية مكاتبات ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط فخرجو من الاسكندرية وأخلوها فى أوائل رجب من السنة المذكورة أعنى سنة اثنتين وعشرين وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار وكان محمد بك الألفى الذى استنجد بهم قد مات قبل مجيئهم إلى الإسكندرية وفى هذه السنة أيضا كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليما وقصة ذلك سنذكر ملخصها لكن ينبغى أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت فى مدة السلطان سليم المذكور منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لأن مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس وإن كان منتهاها متأخرا .

ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس مصر

اعلم أن السلطان سليما الثالث حدث فى مدة سلطنته فتن كثيرة منها ما تقدم ذكره ومنها فتنة الوهابية التى كانت فى الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحج

Marfat.com

الشامى والمصرى ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة سنة ست عشرة ولنذكر ما يتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار لأن كلا منهما مذكور تفصيلا فى التواريخ وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة ، أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيها بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو نائب من جهة السلطنة العلية على الاقطار الحجازية وابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف وكان ذلك فى مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد (وأما ابتداء أول ظهور الوهابية) فكان قبل ذلك بسنين كثيرة وكانت قوتهم وشوكتهم فى بلادهم أولا ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بنى تميم وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين لأنه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم ، كانت ولادته سنة ألف ومائة وإحدى عشرة وهلك سنة ألف ومائتين وأرخه بعضهم بقوله :

(بدا هلاك الخبيث) ١٢٠٦

وكان فى ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان أبوه رجلا صالحاً من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزعاته فى كثير من المسائل ، وكانوا ينبهونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذى أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين فزعم أن زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالأنبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن نداء النبى صلى الله عليه وسلم عند التوسل به شرك وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك وأن من أسند شيئا لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلى يكون مشركا نحو نفعنى هذا الدواء وهذا الولى الفلانى عند التوسل به فى شىء وتمسك بأدلة لا تنتج له شيئا من مرامه وأتى

Marfat.com

بعبارات مزورة زخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم فى ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد ، واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة إلى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الأعراب وأهل البوادى حتى تبعوهم وصاروا جنداً لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال ، وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين وابتداء انتشاره من بعد الخمسين ومائة وألف . وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية وكان من بنى حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ، وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه فكان الأمر كذلك وزعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذى ابتدعه إخلاص التوحيد والتبرى من الشرك وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة وأنه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ والذينَ يَدْعُونَ مَن لايَسْتَجِيبُ لهم إلى يوم القِيامة ﴾ وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثيرة : فقال محمد بن عبد الوهاب من استغاث بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه مثل هؤلاء المشركين ويدخل فى عموم هذه الآيات وجعل زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين مثل ذلك وقال فى قوله تعالى حكاية عن المشركين فى عبادة الأصنام ما نعبدهم إلا لتقربونا إلى الله زلفى إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال: إن المشركين ما اعتقدوا فى الأصنام أنها تخلق شيئا بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى

Marfat.com

بدليل قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مِنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ مما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم ليقربونا إلى الله زلفى فهؤلاء مثلهم ، ومما ردوا به عليه فى الوسائل المؤلفة للرد عليه أن هذا استدلال باطل فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله بل أنهم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون ولا يعتقدون أنهم مستحقون العبادة وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الألوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وإن كانوا يعتقدون أنها لاتخلق شيئاً وأما المؤمنون فلا يعتقدون فى الأنبياء والأولياء استحقاق العبادة والألوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية بل يعتقدون أنهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم ويبركتهم يرحم عباده فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى ، ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة فاعتقاد المسلمين أن الخالق الضار النافع المستحق العبادة هو الله وحده ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه وأن الأنبياء والأولياء لايخلقون شيئاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً وإنما يرحم الله العباد ببركتهم فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والألوهية هو الذى أوقعهم فى الشرك لامجرد قولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله لأنهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنهم لاتستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام فجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار والمشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين وفى رواية عن بن عمر أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل يتأول القرآن يضعه فى غير موضعه فهو وما قبله صادق على هذه الطائفة ولو كان شىء مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركا ما كان يصدر من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها

Marfat.com

فى الأحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان من دعائه « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك » وهذا توسل لاشك فيه وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه ويأمرهم بالإتيان به وبسط ذلك طويل مذكور فى الكتب وفى الرسائل التى فى الرد على ابن عبد الوهاب وصح عنه أنه صلى الله عليه وسلم لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنهما ألحدها صلى الله عليه وسلم فى القبر بيده الشريفة وقال « اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى إنك أرحم الراحمين » وصح أنه صلى الله عليه وسلم سأله أعمى أن يرد الله بصره بدعائه فأمر بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعه فى » ففعل فرد الله عليه بصره وصح أن آدم عليه السلام توسل بنبينا صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة لأنه لما رأى اسمه صلى الله عليه وسلم مكتوبا على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله له هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك . فقال اللهم بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فنودى يا آدم لو شفعت إلينا بمحمد فى أهل السماء والأرض لشفعناك وتوسل عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنه لما استسقى الناس ، وغير ذلك مما هو مشهور فلا حاجة إلى الإطالة بذكره والتوسل الذى فى حديث الأعمى قد استعمله الصحابة والسلف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وفيه لفظ يا محمد وذلك نداء عند التوسل ومن تتبع كلام الصحابة والتابعين يجد شيئاً كثيراً من ذلك كقول بلال بن الحارث الصحابى رضى الله عنه عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم يا رسول الله استسق لأمتك كالنداء الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور وممن ألف فى الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردى مؤلف حواشى شرح ابن حجر على متن بافضل فقال من جملة كلامه يا ابن عبد الوهاب إنى أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين . وأنت

Marfat.com

شاذ عن السواد الأعظم فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لانه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية اه وأما زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف وجاء من فضلها أحاديث أفردت بالتآليف ومما جاء فى النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله صلى الله عليه وسلم «إذ أفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد ياعباد الله أحبسوا فإن لله عباداً يجيبونه» وفى حديث آخر «إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينونى وفى رواية أغيثونى فإن لله عباداً لا ترونهم» وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال ياأرض ربى وربك الله وكا صلى الله عليه وسلم إذا زار قال السلام عليكم ياأهل القبور وفى التشهد الذى يأتى به كل مسلم فى كل صلاة صورة النداء فى قوله السلام عليك أيها النبى والحاصل أن النداء والتوسل ليس فى شىء منهما ضرر إلا إذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ومتى كان معتقداً أن التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر فى ذلك وكذلك إسناد فعل من الأفعال لغير الله لا يضر إلا إذا اعتقد التأثير ومتى لم يعتقد التأثير فإنه يحمل على المجاز العقلى كقوله نفعنى هذا الدواء أو فلان الولى فهو مثل قوله : أشبعنى هذا الطعام ، وأروانى هذا الماء ، وشفانى هذا الدواء فمتى صدر ذلك من مسلم فإنه يحمل على الإسناد المجازى والإسلام قرينة كافية فى ذلك فلا سبيل إلى تكفير أحد بشىء من ذلك ويكفى هذا الذى ذكرناه إجمالا فى الرد على أبى عبد الوهاب ومن أراد بسط الكلام فليرجع إلى الرسائل المؤلفة فى ذلك وقد لخصت ما فيها فى رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها ، ولما قام ابن عبد الوهاب ومن أعانه بدعوتهم الخبيثة التى كفروا بسببها المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة ، ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريبا من الشام فإن ملكهم وصل إلى المزيريب وكانوا فى ابتداء أمرهم أوسلوا جماعة من علمائهم ظنا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب

Marfat.com

والمين ،فلما وصلوا إلى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تملكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ونظروا إلى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من الكفرات فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهما بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم ، فيعلم بذلك الأول والآخر، وكان ذلك في مدة إمارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومائة وألف، وأمر بحبس أولئك الملحدة فحبسوا وفر بعضهم إلى الدرعية فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتواً واستكباراً وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكه مولانا الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون ولم يزل أمرهم يقوى وبدعتهم تنتشر إلى أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة . وفي سنة سبع عشرة بعد المائتين والألف ساروا بجيوش كثيرة حتى نازلوا الطائف وحاصروا أهله في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالا ونساء وأطفالا ولا نجا منهم إلى القليل ونهبوا جميع أموالهم ثم أرادوا المسير إلى مكة فعلموا أن مكة في ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج ويقدم إليها الحاج الشامي والمصري فيخرج الجميع لقتالهم فمكثوا في الطائف إلى أن انقضى شهر الحج وتوجه الحجاج إلى بلادهم وساروا بجيوشهم يريدون مكة ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل إلى جدة فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثل ما فعلوا مع أهل الطائف فأرسلوا إليهم وطلبوا منهم الأمان لأهل مكة فأعطوهم الأمان ودخلوا مكة ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المائتين والألف ومكثوا أربعة عشر يوما يستتيبون الناس ويجددون لهم الإسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون أنه شرك كالتوسل وزيارة القبور، ثم ساروا بجيوشهم إلى

Marfat.com

جدة لفتان الشريف غالب فلما أحاطوا بجدة رمى عليهم بالمدافع والقلال فقتل كثيراً منهم ولم يقدروا على تملك جده فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا إلى بلادهم وجعلوا لهم عسكراً بمكة وأقاموا لهم أميراً فيها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب وإنما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة ويدفع ضرر أولئك الأشرار عنهم ، وفى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والى جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهما العساكر فوصلوا إلى مكة وأخرجوا من كان بها من عساكر الوهابية ورجعت أمارة مكة للشريف غالب ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميراً عثمان المضايفى فصار هو وبعض جنودهم يقاتلون القبائل التى فى أطراف مكة والمدينة ويدخلونهم فى طاعتهم حتى استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التى كانت تحت طاعة أمير مكة فتوجه قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة فساروا بجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطرق ومنعوا الميرة عن مكة فاشتد الحصار على أهل مكة حتى أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت فاضطر الشريف غالب إلى الصلح معهم وتأمين أهل مكة فوسط أناساً بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة فمن تلك الشروط أن إمارة مكة تكون له فتم الصلح ودخلوا مكة فى أواخر ذى القعدة سنة عشرين وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الأموال وفعلوا أفعالا شنيعة وجعلوا على المدينة أميراً منهم مبارك بن مضيان واستمر حكمهم فى الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامى والمصرى مع المحامل مكة وصاروا يصنعون للكعبة المعظمة ثوبا من العباء القيلان الأسود وأكرهوا الناس على الدخول فى دينهم ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك وأطلموا عليه عزروه بأقبح التعزير وهدموا القبب التى على قبور الأولياء وكانت الدولة العثمانية فى تلك السنين فى ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفى اختلاف فى خلع السلاطين وقتلهم كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى ، ثم صدر الأمر السلطانى لصاحب مصر محمد على باشا

Marfat.com

بالتجهيز لقتال الوهابية وكان ذلك فى سنه ١٢٢٦ فجهز محمد على باشا جيشاً فيه عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطان ولده طوسون باشا فخرجوا من مصر فى رمضان من السنة المذكورة ولم يزالوا سائرين براً وبحراً حتى وصلوا إلى ينبع فملكوه من الوهابية ، ثم لما وصلت العساكر إلى الصفرا والحديدة وقع بينهم وبين العرب الذين فى الحربية قتال شديد بين الصفرا والحديدة وكانت تلك القبائل كلها فى طاعة الوهابى وانضم إليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيراً منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٢٦ ولم يرجع من ذلك الجيش إلى مصر إلا القليل فجهز جيشاً غيره سنة سبع وعشرين وعزم محمد على باشا على التوجه إلى الحجاز بنفسه وتوجهت العساكر قبله فى شعبان فى غاية القوة والاستعداد وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعا وثلاثة قنابل فاستولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوا الصفراء والحديدة وغيرهما فى رمضان بلا قتال بل بالمخادعة ومصانعة العرب بإعطاء الدراهم الكثيرة حتى أنهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مائة ألف ريال وأعطوا شيخا من صغار مشايخ حرب أيضاً ثمانية عشر ألف ريال ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر ، وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو فى الظاهر تحت طاعة الوهابى وأما المرة الأولى التى هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالب فى ذلك حتى يكون الأمر بتدبيره ودخلت العساكر المدينة المنورة فى أواخر ذى القعدة ، ولما جاءت الأخبار إلى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع وأرسلوا بشائر لجميع ملوك الروم واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة فى أوائل المحرم سنة ثمان وعشرين ثم طلعوا إلى مكة واستولوا عليها أيضاً ، وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف سراً ولما وصلت العساكر إلى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم ، وكان سعود أمير الوهابية حج فى سنة سبع وعشرين ثم ارتحل إلى الطائف ، ثم إلى الدرعية ولم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة إلا بعد ذلك ثم لما وصل إلى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف ولما وصلت العساكر إلى جدة

Marfat.com

ومكة فر من الطائف أميرها عثمان المضايفى وفر من كان بها من عساكر الوهابية وأمرائهم وفى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد على باشا مبشرين إلى دار السلطنة ومعهم المفاتيح وكتبوا إليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامهم البخورات فى مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك زينة وشنكا ومدافع وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا فى رتبة محمد على باشا وبعثوا له أطواخاً وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده، وفى شهر شوال سنة ثمان وعشرين توجه محمد على باشا بنفسه إلى الحجاز وقيل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفى الذى كان أميراً على الطائف للوهابية، وكان من أهل أكبر أعوانهم وأمرائهم فزنجره بالحديد وبعثه إلى مصر فوصل فى ذى القعدة بعد توجه الباشا إلى الحجاز ثم أرسل إلى دار السلطنة فقتلوه ووصل محمد على باشا فى ذى القعدة إلى مكة وقبض على الشريف غالب ابن مساعد وبعثه إلى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور ابن مساعد، وفى شهر محرم من سنة ٢٩ بعثوا إلى السلطنة مبارك بن مضيان الذى كان أميراً على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به فى القسطنطينية فى موكب ايراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفى وأما الشريف غالب فأرسلوه إلى سلانيك وبقى بها مكرما إلى أن توفى سنة إحدى وثلاثين ودفن بها وبنى عليه قبة تزار ومدة إمارته على مكة ست وعشرون سنة ثم أن محمد على باشا وجه كثيراً من العساكر إلى تربة وبيشة وبلاد غامد وزهران وبلاد عسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ثم سار بنفسه فى أثرهم فى شعبان سنة تسع وعشرين ووصل إلى تلك الديار وقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً وخرب ديارهم، وفى شهر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين هلك سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ورجع محمد على باشا من تلك الديار التى وصلها من ديار الوهابية عند إقبال الحج وحج ومكث بمكة إلى رجب سنة ثلاثين ثم توجه إلى مصر وترك بمكة حسن باشا ووصل الباشا إلى مصر فى منتصف رجب

Marfat.com

سنة ثلاثين ومائتين وألف فتكون إقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر ، وما رجع إلى مصر إلا بعد أن مهد أمور الحجاز ، وأباد طوائف الوهابية التى كانت منتشرة فى جميع قبائل الحجاز والشرق وبقى منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن مسعود فجهز محمد على باشا لقتاله جيشاً وأرسله تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا ، وكان عبد الله بن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد على باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحاً على بقاء إمارته ودخوله تحت طاعة محمد على باشا فلم يرض محمد على باشا بهذا الصلح فجهز ولده إبراهيم باشا وجعل أمر العساكر إليه ، وكان ابتداء ذلك فى أواخر سنة إحدى وثلاثين فوصل إلى الدرعية سنة اثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها إلى أن استولى على عبد الله بن سعود فى ذى القعدة سنة ٣٣ ، ولما جاءت الأخبار إلى مصر ضربوا لذلك ألف مدفع وفعلوا شنكا وزينوا مصر وقراها سبعة أيام ، وكان محمد على باشا له اهتمام كبير فى قتال الوهابية وأنفق فى ذلك خزائن من الأموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا فى دفعة من الدفعات لأجرة تحميل بعض الذخائر خمسة وأربعين ألف ريال هذا فى مرة من المرات كان ذلك الحمل من الينبع إلى المدينة عن أجرة كل بعير ست ريال دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير للدينة وعند وصول الحمل من للدينة إلى الدرعية كان أجر تلك الحملة فقط مائة وأربعين ألف ريال وقبض إبراهيم باشا على عبد الله بن سعود وبعث به وكثير من أمرائهم إلى مصر فوصل فى سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وصنعوا له موكباً حافلا يراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ، ولما دخل على محمد على باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه ، وقال له الباشا ماهذه المطاولة فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابنى إبراهيم باشا قال ماقصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ماقدره الله تعالى فقال له الباشا أنا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف إلى بيت اسماعيل باشا ببولاق ، وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال الباشا له . ماهذا ؟ فقال هذا ما أخذه أبى

Marfat.com

من الحجرة أصحبه معى إلى السلطان ، فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤون أحسن منها ومعها ثلاثمائة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب ، فقال له الباشا الذى أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا فقال هذا الذى وجدته عند أبى فإنه لم يستأصل كل ما كان فى الحجرة لنفسه بل أخذه العرب وأهل المدينة وأغاوات الحرم وشريف مكة فقال الباشا صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة ورجع إبراهيم باشا من الحجاز إلى مصر فى شهر المحرم من سنة ٣٥ بعد أن أخرب الدرعية خراباً كليا حتى تركوا سكناها ولما وصل عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة فى شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضاً فى نواح متفرقة هذا حاصل ما كان فى قصة الوهابى بغاية الاختصار ولو بسط الكلام فى كل قضية لطال ، وكانت فتنتهم من المصائب التى أصيب بها أهل الإسلام فإنهم سفكوا كثيراً من الدماء وانتهبوا كثيراً من الأموال وعم ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة إلا بالله . وكثير من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فيها التصريح بهذه الفتنة كقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج أناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق » وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها فى صحيح البخارى وبعضها فى غيره لا حاجة لنا إلى الإطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرجها لأنها صحيحة مشهورة ففى قوله سيماهم التحليق تصريح بهذه الطائفة لأنهم كانوا يأمرون كل من اتبعهم أن يحلق رأسه ولم يكن هذا الوصف لأحد من طوائف الخوارج وللمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء ، وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتى زبيد يقول لا حاجة إلى التأليف فى الرد على الوهابية بل يكفى فى الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم سيماهم التحليق فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم واتفق مرة أن امرأة أقامت الحجة على ابن الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت ، أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث أنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغى لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لأن شعر رأس المرأة

Marfat.com

زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم مع أن أحاديث شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لأهل الكبائر من أمته وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ذكرها كثير من أوصافه الكاملة ويقولون أن ذلك شرك ويمنعون من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم على المنابر بعد الأذان حتى أن رجلا صالحاً كان أعمى ، وكان مؤذنا وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعد أن كان المغرب منهم ، فأتوا به إلى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والأوراق وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر ، فلما تمكن محمد على باشا من المماليك المصرية احتال عليهم وقتلهم سنة ست وعشرون ومائتين بعد الألف وكانوا هم وعساكرهم وأتباعهم كثيرون وما زالوا يعارضون محمد على باشا فى كثير من شؤونه وهو يداهنهم ويتحذر منهم فلما جاء الأمر السلطانى بتوجهه إلى الحجاز لمحاربة الوهابى طلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا صارى عسكر على العساكر التى يريد أن يرسلها إلى الحجاز فجاءه فرمان سلطانى بذلك فجعل ذلك وسيلة إلى جمع الصناجق وعساكرهم فى القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم بالألاى الحافل مع ابنه المذكور إلى العرض الخارج للحجاز المنتصب خارج مصر عند قبة العرب فنبه على العساكر الصناجق فى الحضور إلى القلعة فى الثالث من شهر صفر فى الساعة الرابعة من النهار ورتب فى القلعة عساكر خاصة بهم وجعلهم فى الأبراج والمكامن التى فى القلعة وأمر البواب للقلعة أنهم إذا استكمل دخولهم يغلق الباب ، وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم فى القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى إلى غروب الشمس فقتل منهم خلقاً كثيراً ثم تتبع الباقين منهم فى مصر وبقية

Marfat.com

الأرياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم وذلك شيء كثير وعدد وفير والقصة طويلة لكن هذا حاصلها وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد أن قتلهم وكانت ولايته مصر سنة ٢٠ واستمر فيها إلى سنة ١٢٦٤ وكان فى الأصل من العساكر الذين جاؤا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ١٦ وأصله من بلاد قوله وجنسه من الأرناؤوط. فلما كان محاربة يوسف باشا الفرنسيس قاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة فى تلك الحروب، ثم ترق فى مدة قصيرة إلى رتبة قائم مقام إلى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة ١٢١٩ ولما خرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزيراً لمصر والياً عليها الوزير محمد خسروا باشا واستمر إلى المحرم سنة ١٨ فوقع بينه وبين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامقهم واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر واتفق على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر إلى أن يأتى الأمر من الدولة بتولية غيره فألبسه القاضى فرواً سموراً وكان الرئيس الثائر فى تلك الفتنة محمد على باشا ثم بعد ٢٦ يوما ثاروا على طاهر باشا فقتلوه وكان قد حضر من دار السلطنة إلى مصر أحمد باشا والياً على المدينة المنورة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد على وقال أن أحمد باشا لم يكن والياً على مصر وإنما هو وال على المدينة المنورة وإنما ولينا قبله طاهر باشا لكونه كان محافظاً للديار المصرية من الدولة العلية فله شبهة فى التولية، وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر وتجهزه بالعساكر ويتوجه إلى محل ولايته ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر إلى أن أخرجوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته بمصر يوما وليلة ثم نادى مناد بتسكين الناس وتأمينهم وأن الأمر يكون لإبراهيم بك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد على وقبضوا على الدفتردار وقطعوا رأسه ، ثم قامت العساكر على إبراهيم بك لطلب جوامقهم وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل إبراهيم بك ونهبوا داره فهرب فقوى أمر محمد على وصار الحل والعقد بيده ثم جاءت الأخبار من دار السلطنة بولاية مصر لأحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية ووصل مصر فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة ، وبعد وصوله طلب من الناس أموالا جزيلة تكون معجلة عما

Marfat.com

يلزم الناس من خراج مصر ، فاشتد الأمر على الناس وارتفعت الأسعار وأغلقت الدكاكين والأسواق واجتمع الأطفال بالجامع الأزهر وصعدوا إلى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يالطيف فسمعهم الباشا وهو فى القلعة ، فأرسل إلى نقيب الأشراف إنا قد رفعنا عن الناس ما كنا طلبناه وأما إبراهيم بك ومن معه من الأمراء الذين أخرجوهم من مصر فإنهم جمعوا جموعا من الأرياف وجاؤا لقتال الباشا ومن معه بمصر فخرج إليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الأمر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ثم جاء أمر من الدولة لمحمد على بولاية جده فألبسه الباشا فروا ولما خرج يريد الركوب ثارت على محمد على العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم ها هو الباشا عندكم وركب هو إلى داره وصار ينثر الذهب على الناس فى الطريق وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب إلى بعد المغرب، ثم لاطفهم وركب وأشيع بين الناس أنهم حبسوه وهو قد ذهب إلى القلعة ثم أشيع أنه يريد وضع فردة على الناس فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضى وصاروا يصرخون بقولهم شر الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ومنهم من يقول يامتعجلى اهلك العثملى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل ومنهم من يقول لا نريد هذا الباشا حاكما علينا لابد من عزله وذهبوا إلى بيت محمد على يقولون ذلك فقال لهم ومن تريدون أن يكون والياً عليكم فقالوا لا نرضى إلا بك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضى فأحضروا له كركا وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى فألبساه ونادوا بذلك فى البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف ونادوا فى مصر بولايته وأرسلوا الخبر إلى أحمد باشا فقال إنى متول من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطان فكتب الناس سؤالا وكتب عليه المفتى وحكموا بعزله وصحة تولية محمد على باشا وحضروا فى بيت القاضى فحكم بمقتضى ذلك واستمر أحمد باشا فى القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه فى القلعة أياماً إلى أن أخرجوه منها وحصل بينه وبين العلماء كلام كثير وقال لهم كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي

Marfat.com

الأمرُ مِنكمُ ﴾ فقالوا أولى الأمر هم العلماء وجرت العادة من القديم أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى السلطان إذا جار عليهم يخلعونه والقصة طويلة جداً يطول الكلام بذكرها وطال الأمر بينهم إلى أن جاء الأمر السلطانى بولاية محمد على باشا وإقرار ما فعله العلماء وأهل مصر فى شهر ربيع الثانى فتم الأمر لمحمد على باشا حتى كان من أمره ما كان وأكثر ما تقدم ذكره من القيام على الباشوات الذين تولوا مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد على باشا وترتيبه ولم يزل فى ترق وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محمود وملك عكا والشام فلما توفى السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الأقطار المصرية مؤيدة له ولأولاده ، وجعلوا عليه خراجا معلوم يدفعه كل سنة واستمر إلى سنة أربع وستين فأصابه مرض اختل به عقله فولى ابنه إبراهيم باشا فى حياة أبيه فكانت مدة ولاية محمد على باشا نحو خمس وأربعين سنة واستمر ابنه إبراهيم باشا نحو سنة ثم توفى فولى عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد على باشا واستمر إلى سنة سبعين فتوفى مقتولا ثم ولى سعيد باشا ابن محمد على باشا وتوفى سنة تسع وسبعين ثم ولى إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا وخلع سنة ست وتسعين وولى ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن ، وإنما ذكرنا هذا كله استطراداً تتميما للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض .

ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر

كانت مصر قبل أن تتملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضاً من الجراكسة ومن غيرهم من الترك ، فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقية وفى كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة وكان منهم أمراء ورؤساء فصارت لهم عصبية قوية فتغلبوا على الأملاك والأراضى والأطيان والمحصولات والخراجات والجمارك ، وكانوا إذا جاء الباشا المتولى على مصر من الدولة العلية ينقادون فى الظاهر وفى الباطن هم متغلبون ، فكانوا يبقونه إذا أرادوا ويعزلونه إذا أرادوا ولا يصل إلى الدولة العلية من محصولات مصر إلا القليل والباقى بأيديهم ، وكان لهم رؤساء وعليهم أمير كبير تحت أمر الوزير المتولى من السلطنة صورة وظاهراً

Marfat.com

فقط ، فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود فيتعدون كثيراً عليهم لاسيما على تجارهم فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى فطمع الفرنسيس فى تملك مصر وإبعاد هؤلاء المماليك المتغلبين وأوهموا على المسلمين أنهم يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها الدولة العلية فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتى ذكره وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وكان الوزير المتولى على مصر من السلطنة العلية فى تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسى كانت ولايته من سنة إحدى عشرة ومائتين وألف وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما ابراهيم بك ومراد بك كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر ، فلما شاعت الأخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتولى من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره وتوجه إلى غزة ، ثم منها إلى دار السلطنة وتوجه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة وبقيت مصر بيد إبراهيم بيك ومراد بيك وصناجقهما والأمراء والعساكر التى تحت أيديهما وكان أهل مصر عند خروج أبى بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون إشاعات عن مسير الفرنسيس إلى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها ، فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الاسكندرية ولم يكن أهل الاسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم لاسيما وقد جاءوهم بغتة فقاتلوهم قليلا ثم طلبوا الأمان منهم فأمنوهم ودخلوا الاسكندرية وملكوها ، فلما جاء الخبر إلى مصر أخذ إبراهيم بيك ومراد بيك فى الاستعداد لهم وأبرزوا جيشاً من العسكر إلى موضع يقال له الجسر الأسود وأخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطربت الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر القلق ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه وبعد ذلك كلام

Marfat.com

كثير من جملته أنى أعبدالله واحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة أهل الإسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الإسلام وكل ذلك من الكلام الذى كانوا يوهمون به على أهل الإسلام أنهم موحدون لله تعالى وأنهم يحبون أهل الإسلام ويحبون سلطانهم وأنهم إنما جاؤا لنصرة سلطان الإسلام وإبعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية ومن جملة مافى ذلك الكتاب خطاباً للمسلمين وماجئتكم لإزالة دينكم وإنما قدمت إليكم لأخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك الذين يتسلطون فى البلاد المصرية ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بأنواع الإيذاء والتعدى ويأخذون أموالهم ويفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها مثله فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم وإنى أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله تعالى وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية إلتزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيديرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتاجر المتكاثرة وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ومع ذلك فالفرنساويون فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى

Marfat.com

وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل ، ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر وأن جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وأحمر وأن كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار وأن كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب صناجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاءه والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وتكون الصلاة تامة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكرون الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية وعلى المشايخ فى كل بلد أن يختموا حالا على جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى للمماليك وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيع أدنى شىء منها . وفى التاسع والعشرين من محرم قدموا إلى مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند الرحمانية وهزموا إلى الجيزة واتقوا عند بشتيل وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله أن المسلمين هزموا ففر مراد بيك ومن معه إلى الصعيد وفر إبراهيم بيك ومن معه فى البر الشرقى إلى الشام وقيل لم يقع قتال كثير وإنما هى مناوشة من طلائع العسكر بحيث لم يقتل إلى القليل من الفريقين وكانت مراكب فى البحر لمراد بيك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية واحترق مافيها من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بيك دخله الرعب وولى منهزما وترك الأثقال والمدافع التى فى البر وتبعته العساكر ، وركب إبراهيم بيك إلى ساحل

Marfat.com

بولاق طرف البر الشرقى ورجع الناس منهزمين طالبين مصر فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون فى هذا الحادث العظيم ، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بيك وكشافته ومماليكه وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء ويوم الاثنين حضر مراد بيك إلى بر انبابه وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وكان معه فى ذلك على باشا الطرابلسى ونصوح باشا وأحضروا للراكب الكبار والغلايين التى أنشاها بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البر الغربى والشرقى مملوءين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة ، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من وصول الخبر الأول لهم من الاسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لايعرفها أحد واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف ، وأخذوا أيضاً فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأسباب الارتحال ، فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولوا المقدرة للهرب ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقى بمصر منهم أحد وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خراب أو مسجد ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم مايحتاجون إليه من الدراهم التى جمعوها ويجعلون قيما عليهم يباشر ذلك وبعض الناس يتطوع على بعض فى الانفاق ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا مافى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وأرباب الأشائر بالطبول والزمور والأعلام والكاسات ولم يضجون ويصيحون

Marfat.com

بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة ، فأخرج بيرقا كبيراً سمته العامة بيرق النبي صلى الله عليه وسلم فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك ، وأما مصر فإنها صارت خالية الطرق لا تجد بها سوى النساء في البيوت وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحركة وغلا سعر البارود والرصاص جداً بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين نصفاً ، وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام ، ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حين أن نصب إبراهيم بيك العرضى هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الذين لا يجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواحي شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والقناوية وغيرهم وفى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحي ، وقامت الأرياف على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً ، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد التي لا تحصى وطلب أمراء مصر تجار الإفرنج الذين بمصر وحبسوهم في القلعة وفى بعض أماكن غير القلعة من بيوت الأمراء وساروا يفتشون في محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأروام والأقباط والكنائس على الأسلحة والعامة لا يرضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم

Marfat.com

الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت هـذه الفتنة ، ثم فى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يجيئون منها فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى ومنهم من يقول أنهم واصلون من الشرق ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لأحد من الأمراء همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم إلى فناء مصر بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع عساكره ومكث فى مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو ، ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتكبون فى رؤيتهم مغمورين فى غفلتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع ذلك فلم يأتوا إلا من البر الغربى ولما كان وقت القيلولة ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا إلى ناحية بشتيل بلدة مجاورة لانبابة فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول ففرهم الفرنسيس ببنادقهم المتابعة الرمى وأبلى الفريقان وقتل أيوب بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكهم وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف ، وكان رئيسهم الكبير بونابارت لكنه لم يشهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط وطلعوا إلى انبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس ، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العام والغوغاء من الرعية واختلاط الناس بالصياح ورفعوا الأصوات بقولهم يارب يالطيف ويا رجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم فكان العقلاء من النام

Marfat.com

يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم أن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لابرفع الصوت والصراخ والنياح فلا يستمعون ولايرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى ومعهم إبراهيم بيك الوالى وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين هذا وريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية المدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ، ثم أن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بيك انقسم على تراتيب معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمدافع ترمى واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلثى ساعة ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربى فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لإحاطة المدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيراً فى يد الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد بيك ومن معه إلى الجيزة فصمد إلى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض بير إنبابه تحت الأرض وألقى كثير نفسه فى البحر ولما انهزم العسكر الغربى حول الفرنسيس والمدافع والبنادق على البر الشرق وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب فى الحال إبراهيم بيك والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى لم يأخذوا منها شيئاً فأما إبراهيم بيك والأمراء فساروا إلى جهة العادلية وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا وهم جميعاً فى غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم

Marfat.com

يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله تعالى مَن شر هذا اليوم العصيب والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب فلما استقر إبراهيم بيك بالملداية أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء فأركبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال والبعض ماش كالجوارى والخدم واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتلا للقضاء متوقعاً للمكروه وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور والذى أزعج قلوب الناس بالأكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون وينهبون بالنساء وكان السبب فى هذه الإشاعة أن بعض عسكر مراد بيك الذين كانوا فى الغليون لما سمعوا انبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بإبحار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى الجهة القبلية فمشوا به قليلا فوقف فى الطين لقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضاً فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة و بولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون وأى طريق يذهبون وأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات

Marfat.com

وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها وأخذ كل إنسان ماقدر على حمله من مال ومتاع فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون ، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه مايستر به عورته أو يسد جوعته فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر بحيث أن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف مابقى فيها بلاشك لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأهل المقدرة أخرجوا أيضاً ماعندهم والذى أقعده العجز ، وكان عنده مايعجز عليه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان فمنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا فى الخروج وبلغهم ماحصل للسابقين ومنهم من جاز متكلا على كثرته وغزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين قال الشاهد فما راء كمن سمعا ، ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لايدرون مايفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقى وأن الحريق كان فى المركب المتقدم ذكرها فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك وأرسلوه صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه وأفهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش فى وجوههم فقالا نريد أمانا منكم فقال قد أرسلناه لكم سابقا يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم فقالا

Marfat.com

أيضاً نريد أمانا لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها أننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ماحضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين فى مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك من الكلام ، ثم قال لهم لابد أن المشايخ والشريجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم ، وقال لهم أنتم المشايخ الكبار فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأى شىء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس . وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم ، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر شيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية ، وأما عمر أفندى نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر ، وكذلك الروزنامجى والأفندية وفى ذلك اليوم اجتمعت الجمدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك وأحرقوهما ونهبوا أيضاً عدة من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوا بأبخس الأثمان .

ذكر دخول الفرنسيس مصر

وفى يوم الثلاث عدت الفرنساوية إلى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بيك الألفى بالأزبكية الذى أنشاه الأمير المذكور فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس ، وكذلك حصل فى بيت حسن

Marfat.com

كاشف بالناصرية ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل بالمدينة إلا القليل منهم ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا يضاحكون الناس ويشترون مايحتاجون إليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا فرنسى ويأخذ البيضة بنصف فضة قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة والحوانيت والقهاوى واطمأن الناس .

ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات

وفى يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام سر عسكر ، فلما حضروا تشاور معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الخصومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخذا والقاضى ، وقلدوا محمد أغا السلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشمراوى والى الشرط وحسن أغا أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفهم أن سوقة مصر لايخافون إلا من الأتراك ولايحكمهم سواهم وهؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لايتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذو الفقار كتخدا بيك كتخدا بونابارته وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت فقالوا هذا فعل الجمدية وأوباش الناس فقالوا لأى شىء يفعلون ذلك وقد آوصينا كم بحفظ البيوت والختم عليها فقالوا هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك وظيفة الحكام ، ثم أمروا بالنداء بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب فلم يسمعوا ولم ينتهوا واستمر غالب الأسواق

Marfat.com

والدكاكين معطلة والناس غير مطمئنين وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلوقة التى للأمراء ودخلوها وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة فعند ما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعيدية يستأصلون ما فيها ، ثم إن عسكرهم صارت تدخل المدينة شيئاً شيئاً حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا فى البيوت ولم يشوشوا على الناس ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وبعد أيام طلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار ، فأخذوا فى تحصيلها بعد مراجعتها فى تخفيفها فلم يفعلوا ، ونادوا بالأمان لنساء الأمراء ، وأمروا كل من عندها شىء من متاع زوجها تأتى به ، وصالحت زوجة مراد بيك عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء بمائة وعشرين ألف ريال ، واستخرجوا من الخبايا شيئاً كثيراً ثم طلبوا من أهل الحرف والأسواق مبلغاً من المال يعجزون عنه فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم ، ولما جاء وقت مولد النبى صلى الله عليه وسلم أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم إعانة على ذلك ثلاثمائة ريال وصنعوا شنكا ليلة المولد وجاءت مراكب الانكليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا له مركبا كبيراً واستمر أياما ثم ذهبوا ، وأما إبراهيم بيك ومراد بيك فذهبوا إلى غزة ثم رجعوا إلى جهة الفيوم وفى شهر ربيع الثانى طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ووضعوا عليها قدراً معلوما من الدراهم وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتابا مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم وأنهم من المحبين للسلطان وأنهم محترمون للقرآن والإسلام ففعلوا ، وفى عاشر جمادى الأولى جمعوا الناس وقرروا على الأملاك أموالا زيادة عما كان قبل ذلك وهاج عامة الناس ونادوا الجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ثم صار النداء بالأمان ثم تقبموا كثيراً ممن كان قائما فى تلك الفتنة ، فقتلوهم وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب فى نظامات دولتهم فهو طويل لاحاجة لذكره وكذا ما كان يجرى من الحوادث ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر إلى الحجاز قام شيخ عالم مغربى بمكة يقال محمد الجيلانى واستنفر الناس للجهاد فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا إلى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم فقاتلوا حتى قتل أكثرهم

Marfat.com

ورجع القليل منهم ، ثم جهز الفرنسيس جيشا لمحاربة أحمد باشا الجزار فى عكا فملكو كثيراً من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا فى عكا ثم عجزوا عن أخذها فارتحلوا عنها وأجروا عمل ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد أحمد البدوى وغيره على حسب المعتاد وكذا إخراج المحمل والحج وحصل بينهم وبين أهل الأرياف محاربات كثيرة حتى ملكوهم كلهم وصاروا يتبعون الأمراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به وحضرت مراكب إلى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب فسمحوا عن عبورها وحصل بينه وبينهم مكاتبات ومهادات بهدايا عندهم ووضعوا الشيخ العريشى قاضياً للمسلمين يحكم بالشرع وتوجه بونابرته إلى بلاد الفرنسيس سنة أربعة عشرة وجعل سارى عسكرهم نائبا عنه بمصر ، ثم ترقى بونابرته حتى صار ملكا على كافة الفرنسيس ، وفى شهر رجب من سنة ١٤ جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه واليا على مصر وهو الذى يقال له أيضا ناصف باشا وساروا من جهة الشام حتى وصلوا إلى العريش فاستعد الفرنسيس بقتالهم وخرج بجنوده إلى الصالحية ثم توسط الانكليز فى الصلح على شروط كثيرة منها أن الفرنسيس يتنحى عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر ففى تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم ويقول بعضهم لبعض سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك عليهم وكشف هيج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الأمور حتى أن فقهاء الأطفال كانوا يجمعون الأطفال ويمشون فرقا وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الزمان ولم يملكوا لأنفسهم صبراً حتى تنقضى الأيام المشروطة على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التى تأسست فى قلوب الفرنسيس وأخذ الفرنساوية فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا غالب القصور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس، ثم أن العثمانيين تدرجوا فى دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم

Marfat.com

جماعة بعد جماعة ووصل الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والتقى بالأمراء المصريين . وأخلى الفرنساوية إلى قلعة الجبل وباقى من العلماء القلاع التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين ، وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير فى مدينة بلبيس فى رمضان فقابلوه وقابلوا والى مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعاً وانصرفوا ، ثم فى شهر شوال وقعت حادثة كانت سببا للنقض وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوى ، فثار من ذلك فتنة ، ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطلب نفوس الفرنسيس ، ثم أن الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها ، فأعطوهم مهلة الثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلا بأطراف مصر ممتداً إلى شبر وترددوا إلى القلاع لم يكن بها أحد ، وشرعوا باجتهاد فى رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع، واجتهدوا فى ذلك ليلا ونهاراً والناس يتعجبون من ذلك وأشيع أن الوزير اتفق مع الانكليز على الاحاطة بالفرنساويين إذا صاروا بظاهر البحر وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا جهة العرضى تفرسوا فى عرض العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم ، فلما حصل ماذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع ، فلما تموا أمر ذلك وأحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه من عساكرهم خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق منهم بالمدينة إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفى وبعض بيوت الأزبكية وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل . فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال ركب صارى عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه إلى عرضى الوزير ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلعوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين إلى جهة العرضى بعد أن نهبوا ما فى عرضى ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع التى

Marfat.com

لنصوح باشا وناصف باشا وتركوها وصاروا إلى جهة العرضى ، فلما قاربوه أرسلوا للوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسمه إلا الارتحال والفرنساوية فى أثره وعساكره متفرقون ومنتشرون فى البلاد والقرى والنواحى لجمع المال وظلم الفقراء وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجوا ورمحو إلى أطراف البلد وخرج نقيب الأشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم للنبابيت والعصى والقليل معه السلاح ونحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ثم خرج الكثير منهم إلى خارج البلد بتلك الصورة فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضاً حقيقة الحال ، ثم لم يزل الحال كذلك إلى العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وخلفهم إبراهيم بيك ثم بقية الأمراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الأشراف وصار نصوح باشا يقول للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم وساروا إلى حارات النصارى يقتلون ويأسرون وينهبون فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ما قدروا عليه من الفرنساوية والأروام ، فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى ترمى من طاقات البيوت على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت وينهبون عليها فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها وأمر الباشا بجر المدافع إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفى وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضاً بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر ، وفى هذا اليوم وضع أهل مصر

Marfat.com

والعسكر متاريس بالأطراف كلها وشرعوا فى بناء جهات السور واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة وبات الناس فى هذه الليلة خلف المتاريس ، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع وولوا الضرب فأجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج وغصت الطرق بالازدحام عند الخروج وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال وركب الناس بعضهم بعضاً ، ووقع للناس فى هـذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف ما لا يوصف وأناس من أهل خان الخليلى جاؤا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وأغلقوا باب القصر وبات فى تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت وأزقة الحارات ، فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لاقوة له على الحرب وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالأزبكية ثم فرقوا الناس فى أطراف البلد والمتاريس للاحتراس وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى ذهب به إلى كتخدا وأخذ البقشيش فيحبس البعض ويقتل البعض وأحضروا الحدادين لإنشاء مدافع وجعلوا معملا البارود والقلل وغير ذلك من المهمات واهتموا لذلك اهتماماً زائداً وأنفقوا أموالا جمة ، وأما الفرنساوية فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الألفى وما والاه وأما الوزير فإنه لما ارتحل بالعرضى ووصل إلى الصالحية تكلموا معه فى الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ثم ساروا إلى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين ساروا خلف الوزير إلى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم فقويت بهم نفوسهم ووقف جملة منهم بباب القصر ومنعوا الداخل والخارج وذلك كله

Marfat.com

بعد مضى ثمانية أيام من ابتداء الحركة وقطعوا الجالب إلى البلد وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم فعظم الكرب وأكثروا من الرمى بالمدافع على البيوت من القلاع وعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار وفى كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس واستمر الحال إلى عشرة أيام فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية لابد من خروج العثمانيه من مصر ونعطيهم مايحتاجون من المؤونة حتى يصلوا إلى جماعتهم وخرج إليهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى وغيرهم وتموا الصلح على ذلك فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الانكشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول فأرسلوا للفرنسيس أن الباشا والعساكر والناس لم يرضوا بالصلح ، ثم جاء مطر شديد وتوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والأوحال فاغتنم الفرصة الفرنسيس ، وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ، وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ماوية معمولة بالنفط ملوية على أعناقها مشربة بمقطرات تشعل وتقوى لهبها وتابعوا رمى المدافع والبنبات من القلاع وصاروا يهجمون وأمامهم المدافع وخلفهم بواردية يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلبهون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا والمسلمون بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة وزلزلوا زلزالا شديداً وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان والنار تأخذهم من كل جهة والأمطار متوالية بالليل والنهار ومثل ذلك كان فى بولاق بل زيادة عن ذلك لأنهم فى آخر الأمر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم ، والحاصل أن هذه الفتنة قد شاهد الناس فيها من الهول مايشيب منه النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية

Marfat.com

والدور والقصور وهرب كثير من الناس عند ماأيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية ، ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخاوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ومالا تسعه السطور ولايحيط به كتاب ولا منشور وكان جماعة من المسلمين فى هذه الفتنة يداهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أمانا وهم مع المسلمين فأطلع المسلمون عليهم فآذوهم وعذبوهم بأنواع العذاب وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكرى بموالاة الفرنسيس وأنه يرسل إليهم الأطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر وبعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له إهانة بالغة ،وسمع من العامة كلاما مؤلماً وشتما فلما مثلوه بين يدى الكتخدا أهاله ذلك واغتم غماً شديداً ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة وكان جماعة من الأمراء والرؤساء يذهبون ويجيئون من الفرنسيس إلى المسلمين ومن المسلمين إليهم يسعون فى الصلح بين الفريقين واستمر الحال إلى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتمنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين ، ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مهلة ثلاثة أيام،ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالا وغير ذلك وخرج أيضاً إبراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم الرؤساء منهم نقيب الأشراف والمحروقى رئيس التجار سنه ١٢١٥ وأما مراد بيك فكان بالصعيد وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الأيام الهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الأمور مالا يحيط به إلا الله تعالى ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها فى أوائل ذى الحجة سنة ١٥ وأمنوا الناس واستولوا على ماكان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ فى عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس فلما جلسوا أبرز لهم ورقة مكتوب فيها النصرة لله الذى

Marfat.com

يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس وبناء على ذلك يريد سر عسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين فى الحروب ويأمرهم أن يشتغلون بمعاشهم وصنائعهم ثم نبه عليهم بالحضور إلى قبة النصر بكرة تاريخه ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالأطمئنان والأمان فلما كان الغد ذهبوا إلى قبة النصر وصنع لهم سماطا عظيما ضيافة وزينت البلاد ثلاثة أيام ، ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الأزبكية ، فلما وصلوا جلسوا حصة طويلة فى الديوان الخارج ثم أدخلوا وجلسوا حصة فخرج إليهم سر عسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسى فى وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه السر عسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سر عسكر وملخص ذلك القول أن سر عسكر يقول إننا لما حضرنا إلى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم أنكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم لديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعى القول مقبولى الشفاعة وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا ، فقالوا له نحن ماقمنا مع العثملى إلا عن أمركم لأنكم عرفتمونا أنكم ونحن فى حكم العثملى وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين وماشعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا فى وسطهم فلم يمكن التخلف عنهم فقال لهم لأى شىء لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم ومحاربتهم فقال لايمكننا ذلك خصوصا وقد وثقوا علينا بغيرنا وسمعتم مافعلوه معنا من ضربنا وإهانتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح فقال لهم وإذا كنتم لاتمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رياستكم وأى شىء يكون نفعكم وحينئذ لايأتينا منكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبى الحريم والأولاد

Marfat.com

كما فعلنا بأهل بولاق ولكن حيث أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة روى بثلاث عشرة خزنة مصرى منها خمسمائة ألف فرانسة على مائتين على شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا وعلى الشيخ الجوسرى خمسون ألفاً وعلى أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً وعلى الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفاً وعلى الشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفاً جعلوا ذلك عليه وعلى الفارين مع العثملى مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والمحروقى وما بقى من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ ، وقام من كرسيه من فوره ودخل مع أصحابه وأغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وامتقعت وجوههم ونظروا إلى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكرى والمهدى لكون البكرى حصل له ما حصل فى صحائفهم والمهدى كان يداهنه وحرق بيته بمرأى منهم ولم يكن فيه إلا الحصر لأنه كان قد نقل ما فيه بداره التى فى الخرنفش ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل واحد منهم أنه لم يكن شيئا مذكوراً ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه وبعضهم شر شر ببوله من شباك المكان وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون فى عرضهم فالذى كان معهم ولم يكن معدود من الرؤساء أخرجوه فخرجوا مسرعين حتى أن بعضهم ترك مداسه وخرج حافياً وما صدق بخلاص نفسه هذا والنصارى والمهدى يتشاورون فى تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوها على أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى القراداتية جعلوا على كل طائفة مبلغاً له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسة وأربعين ألفاً وجعلوا على أجر الأملاك والعقار أجرة سنة كاملة ثم استأذنوا للشايخ الخالص منهم الذى ليس عليه شئ يتوجه حيث أرادوا المشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدى المطلوب منه وأما الصاوى

Marfat.com

وفتوح والجوهرى فحبسوهم ببيت قائم مقام ، والعثمانى هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات وانفض المجلس على ذلك وركب صارى عسكر من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ووكل يعقوب القبطى يفعل بالمسلمين ما يشاء ونزل شيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وأركبوه وجلسوا على باب داره ، فلما كان حصته من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه فى مكان ، ثم تشفع له أناس وكفلوه لينزل إلى داره ويحصل له المطلوب منه فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال وقاموا ما وجدوه من المصاغ والفراوى والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال فكان الجميع إحدى وعشرين ألف ريال ، ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الأرض والحبايا حتى فتحوا الكنيف فلم يجدوا شيئاً ثم نقلوه إلى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند أغاة الانكشارية ثم أن المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والأمير والمهدى وغيرهم تشفعوا فى نقل الزوجة إلى بيت الفيومى ثم وقعت للراجعة والشفاعة فى غرامة الشيخ فتوح والصاوى فجعلوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقى على الفردة العامة وأما الجوهرى فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره ، ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطى ، وأعطوه عسكراً لتحصيلها ، ودهى الناس بهذه المنازلة التى لا يصابون بمثلها ، وفرغت الدراهم من عند الناس ، وباعوا أمتعتهم وجميع ما عندهم ، ولم يجدوا من يشترى الأثاث والفرش والملبوس بأبخس الأثمان ودفعوا لهم أيضاً جميع ما يملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والأمير والفيومى وابن محرم وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب وفى كل وقت يشتد الطلب والتلبث للعينون والعسكر فى طلب الناس ، وهجم الدور ، وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلهم وحبسهم وضربهم والذى لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه ، وأهل حرفته ، ونالوا من الناس أغراضهم ، وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة

Marfat.com

الإسلام وأيام الموحدين هذا والكتبة والمهندسون والبناؤون يطوفون ويحررون أجرة الأملاك والعقارات والوكائل والحمامات ، ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرج كثير من الناس من المدينة وأجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف واستمرت الحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والمصائب عميقة والأمر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة إلى بالله العلى العظيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ واستمر شيخ السادات محبوسا إلى غاية شهر صفر من سنة خمسة عشر فأفرجوا عنه ونزل إلى بيته بعد أن غلق الذى عليه واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس، وأن لا يركب بدون إذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه ويقلل أتباعه ، وفى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيل بوجوده وكان من المذنبين واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ونزل بالمسلمين الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد والأقباط والشوام والأروام حتى صاروا يأمرونهم بالقيام لهم عند مرورهم ثم شددوا فى ذلك حتى كانوا إذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة وضربوه واستمر عدة أيام فى الحبس ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان وأما الأموال المطلوبة فأخذوها وما بقى شىء للناس إلا واستولوا عليه وما بقى جعلوه على الأطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان وتفصيل ذلك كله طويل ولم يزل الناس معهم فى شدة وكرب إلى أن قضى الله ما قدره وأذن بخروجهم وإنقضاء دولتهم .

Marfat.com

ذكر خروج الفرنسيس من مصر

فى أواخر شوال سنة خمسة عشر برز الأمر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز إلى مصر براً وبحراً أما العساكر التى من البر فهى بمعية يوسف باشا وأما البحر فتعهدت به الإنكليز ، ثم فى أوائل ذى القعدة ورد جماعة من الإنكليز بمراكب إلى ثغر الأسكندرية وطلع جماعة منهم إلى البر وتحاربوا مع أمير الأسكندرية ومن معه من الفرنسيس ، ثم فى أول ذى القعدة جاءت الأخبار إلى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا إلى العريش فجمعوا المشايخ والأعيان بمصر وقالوا لهم إنه يحب المسلمين ويميل إليهم بالطبع وخصوصا العلماء أهل الفضائل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم إلا الخير ولكن سياسة الأحكام تقتضى بعض الأمور المخالفة للمزاج والآن بلغنا أن يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوانين الحرب عندنا بل وعندكم ولا يكون عندكم تكدير ولا هم بسبب ذلك فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم إلى القلعة وفى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وكان هؤلاء الأربعة من أهل الديوان المرتب فى مصر لفصل القضايا وكان معهم فى الديوان الشيخ الأمير والبكرى والشربينى فأبقوهم فى الديوان على حالهم السابق ثم وقع حرب أيضا بالأسكندرية فى البر بين الإنكليز والفرنسيس فى الرابع عشر من ذى القعدة وكانت الهزيمة على الفرنسيس وقتل منهم كثير وانحازوا إلى داخل الأسكندرية وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الإنكليز فوجدوها فى غاية الوضع والإتقان ، ثم وقع قتال أخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفا ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم فأطلق الإنكليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الأسكندرية وصارت جميعاً لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمى إلى البرية وتترس الإنكليز قبالهم من جهة الباب الغربى ووقع فى مصر فى هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير منهم مراد بيك مات فى الصعيد رابع ذى الحجة من السنة المذكورة

Marfat.com

وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه أمارة الصعيد وهو من مماليك محمد بيك أبى الذهب ومحمد بيك مملوك على بيك وعلى بيك مملوك إبراهيم بيك كتخدا إشترى مراد بيك سنة ١١٨٢ ثم عتقه وترقى عنده وأكرمه وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ولما انفرد سيده محمد بيك بإمارة مصر كان مراد بيك وإبراهيم بيك أكبر الأمراء المشار إليهما دون غيرهما واتسعت لهما الأموال والأملاك والضياع ، ثم لما مات محمد بيك سنة ١١٨٢ صارت الرئاسة فى ملك مصر لهما ولكن كان إبراهيم بيك مقدما وكان مراد بيك منمكفاعلى اللذات والملاهى وكان لكل منهما مماليك وهم الصناجق والأمراء وكانت وفاة إبراهيم بيك بدنقلة سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف .

ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس

فى خامس المحرم من سنة ست عشرة ومائتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إلى القلعة بمصر وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابر والبنب ونقلوا الأسوار والبيوت من الفرش والأمتعة والأسرة إلى القلعة ولم يبقوا بالقلاع الصغار الأمهات الحرب وطلبوا الريانين وألزموهم بمائتى قنطار زيت وسمروا جملة من حوانيتهم لتحصيل ذلك واجتهدوا فى وضع متاريس خارج البلد وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونه للعمل وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب بيحر انبابه لتمنع المراكب من العبور ، وهدموا جانبا من الجيزة من الجهة البحرية ، وبلغهم أن عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربى قريب ووصلت ترعة الفرعونية وأن العساكر الشرقية وصلت إلى بنها وأن طائفة من الإنكليز فى جهة الأسكندرية وأن الحرب قائم بها وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الأسكندرية ويحاربهم الإنكليز ومن معه من العثمانيين من الخارج وأن جماعة من الإنكليز قعدوا فى الأماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ إليها وقطعوا عليهم الطرق من كل ناحية وأطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه إلا الجسر المقطوع حتى سالت المياه وردغت الأراضى المحيطة بالأسكندرية وخرج عن طاعة الفرنسيس الأمراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التى

Marfat.com

ارسلوها لهم بعد مراد بيك وحضرت لهم الأخبار المتواترة بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون وجاءتهم الأخبار أيضاً بأنهم تملكوا رشيد ودمياط ، وفى العشرين من المحرم يوم الإثنين جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل دجوة فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام فقال لهم أن الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس وأن تنصحوا أهل البلد والرعية أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلون فى الشر والشغب فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد الواجب على الوالد نصيح ولده وتأديبه على الطريق المستقيم ، حتى يكون فيه الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا عل الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساهم وتيتمت أولادهم وألزموا بالأموال والفردة التى لا طاقة لهم بها فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ولا تكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير فأجابوا بالسمع والطاعة وقرأ عليهم ورقة بمعنى ذلك وأمروا بالمنادة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأمروا أن يجتمع بالديوان فى الغد الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فكان كذلك وفى غاية شهر محرم جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل إلى الشلقان وكذلك عساكر الإنكليز فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وأركزوه فى أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فإنهم لا يخرج من أيديهم شىء أبداً وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن والعثمانلى مغتربهم فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثمانلى فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم ضيقة ولو كان بينه وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لا نمحى أثرهم وانمحى ذكرهم من مكان مديد وتأملوا فى شأنهم

Marfat.com

وأى شىء خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا والفرنسيس عند قدومهم وصلوا فى ثمانية عشر يوما ، فلو كان فيهم همة شجاعة لو صلوا مثل وصولنا وكلام كثير من هذا النمط . وفى ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين وانتصبوا إلى العادلية فى الجهة الشرقية وإلى انبابة فى الجهة الغربية وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ثم عقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية فتجهزوا وخرجوا آمنين فى أواخر صفر ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وكانت مدة حبسهم فى القلعة نحو مائة يوم وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبى قير ودخل الوزير يوسف باشا مصر فى التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل وكانت مدة تملك الفرنسيس لمصر ثلاث سنين وشهراً . قال الشيخ الشرقاوى فى تاريخه وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاثوليكية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثه الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقولون أن الله واحد ولكن يقولون بالتعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ويضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمد وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم هى قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فإنهم جعلوا من جملة ذلك ديوانا فيه جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم وعجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون أن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وأنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن وإنهم يحبون العدل ولم يأتو

Marfat.com

إلا لطرد المماليك الظالمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شىء لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت وقتل منهم ما يقرب عن الألف وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بجيوشهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لاتدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ونشروا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة وكان خروجهم بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الأرض مولانا السلطان سليم خان لازال محفوفاً برعاية الحنان المنان وبتدبير وزيره الأعظم وكان مكث بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية فى مصر سبعة أشهر ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ثم توجه إلى بلاد الفرنسيس وجعل له نائباً منهم بمصر ولما وصل بونابرته إلى الفرنسيس ويقال له نابليون استعانوا به فى إصلاح خلل كان حاصلا ثم ساق جيوشاً لمحاربة إيطاليا والنيمسا وانتصر عليهم، وفى سنة ١٢١٩ أقاموه إمبراطوراً على فرنسا كافة وشن الغارات على دول أوروبا وحارب الروسية والنيمسا والانكليز والبروسية وقائعه طويلة أفردت بالتأليف ثم تجمعت جميع ملوك أوروبا واتفقوا على حرب فرنسا فأصاب فرنسا من ذلك شدائد عظيمة وسئموا من كثرة الحرب فاتفقوا على خلع بونابرته ودعوا الوزير الثامن عشر ليملكوه عليهم فلما علم ذلك بونابرته استعفى وذلك سنة ١٢٣٠ فملكوا الوزير الثامن عشر وأعطوا بونابرته جزيرة الألب ليملك عليها ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد إلى انكلترا فنهضت الدول لمحاربة بونابرته وإعادة الوزير إلى ملك فرنسا وجرت أمور يطول ذكرها وآخر الأمر تنازل عن الملك إلى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوأ الملك أحد من سلالته فذهب بونابرته إلى رشفورت

Marfat.com

وطلب من حكومة الانكليز أن تقبله ضيفاً فى بلاده فأجابته أولا إلى ذلك فركب إلى أحد الموانى الانكليزية ، وقبل أن ينزل إلى البر أرسلت إليه الحكومة الانكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ثم شيعوه إلى جزيرة هيلانة فبقى أسيراً إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وعمره أربعة وخمسون سنة ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كان فى بقية زمن السلطان سليم .

ذكر خلع السلطان سليم

سبب ذلك أن السلطان سليم كان يرغب أن يلاشى وجاق الانكشارية ويقيم مكانه عسكراً جديداً على الطريقة الافرنكية لأن الانكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم ، وكان قد نظم فى العام الماضى بعض الفرق من النظام الجديد ، فهاج الانكشارية من ذلك وأثاروا فى القسطنطينية شغبا عظيما يطول الكلام بذكره ، واعتصبوا عصبة واحدة وكان موافقاً لهم على منع النظام الجديد عطاء الله افندى شيخ الإسلام وقائممقام صدر أعظم فقوى أمرهم به وقال لهم أنه لايجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار ، وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار ، فقويت هذه الحجة فى صدورهم ، وقالوا سيروا بنا لنلاشى النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة ، وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الانكشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها إليهم المفتى عطاء الله افندى فأخذوا يتلونها ويسمون الأشخاص الذين يريدون قتلهم ، ثم ساروا يفتشون على أولئك الأشخاص فوجدوا بعضاً منهم فقتلوهم واختفى كثير من أولئك الأشخاص فى بيوت النصارى واليهود وقتلوا خلقاً كثيراً وأحضروا ١٧ رأساً من أعظم رجال الدولة وظل الدم جاريا فى القسطنطينية ٣ أيام ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد

Marfat.com

وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لهم ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التى مضمونها أن السلطان الذى يخالف القران الشريف هل يترك على تخت السلطنة ؟ الجواب كلا : ثم قال القارىء قد صار معلوما عندكم أنه تحتم عزل السلطان فما قولكم الآن هل تسلمون له أن يفعل مايخل بالإسلام فصرخت العساكر كلا ثم كلا لانقبله سلطاناعلينا فليعزل وصرحوا باسم السلطان عبد الحميد وقالوا ليعيش السلطان مصطفى، وأرسلوا المفتى للسلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة ، فدخل عليه متذللا منخفض الرأس قائلا يامولانا إنى قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان ، وليس خافيا على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الانكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم فالآن لاسبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شيء ، فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقبل كلام المفتى ونزل عن السلطنة وكان ذلك فى ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٢٢ فمدة سلطنة السلطان سليم ثمانى عشرة سنة وثمانية أشهر وإذا كان ذاهبا يختلى فى مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادما ليجلس مكانه على تخت السلطنة فقال له يا أخى اهبطنى الله من العرش العتيد لأن تجلس عليه أنت لأننى أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا تعاليمهم وتركوا قوانينهم ، فهاجت على العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون منى التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك وها أنا ماض بكل رضا أعيش منفرداً وأما أنت فإنك سعيد أكثر منى فأرغب إليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى فلم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يمكنه من معانقته فلما وصل السلطان سليم إلى المكان الذى يريدون وضعه فيه وجد السلطان محمود أخا السلطان مصطفى ماكنا فى ذلك الموضع عليه آثار الرقة والنباهة وعند ما شاهد السلطان سليم الثقاه قبل يده ذارفا دموعا غزيرة فحرك السلطان

Marfat.com

سليم إلى البكاء وجلسا فى ذلك الموضع وطالما كانا يتحدثان دائما بالأمور المشيدة أركان الدولة والدين هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود .

ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد

وأما السلطان مصطفى فإنه بوصوله إلى إمام أولئك العساكر فرحوا به فرحا عظيما وأجلسوه على تخت السلطنة وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء حصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب فى قلوب الجميع ، ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودى فى المنابر بإسمه وتقدم المفتى شيخ الإسلام قائمقام موسى باشا إلى الجميع التى كانت مجتمعة فى فسحة آت ميدان وأخبروهم أن السلطان مصطفى قد وعد بإبطال ما كان مهتماً به السلطان سليم من موضع النظام الحديد وبإرجاع العوائد القديمة ، فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الأحكام بيد القائمقام كوسج موسى باشا وإلى المفتى شيخ الإسلام عطاء الله أفندى ، ولما بلغت هذه الأخبار الصدر الأعظم حلبى مصطفى باشا وكان رئيس الجيوش التى خرجت لقتال الروسية كما تقدم حزن لذلك وغضب غضبا شديداً هو ومن معه من العساكر وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار فعقدوا صلحاً مع الروسية ورجعوا بالعساكر ليتداركوا هذا الأمر وأرسلوا للعساكر الانكشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم أنهم قادمون لنجدتهم وإتمام رغبتهم ليطمئنوا بذلك، ومادخلوا القسطنطينية إلا بعد مشاق وأراد البيرقدار مصطفى باشا إرجاع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى وطلب من الصدر الأعظم المساعدة على ذلك فأنكر عليه ذلك مبينا سوء عواقب الأمور فغضب البيرقدار غضبا شديداً وأمر بحبسه وبلغ الخبر السلطان مصطفى فأرسل أناسا يقتلون السلطان سليم فدخلوا عليه وهو يصلى صلاة العصر فلم يمهلوه إلى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه إلى الأرض فنهض حالا عليهم كالأسد وصرعهم وكان قوياً جداً ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ورجعوا به إلى السلطان مصطفى

Marfat.com

مسرعين وطرحوه ميتا أمامه وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعمر السلطان سليم ثمان وأربعون سنة ، ثم أرسل أناسا وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لإنقاذ السلطان سليم فوجدوه قدمات فاهتموا بأمر السلطان محمود وقال لهم البيرقدار عليكم بنجاة السلطان محمود لأنه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقى من سلالة آل عثمان ، فأخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود لأن السلطان محمود لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا فلما نظرته جماعة البيرقدار وضعوا له سلماً فنزل إلى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر إليه البيرقدار فرح فرحاً عظيما وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبل قدميه .

ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد

ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جنداً قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه فلما ، تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدراً أعظم وسلمه زمام الأحكام فأخذ يجتهد فى أخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليما ثم شرع فى تنظيم العسكر الجديد وأرسل وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة ، فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وإنفاذ أوامر السلطان طالباً رأيهم فى ذلك فصادقوه مذعنين لأمر السلطان وتعهدوا بالمساعدة فى كل ما يؤول لنجاح المملكة وفى الحال أخذ الصدر الأعظم فى موضع ترتيبات جديدة أوجبت اللام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهاراً ويدعونه بالكافر وعلقوا أوراقاً فى الأسواق وعلى باب داره مكتوبا فيها قد قرب موت الصدر الأعظم وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد فأخذوهم بغتة ونشتتوهم وأحاطوا بمنزله وطرحوا فيه النار ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها

Marfat.com

وانقسم الناس فريقين فريقاً يريد التعليم الجديد وفريقاً يكرهه وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثيرة وأحرقت دور كثيرة وحاصروا الصدر الأعظم فى الدار التى كان فيها وأطلق عليهم الرصاص وقتل كثيراً منهم ، ثم ثار عليه صناديق بارود وكانت فى داره فمات بسبب ذلك وكان قد أخرج جواريه ونسائه من الدار قبل ذلك فأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا ، وكان ذلك فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعزل شيخ الإسلام عطاء الله أفندى وأحيلت المشيخة إلى عرب زاده محمد عارف أفندى ، وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتاباً لعساكر الانكشارية يحرضهم على الغيرة وإرجاعه إلى السلطنة فوقع ذلك الكتاب فى يد بعض العلماء فذهب إلى شيخ الإسلام فجمع كثيراً من العلماء وأخذوا يتحدثون فى عواقب هذه الأمور ويتشاورون فى إطفاء هذه الفتنة وأرادوا أنه إذا بقى السلطان مصطفى فى قيد الحياة لا تنطفئ الفتنة فاختاروا رجلا من بينهم يقال له منيب أفندى كان قاضى اسلامبول ليعرض على السلطان محمود رأى العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى فسار منيب أفندى إلى السلطان محمود وعرض عليه ذلك فأجابه السلطان محمود أن هذا أمر محال وكيف يتصور أن يصدر أمرى بقتل أخى مع كونى قادراً على منعه من هذه الأعمال ، وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة فى ذلك وقال له منيب أفندى فى غضون تلك المحاورة قد جاء فى الحديث الشريف إذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما فشق ذلك على السلطان محمود وحول وجهه إلى شباك هناك ولم يجبه بشىء لشدة أسفه على أخيه فقال منيب أفندى أن السكوت إقرار ، ففى الحال أرسل منيب أفندى إلى كبير البستانجية وقال أن مولانا السلطان قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره فذهب البستانجى باشا ومعه جماعة من أعوانه إلى الموضع الذى كان فيه السلطان مصطفى فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف مقصدهم فاختبى بين فرش كانت هناك فدخلوا فلم يجدوه ورأوا أمام تلك الفرش خفية فقلبوا تلك الفرش إلى الأرض فوجدوا السلطان مصطفى تخبأ فيه ففتلوه خنقاً وكان العلماء الذين اجتمعوا عند شيخ الإسلام وأرسلوا منيب افندى للسلطان محمود ينتظرون رجوعه إليهم

Marfat.com

بالجواب فلما أبطأ عليهم ظنوا أن السلطان محمود لم يقبل ما رأوه فتوجهوا جميعا للسلطان محمود تقوية لمنيب أفندى وتصديقا له فدخلوا على السلطان محمود يلتمسون منه تمام ما عرضه عليه منيب أفندى فاتفق أنهم حين دخولهم قبل أن يبتدئوا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك فرأى إخراج جثة أخيه ميتاً فتألم من ذلك جداً ، والتفت إليهم وعيناه ممتلئتان بالدموع وقال لهم اسرعوا واهتموا بتكثير الجيوش وإحضار المهمات وإرسال العساكر لأنى أنا اليوم بحزن عظيم على موت أخى فحينئذ علم العلماء موت السلطان مصطفى فتوقفوا عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر ويعزونه ويسلونه على فقد أخيه ، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران وعمره ثلاثون سنة ولما استقرت السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة فى غاية الارتباك والاضطراب فمن ذلك أن عساكر الروسية كانت تتقدم إلى جهة تطونة مسرعة فبعث السلطان جيشاً عظيما لمصادمتهم فلم يقدر أن يوقف سيرهم فطلبت دولة فرانسا أن تتوسط فى الصلح ، فرفض السلطان محمود مداخلتها لأنه أثر جداً من الشروط السرية التى عقدها نابليون ملك فرانسا مع اسكندر ملك الروسية فى نيليست التى من شأنها اقتسام دول أوروبا فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية واستمر فى مقاومة الروسية ومحاربتهم ولكن كانت الغلبة لهم فاستولوا على مدينة شملة وقلعة إسماعيل وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية أشد مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة وإذا بطالع سعيد بزغ فى أفقها وذلك أن نابليون الأول ملك فرانسا أشهر الحرب على الروسية سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين ، وسار إليها بجيوشه الجرارة فألزم ذلك الروسية أن تخرج جيوشها من حدود الدولة العلية وعقدت صلحاً مع الباب العالى موافقاً جداً للدولة العثمانية فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات فى ولايتى بغداد وأيدين وغيرهما فإنه فى سنة ألف ومائتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والى بغداد العصيان فأرسل إليه السلطان محمود من قتله .

Marfat.com

ذكر حرب المورة

فى سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين تحرك اليونان فى المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن فى جميع الأطراف فشق ذلك على الدولة العلية وأرسلت العساكر لردعهم وإدخالهم فى الطاعة فشبت الحرب بينهما وقامت على ساق وقدم وبعث الباب العالى إلى محمد على باشا والى ولاية مصر بأمره أن يرسل جيشاً لمحاربتهم فأرسل ولده إبراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة بحرية ، ولما وصل إلى المورة انضم بجيشه إلى جيش الدولة العثمانية ودارت نيران الحرب ولما أيس الأروام من النجاة ونوال الاستقلال استنجدوا بالدول الأوروبية فبادرت دولتا فرانسا وانكلترا إلى التوسط فى الأمر والسعى بالصلح فلم يجب السلطان محمود سؤالهما فانضمت إليهما العمارة الروسية وبعثوا إلى إبراهيم باشا أن يوقف الحرب فأجاب أنه لايقدر على ذلك إلا بأمر من السلطان فعند ذلك أطلقوا النار على عمارتى الدولة ومحمد على باشا فأحرقوهما وكان ذلك سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين، ولما بلغ الخبر السلطان محمود اضطر إلى إجابة سؤال الدول المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة فيها إبطال الحرب واستقلال الأروام .

ذكر قتل العساكر الإنكشارية

وفى سنة إحدى وأربعين أيضا شرع السلطان محمود فى تعليم بعض العساكر التعليم الجديد وشرع فى تدبير الأمر فى تدمير الإنكشارية وإبطال وجاقهم فأبرز أمراً سلطانيا يتضمن القدح فى وجاق الانكشارية وبيان الخلل الواقع منهم وتقلبهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين وأمر سليم باشا الصدر الاعظم أن يجمع العلماء فى بيت شيخ الإسلام ويتلو عليهم الأمر الشاهانى ففعل ذلك فأجابوا بالامتثال بما يصدر به الامر السلطانى وتعهدوا بإنفاذه وكان مع الحاضرين جماعة يميلون إلى الإنكشارية فتعصبوا لهم سراً وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق فهجموا على بيت الصدر الأعظم وبعض العظماء من رجال

Marfat.com

الدولة وأخذوا ينادون فى شوارع اسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدوله وكل من كان السبب فى وضع النظام الجديد ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت ويطرحون فيها النار ففر الصدر الأعظم منهم وجاء إلى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث فأمره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الإسلام أمام باب السرايا فاجتمع فى ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان إليهم ، فلما خرج إليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم ، فأقسموا جميعهم على أنهم يريقون دمائهم فى صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه إخراج الصنجق الشريف النبوى ليهجموا على العصاة. فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا إليه أن لا يتنازل إلى ذلك وأرسلوا ينادون فى شوارع المدينة ويدعون أهل الإسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف ، فلما علم بعض الإنكشارية بذلك أرسلوا أناساً من جماعتهم ينادون لاجتماع الإنكشارية ، فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الإسلام وأسرعوا إلى فسحة السرايا أفواجا أفواجا ففرقوا عليهم السلاح وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الإسلام قاضى زاده طاهر أفندى ، وعاد إلى كرسيه الملوكى ، وكان يشرف على الجميع أمام السرايا ، وسار سليم باشا الصدر الأعظم أمام تلك الجموع التى كانت أكثر من خمسين ألفاً وشنوا الغارة على الإنكشارية صارخين الله أكبر على الأشقياء وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص ، وكان يوما مهولا عظيما ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا إلى قشلهم وتحصنوا فيها فهجم عليهم العساكر والأهالى ، وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقى ولوا الأدبار ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم فى فسحة آت ميدان ، وبعد ذلك دعا السلطان إليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم العصاة الانكشارية طالباً ثمن دم السلاطين ، فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس ، فصدرت الأوامر بتدمير الانكشارية فى الاستانة العلية وفى جميع الجهات فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم ، وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون إليهم ، ويساعدونهم ويفعلون فى

Marfat.com

تكياتهم أفعالا شنيعة محرمة ، وبدعا مسترذلة ، فأمر السلطان بقتل أكثرهم ، وهدم تكياتهم ، وأخذت الدولة فى تكثير العساكر النظامية والجد فى تعليمهم وأبطلت وجاق الانكشارية وفى أثناء تلك المدة غير السلطان محمود لبسه ونزع العمامة والجبة ، وتزيا بزى العسكر الجديد على هيئة الأوروباويين وبالطربوش الصغير ولم يبال بأقوال المعترضين .

ذكر القتال مع الروسية

فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة وسار جيش إلى جهة الأناضول فأرسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الأعظم سليم باشا فوقع بين الفريقين حرب شديد وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة ، واستولوا على جملة أماكن وتقدمت عساكرهم إلى شوملة وأقاموا الحصار على سليسترة واستولوا على مدينة وارنة ، فعزل السلطان الصدر الأعظم سليم باشا، وأمر بنفيه وأقيم فى الصدارة محمد عزت باشا وسارت بعض عساكر الدولة إلى جبل البلقان فتركت الروسية محاصرة شوملة ،وكانوا قد استولوا على سليسترة وكانت عساكر الروسية التى فى الأناضول تتقدم ، فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم واستأسروا صالح باشا وجاء جيش الروسية فيه مائة وستون ألف مقاتل وحاصروا أدرنة حصاراً شديداً إلى أن استولوا عليها ، ولما اشتد الأمر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الأمور اضطراباً كثيراً إلا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان فى وسط تلك الأخطار المحدقة به وبدولته ، ثم تداخلت دول أوروبا فى الصلح وأتموه بشروط سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ومآل تلك الشروط استقلال الأروام وتنازل الدولة عن إقليم الصرب والأفلاق والبغدان للملوك من أهل تلك البلاد تحت نظارة ملك الروسية وعن بعض جزائر عند فم نهر الطونة وعن بعض أراض فى الأناصول مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين فرنك قال بعض مؤرخى الفرنج وربما استغرب القارىء كيف أن الدولة التى سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب فى قلوب

Marfat.com

جميعهم لم تستمر فى نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها إلى أن يرتضوا هذه الشروط فإذا نظرنا إلى هذا الأمر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل فى داخليتها بسبب أصحاب البغى والفساد وقلة الأموال ولم تتزعزع أركانها بل استمرت فى سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوة أو سبب آخر أن يثنيها وإذا ضممنا إلى هذه الأسباب الخلل الذى أوقعه وجاق الإنكشارية وعدم تمام انتظام الترتيب للعسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الأهوال لربما حق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا واستطاعت أن تناضل إلى هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التى تعرضت لها فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها انتهى كلامه ، وأقول إن هاهنا سراً إلهياً لتأييدها وهو سر بركة الإسلام وسر بركة النبى صلى الله عليه وسلم وسريان روحانيته لتأييد ملته وأهل دينه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر

وفى سنة خمس وأربعين وألف ومائتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدعين أن أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر فى تلك الجهات ويفتكون بهم ، فلما بلغ الباب العالى ذلك أرسل طاهر باشا قبودان إلى الجزائر يتباطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا وإلى الجزائر فلما وصل وأراد النزول إلى البر منعته الفرنساوية فعاد راجعاً إلى القسطنطينية ، والجزائر المذكورة كانت فى حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان ، فلما طالت المدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجاً للدولة ويكون تحت أمر الدولة ظاهراً ومتغلبين باطناً فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعليم الجديد امتنع والى الجزائر من تعاليم عساكرها ولم يمتثل أمر السلطان فى ذلك فقيل أن السلطان محمود هو الذى سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر إلى أن قبضوا على الباشا المتولى عليها وذهبوا به إلى بلادهم وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر ، فلما تملكها الفرنسيس لم ترجع تلك الجزائر

Marfat.com

لحكم الدولة بل استولى عليها وبقى على ذلك إلى عصرنا هذا .

ذكر القتال بين محمد على باشا والسلطان محمود

فى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وجه محمد على باشا والى مصر جيوشه براً وبحراً لتملك الشام وجعل قيادتها لولده إبراهيم باشا فحاصر عكا وافتتحها مظهراً الانتقام من عبد الله باشا والى عكا لأسباب كانت بينهما وفتح فى طريقه غزة ويافا وحيفا . فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد على باشا برجوع العساكر وإنه إذا كان بينهما دعوى يقدمان إلى الباب العالى فيحكم بينهما فلم يمتثل لأوامر الدولة فأبرزت الدولة فرمانا بعصيان محمد على باشا وتنزيله عن ولاية مصر وصدر الأمر السلطانى لوالى حلب بجمع العساكر لمحاربة إبراهيم باشا وخرج حسين باشا بعساكر من الآستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس فهزمهم إبراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية وقبض على عبدالله باشا والى عكا وأرسله إلى الأسكندرية لأبيه محمد على باشا ولما وصل إبراهيم باشا إلى دارايا قرب دمشق خرج إليه على باشا وزير دمشق واشتبك الحرب بينهما فهزمهم إبراهيم باشا وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمنهم ودخلها وتقدم إلى حمص واشتبك القتل بينه وبين والى حلب ، وكان يوما عظيما وحربا شديداً من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على المهمات جميعها وانهزم والى حلب ورجع إليها فقفلت فى وجوههم الأبواب فساروا إلى أنطاكية ولما وصل إبراهيم باشا إلى حلب خرج أهالى حلب لاستقباله فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ثم سار إلى أنطاكية وحاربهم فيها ثم إلى بوغاز بيلان ولما بلغ الباب العالى تقدم العساكر المصرية سيررشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربهم فتقدم إلى قونية والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الأعظم وأتى به إلى إبراهيم باشا فقابله بكل إكرام ثم خلى سبيله وامتدت هذه الفتنة والحروب إلى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف ، ثم صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا ليسير لمحاربة إبراهيم باشا فالتقى الجيشان بالقرب من مرعش واقتتلا ووقعت الهزيمة أولا على عساكر إبراهيم باشا

Marfat.com

وكان فى وادى عسر ، فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادى وصعد إلى تل كان تجاه معسكر حافظ باشا وأخذ يطلق عليهم المدافع فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ثم هجم عليهم بعساكره هجمة هائلة فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين إلى مرعش وقتل من الفريقين خلق كثير ، وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التى وقعت فى تلك الحروب وأعقبها إبراهيم باشا بفتح أكثر الجهات فى تلك البلاد ، ولم تصل أخبارها إلى القسطنطينية إلا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام ، ومن فتوحاته إخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم ، وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان فى مدة سلطنته لكن اتمام الأمر ما كان إلا فى زمن مولانا السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبدالحميد ، فذلك من فتوحاته ، ومن فتوحاته المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كل الاعتناء ، فإنه صدرت الإرادة الشاهانية من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية ، فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء ، والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بالفراغ بعوض حقير ، فصار الفقراء ليس لهم شىء ، فصدر الأمر الشاهانى بنقض ذلك وإبطاله وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين فحصل تحديد ذلك فى المدة التى كان فيها محمد على باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية وكتب الله ذلك صدقة جارية فى صحيفة مولانا السلطان محمود وصحيفة كل من كان له إعانة ، وتسبب فى ذلك ، ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته أنه كان فى مدة سلطنته بتجديد قبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة خديجة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة آمنة والدة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة سيدنا عبدالله بن عباس بالطائف فإن القبب المذكورة هدمها الوهابى وجددها مولانا السلطان محمود ، وهدم الوهابى أيضا قبباً كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الأولياء فجددها مولانا السلطان المذكور ، ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذى كان مرتباً لهم من أسلافه وذلك أنه فى سنة إحدى وخمسين بعد المائتين والألف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين وللقائمين بخدمة

Marfat.com

المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين ، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات ، واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت يحصل منها كمال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة ولم يكن ذلك موجوداً قبل ذلك ، ثم أن ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم إلى ذلك الترتيب مثله فى مدة سلطنته كما سيأتى ذكر ذلك عند ذكره وكانت مدة سلطنة السلطان محمود ٣٢ سنة وعمره خمس وخمسون سنة وكانت وفاته ١٩ ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائتين وألف .

ذكر ولاية السلطان عبد المجيد

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد على باشا وإخراجها من الشام وأعانه على ذلك دولة انكلترا وكانوا عرضوا على السلطان محمود الإعانة ، فأبى فلما توفى وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قبل أعانتهم فأعانوه وسير جيوشه إلى الشام فهزموا عساكر إبراهيم باشا وأخرجوهم من الأراضى الشامية وأرادوا التوجه إلى مصر والأسكندرية لإخراج محمد على باشا فتوسطت دولة انكلترا بالصلح إلى أن أتموه بشرط أن تكون الاسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد على باشا ولأولاده من بعده وضربوا عليه خراجا معلوما يدفعه فى كل سنة ويرجع إلى الدولة الشام والحجاز ، وتم الأمر على ذلك وكانت مدة تملكه الأقطار الشامية قريباً من مدة تسع سنين وفى مدة السلطان عبد المجيد قوى الإتحاد مع دولتى فرانسا وانكلترا فحسنوا له أحدث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية فصدر منه الفرمان السلطانى بذلك سنة خمس ومائتين وألف وهى سنة جلوسه على تخت السلطنة .

Marfat.com

ذكر الحرب مع الروسية

فى سنة تسع وستين ومائتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتى الروم واللاتين فى القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعى لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستيلاء مفاتيحها ، ثم أخذت هذه المسألة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم إلى أن آل الأمر إلى النزاع والجدال فى سنة ثمان وستين ومائتين وألف فوقع الباب العالى فى ارتباك وحيرة من جهة تسكينها وإخماد نارها لأن الروسية كانت تحامى عن حقوق الروم وفرانسا تحتشد لطرف اللاتين فتداخل سفير انكلترا فى صرف هذا المشكل ورسم ترتيباً لائتلاف الملتين المتخالفين فقبلته فرانسا ولم تقبله الروسية لأن مقصدها التوحيد ولم يكن مقتصراً على المحاماة عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها وهو إبعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبا والاستيلاء على أقاليمها وولايتها فانتهز أمبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لتوال بغيته وبلوغ أربه فبعث سفيراً إلى القسطنطينية لقابله السلطان عبد المجيد بعد أن كان بعث جيشا يبلغ مائة وأربعة وأربعين ألفاً إلى نهر الطونة ليكون مستعداً لوقت اللزوم والحاجة ، فلما وصل السفير المذكور إلى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأساً على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الأمبراطور نقولا فى المسألة المتعلقة بالأماكن المقدسة وأن جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تتكون تحت حمايته من الآن فصاعداً وأن بطرق الروم القسطنطينى وباقى أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطا به وأن الشكاوى والدعاوى التى تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها ، فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لأنها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للأصول وقوانين الدول ، فانثنى السفير راجعا من حيث أتى . وأعلم الأمبراطور نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضبا ، ثم أصدر أمراً إلى العساكر التى أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولى على تلك الأطراف فاجتازت النهر وشنت الغارات على

Marfat.com

إمارات الأفلاق والبغدان واستولت عليها ولما تحقق الباب العالى قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية فى تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لإشهار الحرب فجهز جيشاً وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجرى لردع الروسيين ولما تأكدت الدول الأوربية بغية الروسية ومقاصدها بادرت انكلترا والروسية والنيمسا إلى عقد جمعية للنظر فى إجراء الوفاق بين الدولتين وأرسلت كل دولة منهما معتمداً من طرفها إلى مدينة أتينا حيث وافاهم سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلساً فى سنة ألف ومائتين وسبعين لم يأت بالمرغوب فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالى الحرب وصدم سليم باشا العساكر الروسية فى الأناضول وانتصر عليهم فى عدة مواقع وهاجمهم عمر باشا فى الروم إيلى وانتصر عليهم أيضا ، وأما العمارة التى للروسية بالبحر الأسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها ، وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاثة مراكب حربية ثم أن انكلترا وفرانسا لما تيقنتا سوء نتائج هذه الحرب احتشدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية وفى سنة إحدى وسبعين ابتدأتا فى نقل رجالها ومهماتهما إلى ساحة الحرب واشتبكتا فى القتال وأما باقى دول أوربا فكانت محافظة على الحياد وكانت دولة انكلترا قد أرسلت عمارة بحرية إلى بحر بلتيك ، فاستولت على قلعة بومارستورد ثم على جزيرة الاندول لكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظراً لحصانتها وإذا كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية التى يعولون عليها فى البحر الأسود وجهت انكلترا وفرانسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقا من عساكرهما عددها ستون ألفا ، وكان أكثرها فرنساويين فنزلوا فى بوياسرايا وفيما كانوا يتقدمون إلى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية فاقتتل الفريقان قتالا شديداً إلى أن دارت الدائرة على الروسيين فانهزموا عند نهر الماء وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة وانتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى آخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواسطبول التى إليها وجهت الروسية كل قوتها من

Marfat.com

المهمات والعساكر والذخائر وصادم جيش من الانكليز جيشا للروسيين عدد بالا كلا فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير وكان جيش للروسية محاصراً فى أق كرمان وعددهم ستون ألفا فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والانكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ فى قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع أنهم كانوا يزيدون فى قوتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أو أن يمنعوا المساعدات التى كانت تأتيها من داخل البلاد ولقد قاست العساكر المتحدة لا سيما الانكليز فى شتاء سنة إحدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالا وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها فإن الأمراض والأوجاع قد أخذت فى العساكر كل مأخذ وأهلكت كثيراً منهم فضلا عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والأبخرة للنتنة التى كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات . أما إيطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت إلى الدول المتحدة فأرسلت خمس عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها انكلترا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الإعانة واشتهرت رجالها فى تلك المجامع بالشجاعة والثبات وفى خلال ذلك هلك الامبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وجلس ولده اسكندر الثانى مكانه ، وفى خلال ذلك وقعت واقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف وإذا يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول فى مساء ذلك النهار وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكها فانفتحت حينئذ مخابرات الصلح وعقدت جمعية فى باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة وهى انكلترا وفرانسا والعثمانية والنيمسا وبروسيا وسردانيا وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بنداً أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التى لباقى دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية ، وأنها تكون مستقلة فى ممالكها كغيرها من الدول وأن البحر

Marfat.com

الأسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أى جنس كان ماعدا الدولة العثمانية والروسية فإن لهما حقاً فى إدخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لأجل محافظة أساكلها وأن لايكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات بحرية حربية على شواطىء البحر الأسود إلى غير ذلك من الشروط ، ثم انسحبت العساكر إلى مواطنها وانتهت الحرب التى لم يكن لها داع سوى المطامع ، وفى سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالى مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر يمنع بيع الرقيق وانتهت فى رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب ابن غالب أميرمكة وتولية الشريف محمد بن عون والكلام عليها طويل . وفى سنة أربع وسبعين وقعت فتنة فى جدة بين أهالى جدة والنصارى الذين بهـا بسبب اختلاف بعض أهل المراكب فى وضع بندرة الإسلام أو الانكليز على بعض المراكب والكلام عليها أيضا طويل . وفى سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام والكلام عليها أيضا طويل ، وفى سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظمى بين الدروز والنصارى فى جبل لبنان آل الأمر إلى وقوع حرب بين الفريقين وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ففتكت بهم الدروز فأرسل الباب العالى فؤاد باشا ليمهد الأمور وينتقم من المذنبين، وأرسلت فرانسا عشرة آلاف جندى للمحافظة ومنع التعدى وكذلك باقى الدول الإفرنجية منها من أرسل مراكب حربية ومنهـا من أرسل نوابا لإصلاح الحال وتمهيد الأمور وأبعد جراء مايلزم إجراؤه استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لأهل هذا الجبل وأن تتحول أحكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالى الجبل ليكون متصرفا بها ويخابر الرؤساء الباب العالى فتوجهت المتصرفية لداود باشا الأرمنى ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فإنه كان على بناء السلطان قايت باى وكان مسقفا بالخشب فطالت مدته وحصل فيه خراب فصدرت إرادة مولانا السلطان عبد المجيد بهدمه وتجديده سنة ١٢٧٠ فهدم وجدد وجعل سقفه قببا وطواجن كالمسجد الحرام وتمم

Marfat.com

عمارته بعد مضى أربع سنين فجاء على صفة لم يرا الراؤن أحسن منها وله عمارات كثيرة فى الأماكن المأثورة بالحرمين الشريفين له تجديد ميزاب للكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين ألف ، وتوفى السلطان عبد المجيد فى سابع عشر ذى القعدة سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة ومدة سلطنته اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر .

ذكر ولاية السلطان عبد العزيز

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثانى ، وفى سنة ٧٨ أظهر العصيان أهل الجبل الأسود فسير السلطان عبد العزيز إليهم جيشا فقاتلهم وهزمهم ثم رجعوا إلى الطاعة ، وفى سنة ١٢٨٣ أظهر العصيان كثير من الأروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية فجهزت الدولة عليهم جيوشاً براً وبحراً وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة براً وبحراً فكانت مع عساكر الدولة ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد كان النصر فيها لعساكر الإسلام وأذاقوا العصاة الوبال وأرجعوهم إلى الطاعة . وفى سنة ٧٩ توجه السلطان عبد العزيز إلى الديار المصرية للتنزه والتفرج وكان ذلك فى ولاية إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا . وفى سنة أربع وثمانين توجه السلطان المذكور إلى باريس تخت ملك الفرنسيس للتنزه والتفرج أيضاً ثم منها توجه إلى بلاد الانكليز للتفرج والتنزه أيضاً وكان فى رحلته هذه مر على أدرنة وعلى قلعة بلغراد وكان الصرب قد طلبها منه وقيل النيمسا فأعطاها إياهم فحين عاين تحصينها غضب لذلك وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة فأعطاها قبل أن يراها فلما رآها ندم حيث لاينفع الندم . وفى سنة ٨٨ كانت فتنة عظمى ببلاد عسير فجهزت الدولة جيشاً تحت قيادة رديف باشا فسار حتى صمد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم وقتل أميرهم محمد ابن عائض بن مرعى وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيراً وأرسلهم إلى الأستانة وصارت بلاد عسير فى حكم الدولة العلية منضمة إلى ولاية صنعاء اليمن . وفى هذه السنة أيضا كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرانسا آل الأمر

Marfat.com

فيها إلى هزيمة الفرنسيس وأسر ملكهم نابليون الثانى والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف ، وفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فى السابع من شهر جمادى الأولى خلع السلطان عبد العزيز ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام وعمره ٤٨ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان مراد الخامس

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثانى ثم خلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام فى ثالث شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة ١٢٩٣ (والسبب) فى خلعه أنه وقع له خلل فى عقله وبعد أيام مضت بعد بيعته فلما تحققوا لخلل فى عقله استفتوا فيه شيخ الإسلام خير الله أفندى فأفتى بخلعه لأن شرط الخليفة أن يكون متصفاً بالعقل فخلعوه وبايعوا أخاه سلطان العصر مولانا السلطان عبد الحميد الثانى وبقى السلطان مراد المخلوع فى داره وأما السلطان عبد العزيز فإنه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الأسبوع توفى فأشيع أنه قتل نفسه بمقص قص به عرقا فى ذراعه فمات من ذلك. وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف نفى جماعة من الوزراء إلى الحجاز فحبسوهم فى قلعة الطائف منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد ونورى باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضا ومعهم جماعة آخرون غير هؤلاء منهم شيخ الإسلام خير الله أفندى وفى سنة ثلاثمائة توفى مدحت باشا ومحمود باشا الداماد فى القلعة المذكورة وكان خلع السلطان عبد العزيز سبباً لاضطراب كثير وحوادث شتى ، وكان القائم أكمل القيام فى خلعه حسن عونى باشا وكان السلطان عبد العزيز هو الذى رقاه وأعلى قدره إلى أن جعله رئيسا على العساكر كلها بل صار مقدما على جميع أهل الرتب والمناصب فرتب الأمور مع الوزراء وغيرهم وزعم أن السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة فما زال حسين عونى باشا وغيره يسعون فى ذلك حتى تم لهم خلعه فقدر الله أن رجلا يقال له حسن جركس قتل حسين عونى باشا وذلك أن السلطان عبد العزيز وكان متزوجا بأخته فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز فصمم على قتل حسين عونى

Marfat.com

باشا فدخل عليه فى دار الصدر الأعظم محمد رشدى باشا فوجدوه مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة فى بعض الأمور وكان مع حسن جركس زوج من الطبنج ذوات الأرواح المتعددة فضرب به ضرباً متعدداً وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عونى باشا الساعى فى خلع السلطان عبد العزيز ولم يتم لحسين عونى باشا شىء من مراده والله غالب على أمره ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه .

ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره

هو السلطان المعظم المفخم سلطان سلاطين العرب والعجم حائز العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة طيبة والحرم ، صاحب السيف والقلم ، ظل الله فى العالم غياث بنى آدم ، نعمة الله على العباد وفضله على الحاضر والباد ، ناصر الحق والدين ، ومؤيد شريعة سيد المرسلين ، المخوف بالسبع المثانى ، أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازى عبدالحميد الثانى ، أعز اللهم سرير الملك والخلافة بوجوده ، وأعد على القريب والبعيد آثار فضله وجوده وأنفذ فى جميع البلاد أوامره وأحكامه ، وأنشر على البرايا ألوية عدله وأعلامه ، وأيده بتأييدك واجعل سلالة تلك السلطنة العلية سلسلة إلى منتهى الدوران ، مستمرة على مرور الليالى والأيام باقية إلى آخر الزمان آمين يارب العالمين ، بوبع أطال الله عمره لما خلعوا أخاه السلطان مراد فى ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فكانت سلطنته زينة وبهجة وسروراً وامتد بها فى مشارق الأرض ومغاربها ما ملأها نوراً ، ومما كان من الحوادث فى أول ولايته أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين فى رعية الدولة العلية فى بلاد الروم ايلى وهم طائفة يقال لهم الهرسك فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشاً فقاتلوهم وكانوا قوما ضعافاً لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم إلى كلفة ولا إلى كثرة عساكر إلا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريباً منهم إلى أن صارت المحاربة بين الدولة والروسية وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرون وأنفقت الخزائن الوفيرة فقدر الله بانهزام جيوش

Marfat.com

الإسلام وأسر كثير منهم فى بلونة ، وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم فى ذلك البلد وعدم إمكان وصول الميرة إليهم لشدة البرد وكثرة الثلج وممن أسر من كبار عساكر الإسلام الوزير عثمان باشا الغازى قوماندا ذلك الجيش فى بلونة ، ثم أطلق مع كثير ممن أسروا وكان إطلاقهم بعد انعقاد الصلح وتملك الروسية كثيراً من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى قريب أدرنة والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف ، وختام الأمر أن بقية الدول توسطت فى الصلح بين الدولة العلية ودولة الروسية وانعقد الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ماتملكوه من البلاد وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب وكان شيئا كثيراً وتبقى للدولة أدرنة وما يليها إلى دار سلطنة الدولة العلية وكان هذا الخلل إنما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبدالعزيز فلا حول ولا قوة إلا بالله . وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف أعطت الدولة العلية جزيرة قبرس للانكليز على أن تكون بأيديهم سنين مؤقتة بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذى كان يحصل منها وقد تقدم فى هذا الكتاب تكرر وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مراراً كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضى الله عنه ، وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء ، ، وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف خلع والى مصر اسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا وقد كان محمد على باشا لما انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف جعلت له مصر ولأولاده من بعده ، فلما صارت ولايتها لاسماعيل باشا أراد حصر الولاية فى أولاده ومنع إخوانه وأولاد إخوانه منها فتوجه إلى دار السلطنة فى مدة السلطان عبد العزيز سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولأولاده الأكبر فالأكبر وكان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت فى دار السلطنة هو محمد رشدى باشا الشروانى ثم إن الله قضى وقدر أن عاقبة هذا الأمر الذى فعله اسماعيل باشا أول ما ظهر سوؤه عليه فإنه فى سنة ٩٦ ظهرت عليه كثرة ديون أخذها من الدول الأجنبية وأنفقها فى غير حقها فتشاور أهل الديون على أنهم يضبطون خراج مصر ومحصولاتها لأجل استيفاء ديونهم فلما أحس بذلك أراد أن يحمل

Marfat.com

له عصبية يمنعهم بها فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهوداً ومواثيق على أن الأمور كلها تكون بيد العلماء والأهالى وبمشاورتهم ، فلما أحس الإنكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا فى خلعه ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد فخلعوه فى سنة ست وتسعين وجعلوا ولاية مصر لولده الأكبر محمد توفيق باشا عملا بما تقرر قبل ذلك حين نفى إخوته وبنيهم من دخولهم فى الولاية من بعده وأن الولاية من بعده تكون لأكبر أولاده فأقاموا عليها ولده الأكبر وهو محمد توفيق باشا وتوجه والده اسماعيل باشا بعائلته وبقية أولاده إلى نابولى من بلاد إيطاليا وجعل له مرتب من محصولات مصر وخزينتها، وفى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف استولت دولة الفرنسيس على تونس وأعمالها بالمكر والخديعة والحيلة فجهزت دولة الفرنسيس عساكر كثيرة وأظهرت أنها تريد تأديب بعض قبائل العرب العصاة منهم قبيلة يقال لهم الخمير فى أعمال تونس فوصلوا بعساكرهم إليهم وقاتلوهم وقهروهم ثم زحفوا بعساكرهم إلى تونس ولم يستطع أحد أن يدفعهم إلى أن قاربوا دخولها فاضطرب أهلها اضطراباً كثيراً ، ثم عقدوا معهم صلحا وأدخلوا طائفة من عساكرهم تونس وأبقوا الوالى على ولايته بحسب الظاهر واستولوا الباطن على الأحكام والمحصولات والخراجات واستقبلوا الديون التى كانت على والى تونس وصارت الأمور كلها بأيديهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف كانت فتنة بمصر بين والى مصر محمد توفيق باشا وبين عرابى باشا وكان عرابى باشا من رؤساء عساكره محمد توفيق باشا ، واتسع الأمر فى ذلك فجاء الانكليز بعساكرهم البحرية بجدة لمحمد توفيق باشا إلى الإسكندرية وضربوا مدافعهم على الإسكندرية وقاتلوا الذين مع عرابى باشا ، وكان ذلك فى شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين واتسع الأمر بما يطول الكلام بذكره ، وكانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الانكليز وتملكوا الإسكندرية وذهبوا عرابى باشا ومن معه إلى مصر، ثم سارت الإنكليز بعساكرهم لقتاله بمصر والكلام على ذلك طويل،وفى آخر الأمر انهزم عزم عرابى باشا ومن معه ، ثم دخلوا مصر وقبضوا على عرابى باشا وعلى كثير ممن كانوا معه فقتلوا

Marfat.com

جماعة منهم ونفوا جماعة نفياً مؤقتاً وجماعة نفياً مؤبدا وصار العفو عن قتل عرابى باشا ونفوه مع بعض من كانوا معه إلى جزيرة سيلان من أعمال مليبار من بلاد الهند وجعلوا إقامته ومن معه هناك ورتبوا لهم مرتبا يكفيهم واستولى الإنكليز على القطر المصرى ، ووضعوا عساكرهم فى القلعة على صورة أنهم إنما فعلوا ذلك إعانة لمحمد توفيق باشا وأبقوه على ولايته ، والإنكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء على مصر وإنما مرادنا الإصلاحات والتأييد لمحمد توفيق باشا وإذا استقامت الأمور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها ونخرج عساكرنا ، وفى سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان اسمه محمد أحمد يقال أنه المهدى أو قائم طالب لإظهار الحق ولم يدع أنه المهدى ، ويقال أنه شريف حسنى وكان قبل ظهوره مشهوراً بالصلاح ومن مشايخ الطرائق ، قيل أنه على طريقة الشيخ السمان وأول ظهوره أنه لما كثرت أتباعه ومريدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتملكين للسودان عمالا لصاحب مصر محمد توفيق باشا ، ثم اتسع الأمر بينهم وبينه إلى القتال ، وقاتلهم مراراً وكانت الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها فلما دخل الإنكليز مصر صار الإنكليز هو الذى يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الإنكليز ومعهم عساكر مصر ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها والغلبة فى تلك الوقائع كلها له عليهم فتملك كردفان وكسلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصى عددهم وكان أمره معهم عجيباً يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التى لا يطيق أحد مقابلتها فقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين فيهجمون على تلك العساكر فى موضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقتلوا أكثر من قرب طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ومنهم جماعة فى برارى سواكن قد ولى محمد أحمد عليهم رجلا يسمى عثمان دقنة فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن وإخراج الإنكليز والعساكر المصرية منها فخرجوا إليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة فهزمهم عثمان دقنة ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة

Marfat.com

وقتل الكثير منهم حتى أنهم جاءوه فى سنة اثنتين وثلاثمائة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة وخرجوا لقتاله فى البرقريبا من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسلابهم وإلى هذا الوقت وهو شهر ذى الحجة من سنة ثنتين وثلاثمائة وعثمان ذقنة ومن معه من السودان فى نواحى سواكن محاصرون لها وفيها عساكر الإنكليز وصاحب مصر قيل أن جيوش محمد أحمد تبلغ ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، وأما دعوى أنه المهدى فمختلف فيها فمن الناس من يقول أنه يدعى أنه المهدى ومنهم من يقول لم يدع أنه المهدى بل يقول أنه قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة وإخراج الإنكليز من مصر والله أعلم بحقيقة الحال والأكثر من الناس يقولون أنه رجل صالح على غاية من الاستقامة ومنهم من يقدح فيه وينسب إليه خلاف ذلك ويقول أن جيوشه يقع منهم فساد كثير وليس لهم غرض إلا القتل والنهب وأنهم فى استيلائهم على كردفان والخرطوم وغيرها قتلوا خلقاً كثيرا من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والأطفال ، وقيل أن وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم ولم يرض بذلك محمد أحمد ولم يأمر به والله أعلم بحقيقة الحال وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم بأن انتصار آخر هذه الأمة فى آخر الزمان بالسودان فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم وانتصار المسلمين بهم فى آخر الزمان مأخوذ مما ذكره الخازن فى تفسيره عند تفسير قوله تعالى ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ من سورة الواقعة فإنه قال ما نصه ثلة من الأولين يعنى من المؤمنين الذين قبل هذه الأمة وثلة من الآخرين يعنى من مؤمنى هذه الأمة ويدل على ما رواه البغوى بإسناد الثعلبى عن عروة بن رويم قال لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى ثلة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال يارسول الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منها قليل فأنزل الله عز وجل ثلة من الأولين وقليل من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال له قد أنزل الله فيما قلت فقال عمر رضى الله عنه رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم إلينا

Marfat.com

ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله اه ومثل ذلك فى تفسير الخطيب الشربينى وفى التفسير المسمى بالدر المنثور للجلال السيوطى أن عروة بن رويم يروى هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم وأن الحديث المذكور أيضاً رواه ابن مردويه وابن عساكر لكن اللفظ الذى ذكره فى الدر المنثور قال فى آخره وأمتى ثلة ولن تستكمل ثلثنا حتى نستعين بسودان من رعايا الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له اه فيحتمل أن المراد من السودان أن هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان ذقنة ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه وكل ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم لابد من وقوعه وروى ابن مكرم الأفريقى فى كتاب له سماه لسان العرب حديثا لم يذكر من خرجه وقال فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب أصحابه محسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كفزع الخريف يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها اه فيمكن أنهم هؤلاء السودان القائمون مع محمد أحمد أو غيرهم وقد ذكر كثير من العلماء الذين ألفوا رسائل فى ظهور للمهدى وعلاماته أن من علامات ظهوره وخروج السودان منهم الجلال السيوطى والعلامة بن حجر والعلامة المتقى والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجى فى كتابه المسمى بالاشاعة فى أشراط الساعة ففى رسالة الجلال السيوطى المسماة بالعرف اوردى فى علامات المهدى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه إذا خرجت السودان طلبت العرب بنكشفون حتى يلحقوا ببطن الأردن أو ببطن الأرض فبينما هم كذلك إذ خرج السفيانى فى ٣٦٠ راكباً حتى يأتوا دمشق فلا يأتى عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفاً والأحاديث التى جاء فيها ذكر السفيانى كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل وهو يريد قتال المهدى عند ظهوره ثم يخسف بجيش السفيانى ويهلكه الله تعالى وفى رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر فى أخبار المهدى المنتظر أن من علامات ظهور المهدى ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب إلى مصر من أمارات خروج السفيانى وذلك إنما يكون عند ظهور المهدى وجهة السودان

Marfat.com

بالنسبة إلى مصر مغرب فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وكذا قوله خروج أهل المغرب إلى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لأنه يصدق على الجهة التى ظهروا منها أنهم من المغرب بالنسبة لمصر ويحتمل أن يكونوا غيرهم والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم ومن علامات ظهور المهدى الرايات السود التى تخرج من خراسان وجاء فيها أحاديث كثيرة قال فى الإشاعة يمكن أنها هى التى خرجت فى زمن المهدى العباسى بن المنصور ويحتمل أنها أيضاً تخرج عند ظهور المهدى المنتظر ، وفى شرح الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدى عبارات تفيد أن الدولة العلية العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها إلى ظهور المهدى وأنهم يكونون من أعوانه وأنصاره بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم وعساكرهم وآلاتهم وعددهم فيجب الدعاء للدولة العثمانية على كل مسلم والذى يقاتلهم يكون باغيا خارجا عليهم فالواجب على كل مسلم السعى فى تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها وإعانتهم فى إظهار الشريعة وإحياء السنن وإماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم ، ثم أن القائم بالسودان وهو المسمى محمد أحمد إما أن يكون باغيا خارجا على السلطان فيجب قتاله وإن لم يدع أنه المهدى ، ويمكن أن الله أقامه لإخراج الإنكليز من مصر إعانة للدولة العثمانية ولا يريد الخروج على السلطان وإنما يريد أن يكون من جملة رعايا الدولة العثمانية ثم يكون لإعانة المهدى ويؤيد ذلك ما ذكره الجلال السيوطى فى رسالته التى ألفها فى علامات المهدى فإنه ذكر فيها حديثاً ، أخرجه نعيم بن حماد عن أبى قبيل قال يكون أمير بأفريقية اثنتى عشر سنة ويكون بعده فتنة فيملك رجل يملؤها عدلا ثم يسير إلى المهدى فيؤدى إليه الطاعة ويقاتل عنه فيمكن أنه هو هذا الرجل المسمى محمد أحمد ويمكن أنه غيره والله أعلم بأسرار غيبه ، وقيل أن الذين يشيعون أنه هو المهدى إنما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس فى أتباعه والدخول فى طاعته ، وأما هو فإنه لم يدع أنه المهدى بل قال بعض من اجتمع به أنه سمع منه بلا واسطة أنه يقول إنى لست أنا المهدى المنتظر وإنما أنا قائم

Marfat.com

لإظهار الحق وإقامة الشريعة وأما إن ثبت أنه يدعى أنه هو المهدى المنتظر فالأمر مشكل لأن المهدى المنتظر لا يدعى أنه المهدى ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها ولا يبايع إلا وهو مكروه بل لا يبايع الناس حتى يتهددوه بالقتل وذلك أن الله يطلع بعض من اختصه من صالحى عباده عليه وعلى علاماته فيدلون الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم مراراً ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة ويتهددونه بالقتل ولا يكون ظهوره والبيعة له إلا والناس بلا خليفة أخذاً من حديث يحصل اختلاف عند موت خليفة وهو أصح حديث روى فى هذا الباب وأما الآن فالناس لله الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد وبيعته فى أعناق المسلمين وسلسلة سلطنته من أحسن الدول الإسلامية مقيمين للشريعة السنية محبين للصحابة وأهل البيت ناصرين أهل السنة المحمدية قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز خلع بيعته ولا الخروج عن طاعته ثبت الله دولته وأيد سلطنته فمن خلع بيعته أو ترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد وأيضا من علامات المهدى المنتظر أن يكون من ولد فاطمة رضى الله عنها وأن يكون ظهوره والبيعة له بمكة بين الركنين ولا يصح أن يكون ظهوره والبيعة له بغير مكة قال الجلال السيوطى فى آخر العرف الوردى فى علامات المهدى وأما قول القرطبى أن ظهور المهدى يكون من المغرب هو باطل وقد تابع السيوطى ذلك العلامة العلقمى والعلامة الصبان فى رسالته التى ألفها فى علامات المهدى فكل منهما قال كما قال السيوطى إن قول القرطبى أن ظهور المهدى يكون بالمغرب باطل وقال بعضهم يمكن حمل كلام القرطبى على غير المهدى المنتظر فإن كثيراً ممن ادعى كل منهم أنه المهدى كان ظهورهم بالمغرب كمحمد بن تومرت وعبيد الله العبيدى جد ملوك أفريقية ومصر وخلق كثير غير هذين أدعى كل منهم أنه المهدى بالمغرب وغيره وذلك لأن المهديين متعددون والمهدى المنتظر واحد وهو يكون الذى من ولد فاطمة يكون ظهوره بمكة والناس بلا خليفة ويبايع مكرها ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل لتحصيلها ويكون فى زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به ، ومما يدل على أن المهديين متعددون والمهدى

Marfat.com

المنتظر واحد ما ذكره العلامة ابن حجر فى الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة حيث قال حاكيا لقول من قال أن المهدى من ولد العباس وهو والد هارون الرشيد واسمه محمد المهدى ابن عبد الله المنصور بناء على الأحاديث المذكورة فيها أن المهدى من ولد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال إنه من أحسن خلفاء بنى العباس وهو فيهم كعمر ابن عبدالعزيز فى بنى أمية ثم قال ابن حجر موجها لقول هذا القائل ويمكن أنه مهدى من ولد العباس وهو غير المهدى المنتظر فإن المهدى المنتظر من ولد فاطمة رضى الله عنها ويكون فى زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به فهذه العبارة صريحة فى تعدد المهديين وجمع بعضهم بين الأحاديث التى فيها أنه من ولد فاطمة والأحاديث التى فيه أنه من ولد العباس بطريق آخر فقال أن المهدى المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ومن ولد العباس من جهة أمه بأن تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس وكلام ابن حجر فى رسالته التى فى علامات المهدى يقتضى أيضا تعدد المهديين وأن المهدى المنتظر واحد فإنه قال فيها والذى يتعين اعتقاد مادلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدى المنتظر وهو الذى يخرج الدجال وعيسى عليه السلام فى زمنه وهو المراد حيث أطلق المهدى وأما من قيده فليس واحد منهم هو المهدى المنتظر ويكون بعد المهدى أمراء صالحون لكنهم ليسوا مثله فهو الأخير فى الحقيقة وكذلك غير ابن حجر ممن ألفوا رسائل فى علامات المهدى كلهم يقتضى كلامهم تعدد المهديين وأن المهدى المنتظر واحد وإنما قالوا بذلك التعدد لأنه قيل فى محمد ابن الحنفية إنه المهدى وقيل فى عمر بن عبد العزيز أنه المهدى وقيل فى محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أنه المهدى فهؤلاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدى فثبت بذلك تعدد المهديين قطعاً لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدى المنتظر فالمهدى المنتظر واحد وهو لم يظهر إلى الآن فيمكن حمل كلام القرطبى على غير المهدى المنتظر ممن كان خروجهم بالمغرب ولا يمكن حمل كلامه على المهدى المنتظر لأنه إنما يظهر بمكة والناس بلا خليفة كما تقدم إيضاحه وكذلك لا يصح قول من قال إنما يكون ظهور المهدى المنتظر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل

Marfat.com

لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن خلدون فى تاريخه فإنه قال أن القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له وإنما نشأ ذلك من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الأقصى وعمد إلى مسجد ماسة وزعم أنه القاطمى المنتظر تلبيساً على العامة هناك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته فتهافتت عليه تهافت الفراش طوائف من عامة البربر ثم خشى رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسوا إليه من قتله فى فراشه وانطفأت الفتنة .

(والحاصل) أن الذى تقتضيه الأحاديث النبوية وصرح به العلماء أن المهدى المنتظر إلى هذا الوقت لم يظهر وذكروا له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باق لم يظهر ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله فى ليلته وأنه من ولد فاطمة رضى الله عنها وأنه يبايع مكرها لا أنه يطلب البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها بل لا يبايع حتى يتهدد بالقتل وأن ظهور البيعة له إنما يكون بمكة بين الركنين وأن ظهوره إنما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة فلا يظهر ولا يبايع إلا والناس بلا خليفة فهذه الأشياء هى أقوى العلامات عليه وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل فى تحقيق أمره لكن تلك الأشياء ظنية ومختلف فى كثير منها وذلك مثل اسمه واسم أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره ومدة مكثه فى الأرض بعد ظهوره فكل هذه الأشياء مختلف فيها . فما قيل فى مقدار عمره وقت ظهوره أنه ابن أربعين وقيل أنه ابن عشرين وقيل أنه ابن ثمانية عشر وقيل غير ذلك وقيل فى مدة مكثه بعد ظهوره أنها سبع أو تسع سنين وقيل أنها أربعون وقيل عشرون وقيل غير ذلك وقيل فى اسمه أنه محمد وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين أو العباس وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من جهة أمه وفى بعض أمهاته من هى من ولد العباس والأحاديث التى جاء فيها ذكر ظهور المهدى كثيرة متواترة فيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن وفيها ماهو ضعيف وهو الأكثر لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوى بعضها بعضاً حتى صارت تفيد القطع لكن المقطوع به أنه لا بد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة

Marfat.com

وأنه يملأ الأرض عدلا نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجى فى آخر الإشاعة وأما تحديد ظهوره بسنة معينة فلا يصح لأن ذلك غيب لا يعلمه إلا الله ولم ينص من الشارع بالتحديد وقد ذكر كثير من المتقدمين من العلماء تحديد ظهوره فى سنين عينوها بالظن والتخمين فلم يخرج فيها فأخطأوا فى ظنهم وتحديدهم ويؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم فى المهدى أنه يصلحه الله فى ليلته أن المهدى لا يعلم بنفسه أنه المهدى المنتظر قبل وقت إرادة الله إظهاره ويؤيد ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو أشرف المخلوقات لم يعلم برسالته إلا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيساً لرسالته وتقوية لقلبه لكنه لم يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة حتى أنه كان كلما رأى مناماً من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضى الله عنها ويشكوا إليها حاله فكانت تثبته وتقول له كلاماً يقوى به قلبه كما هو موضح بكتب الحديث فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يعلم بأنه رسول الله إلا بعد ظهور جبريل عليه السلام وقوله له : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فبالأولى أن المهدى المنتظر لا يعلم بأنه المهدى المنتظر إلا بعد إرادة إظهاره ولذلك يمتنع من البيعة حتى يتهدد بالقتل ويبايع مكرها ، فهذا هو سر قوله صلى الله عليه وسلم يصلحه الله فى ليلته ليعلم من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدى المنتظر إلا وقت إرادة الله فكل من يدعى أنه المهدى المنتظر ويطلب البيعة لنفسه أو يقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وقد ادعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الأزمان ، ولم تثبت دعواهم ، وكان لهم مع الخلفاء وقائع وحروب مذكورة فى التواريخ ، وقد جمعت أسماءهم ووقائعهم باختصار فى رسالة مستقلة ليعلم من وقف عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ولا تتم إلا إذا جاءت على طبق ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم لأنه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى ، وقد ذكر العلامة ابن خلدون فى تاريخه كلاماً فيه فوائد تتعلق بهذا المبحث فانذكر ملخص ذلك تتميما للفائدة ، وحاصل ذلك أن الذين يدعون هذه الدعوى إما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم إلى التنكيل بالقتل أو

Marfat.com

الضرب إن أحدثوا فتنة وإلا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم والصفع فى الطرق أو الأسواق ، وإما أن يكونوا من طالبى الرياسة والملك فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويغفلون عما ينالهم من الهلكة وإسراع الهلاك والقتل من الملوك والسلاطين عند إحداثهم فتنة بهذه الدعوى ، وقد يكون بعض من ادعى هذه الدعوى من الصالحين ويريد إظهار الحق ويتخيل له أنه هو المهدى فيخطىء ظنه ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج إليه فى إقامة الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الله لم يكتب عليه فى ذلك إثارة فتنه وإنما أمره الله تعالى به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وأحوال الملوك والدول قوية راسخة لا يزحزحها ولا يزلزلها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التى من ورائها العصبية بالقبائل والعشائر وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى دعوتهم إلى الله تعالى بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء لكنه سبحانه وتعالى إنما أجرى الأمور على مستقر العادة وأنه حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح فى هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك فى طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك فى ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وكل أمر يجتمع عليه كافة الخلق لا بد له من العصبية وفى الحديث الصحيح « مابعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه » وإذا كان هذا فى الأنبياء وهم أولى من الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العوائد فى الغلبة بغير عصبية والغفلة عن هذا هى أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء ، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء ، داعين إلى تغيير المنكر والنهى عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم فى ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون

Marfat.com

فى تلك السبيل مأزورين غير مأجورين ، وكثير منهم يدعى أنه المهدى المنتظر ولم تصح دعواهم ، ويتبعهم كثير من العامة والأغمار ممن لا يرجعون إلى عقل يهديهم ، ولا علم يفيدهم يستجيبون لكثير ممن يدعون هذه الدعوى لما اشتهر من ظهور فاطمى، ولا يعلمون حقيقة الأمر وأكثر ما يكون ذلك فى الممالك القاصية ، وأطراف العمران بإفريقية ، والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان بذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم هو أنهم قائمون بدعوة الفاطمى ، يزعمون ذلك زعما لا مستند له إلا البعد عن القاصية عن مثار الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الأوهام فى ظهور الفاطمى من ذلك الموضع لخروجه عن رتبة الدولة ومثار الأحكام والقهر ولا محصول لديهم فى ذلك إلا هذا الوهم وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تنشأ عن وسواس وحمق وقد قتل الملوك والرؤساء كثيراً منهم ثم قال أخبرنى شيخنا محمد بن إبراهيم الابلى قال خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب المرينى رجل من منتحلى التصوف يعرف بالتوزرى وادعى أنه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصامدة وعلماؤهم فدس عليه الكسوى من قتله بياناً وانحل أمره وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة فى عشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمى المنتظر وتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط ، وأخبرنى شيخنا المذكور بفرسية عن مثل هذا وهو أنه صحب فى حجه رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلامذة ، وكان يتلقونه بالنفقات فى أكثر البلدان وتأكدت الصحبة بيننا فى الطريق ، ثم كشف لى عن أمرهم وأنهم إنما جاؤا من مواطنهم بكربلاء قاصدين أرض المغرب لإظهار دعوى أنه الفاطمى المنتظر ، فلما وصل المغرب وعاين دولة بنى مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب فى ذلك الوقت منازلا لتلمسان فلما رأوا قوة ملكه قال ذلك الرجل لأصحابه ارجعوا بنا فقد أرى بنا الغلط وليس هذا الوقت

Marfat.com

وقتنا وهذا يدل على أن ذلك الرجل استبصر بأن الأمر لا يتم إلا بالعصبية الكافية لأهل الوقت فلما علم أنه غريب فى ذلك الموطن ولا شوكة له وأن عصبية بنى مرين فى ذلك الوقت لا يقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق واقتصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما فى المغرب إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمى ولا غيره وإنما ينزع منهم فى بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعوه وأكثر ما يعتنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما فيها من طيب معاشهم فيأخذون فى تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون به الإقصار عن الغارة والنهب ولا يعقلون فى توبتهم وإقبالهم إلى مناحى الديانة غير ذلك لأنها المعصية التى كانوا عليها ومنها توبتهم ، وتجد ذلك المتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة وغير متعمق فى فروع الاقتداء والاتباع وإنما دينهم الأعراض عن النهب والبغى وإفساد السابلة ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش أقصى قصدهم وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد إصلاح الخلق لكل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم فانفاقهما ممتنع لا تستحكم للأول صبغة فى الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ويختلف حال صاحب الدعوة معهم فى استحكام دينه وولايته فى نفسه دون تابعيته ، فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك فأفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة فى المائة السابعة ثم مر بعده لرجل من بادية رياح كان أشد دينا من الأول وأقوم طريقة فى نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمرهما وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شىء من أمرهم وأول ابتداء هذه النزعة فى الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون ابنى الرشيد وقتل الأمين وكان المأمون بخرسان فأبطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بنى العباس ونقلها

Marfat.com

للعلويين فجعل ولى عهده عليا الراضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعو للقيام وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد وانطلقت يدى الذعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية فى الأسواق ورفع أهلوها أمرهم إلى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدربوس، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابه خلق وقاتل بهم أهل الذعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر يعرف بسهل بن سلامة الأنصارى وعلق مصحفا فى عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بنى هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار فقال له القائم الأول وهو خالد الدربوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة إحدى ومائتين فجهز إبراهيم بن المهدى بعد أن بايعه بنو العباس جيشاً لقتال سهل بن سلامة فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ، ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه فى إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم ثم ذكر كثيراً من الأحاديث التى جاءت فى المهدى وضعف كثيراً منها ثم قال والحق الذى يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقررنا لك ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون وقد استمالت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكة وينبع والمدينة من الطالبين من حسن وحسين بن جعفر منتشرون فى تلك البلاد

Marfat.com

وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة فإن صح ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته إلا يكون منهم ويؤلف الله قلوبهم فى اتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافيه لإظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة إنتهى ماأردت نقله من كلام ابن خلدون . ورأيت فى كثير من الرسائل المؤلفة فى شأن المهدى أنه لايتم أمره إلا بالقيام بالشريعة الغراء وأنه يكون على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ويفيض الله على الخلق نوراً ببركته فيتبعونه ويقتدون به فى جميع شؤونه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ووصفتهم لأن الناس على دين ملوكهم فإذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فإنهم كانوا يستقيمون وإذا زهد فى الدنيا يزهدون وملاك الأمر كله هو الزهد فى الدنيا وعدم التبسط فيها ومن الأمثال القديمة الناس على دين ملوكهم ، وذكروا أن السبب فى هذا المثل أن الوليد بن عبد الملك بن مروان كان مشغوفاً بتشييد البنيان فكان الناس فى زمانه ليس لهم همـــة إلا تشييد البنيان والقصور وفى ذلك طول الأمل والغرور ، ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مران فكان مشغوفاً بكثرة الأكل وتنويع الأطعمة وتكثير الألوان فكان الناس فى زمانه يتفاخرون بالتوسعة فى تنويع المأكولات وينهمكون فى التلذذ بالشهوات وفى ذلك أعظم البليات ، ثم ولى بعد سليمان بن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين فكانت همته فى الاشتغال بالطاعات والعدل وإقامة الدين فكان الناس فى زمته راغبين فى فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات فقالوا الناس على دين ملوكهم فالخليفة الأعظم هو القدوة لجميع المسلمين وأعظم شىء يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد فى الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذى لايحصل إلا بتعب ولحاجة فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وبلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ولا يكون الزهد من العامة إلا بعد زهد الخاصة فإن الخاصة هم العمدة فى ذلك والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والأمراء والقضاة والعلماء وأولى من يطلب

Marfat.com

الزهد فى الدنيا الخليفة الأعظم الذى أقامه الله لإصلاح الدنيا والدين وإحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين قال الإمام الطرطوشى فى كتابه المسمى سراج الملوك أن الخليفة إذا عدل فى بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين فى الأخذ من بيت المال بقدر الحاجة كان المسلمون كلهم عسكراً للاسلام اه .

والحاصل أنه إذا زهد فى الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة فى جميع الأحوال يتبعه على ذلك الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء فإذا حصل ذلك يسهل حينئذ إقامة الشريعة والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع المتطهر فتحيا بذلك السنن التى أميتت وتزول تلك البدع التى أذيعت وتقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات فإن الكفار إنما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين فى الدنيا واقتحامهم المعاصى لتحصيلها فلا يزيلون منكراً لأن أكثر المنكرات يتوصلون بها إلى تحصيلها وإزالتها مخالفة لاغراضهم الذين هم بصددها فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما داموا لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر وقد صح عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان كثيراً ما يقول فى خطبه ومجالسه أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه فهذه العبارة نص صريح فى أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضى الله عنهم وما دام الخليفة الأعظم يتبسط فى الدنيا ويأخذ من بيت المال ماأراد مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم فى العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعى فى ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين فإن الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات لأن الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم فهذا هو السبب فى عدم إتحاد المسلمين واتفاق كلمتهم وأما فى زمن المهدى فإنه

Marfat.com

يسلك هو مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد فى الدنيا ولا يأخذ من بيت المال إلا بقدر الضرورة والناس يكونون فى زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل فظهر بهذا أنه إذا زهد الخليفة الأعظم فى الدنيا وعدل فى بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية أيضا من غير زيادة يتبعه على ذلك كافة الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الأبرار والفجار والخليفة أمين على مال بيت المسلمين لا يتصرف فى شىء منه إلا بحسب المصلحة العائدة بالنفع على الإسلام والمسلمين فهو مثل قيم مال اليتيم لا يتصرف إلا بالمصلحة الظاهرة فإن كان له مال خاص يستعف به عن الأخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيئاً وإن لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِياً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فإذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وكافة الخلق فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات ويتركون التلذذ بالشهوات فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكراً لنصرة للاسلام ويقوى عزمهم على قتال أعدائهم من القوم الكافرين وأما إذا تبسط الخليفة فى مال المسلمين وتبعه الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء ، فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم فى قتال الكافرين حيث يرون ملوكهم لم يساووهم وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وفتحهم البلاد الواسعة مع الاتحاد واتفاق الكلمة إلا بسبب مساواة أمرائهم لهم فى جميع شؤونهم وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب إلا لما استبد الملوك بالأموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها فى غير مصارفها ، فشق على المسلمين تميزهم عنهم وترفعهم عليهم بأموالهم التى أخذوها منهم بغير حق ، ولا يظن ظان أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا الأمصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام بل إنما كان ذلك بزهده فى الدنيا وعدم تبسطهم بما وعدلهم فى بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم

Marfat.com

وأنفسهم وأولادهم وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون منها غيرهم إن قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيئاً إذا كان لهم ما بقى بذلك لأنهم يرون أمراءهم مساوين لهم فى جميع تلك الشئون ، وإذا سلك الخليفة والأمراء والعلماء هذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفى عنهم جور الحكام لأنهم إنما يجورون عليهم ليتبسطوا فى أموالهم ويتلذذوا بها ، ، وإذا ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا فى بيت المال تستحى نفوس الأغنياء باعطاء الفقراء ويواسوهم وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل فلا يبقى من المسلمين فقير وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم فتزول المخاصمات التى كانت بينهم وتقل مرافعاتهم إلى الحكام ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ويرتفع كل شقاق واختلاف وإذا عدل الخليفة فى بيت المال وسلك فى ترك التبسط فى الدنيا طريق النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كان قدوة للمسلمين ويكون له من الأجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين وكان سببا فى اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين ، ويكون له فى ذلك من الله الرضا والرضوان فى الدنيا وجنات النعيم وتقر بذلك عين النبى صلى الله عليه وسلم فإنه بالمؤمنين رؤف رحيم ويستحيل أن يحصل لهم شىء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك لأنهم إنما يفعلون وحالهم عن ذلك لا يتحول والتبسط فى الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى ﴿وإذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ وعدم التبسط فى الدنيا هو ملاك الأمر وليس على الخليفة فى سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من إدراك الحق ولا تعويق وينال بغيته من الأكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ والحاصل أن استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين فى عدله فى بيت المال هو السبب الأعظم فى اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم فى جميع الأحوال وعدم عدله فى بيت المال سبب للافتراق فى الحال والمآل ولو صام النهار وقام الليالى الطوال وبدون استقامة الخليفة وعدله فى بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يرجى

Marfat.com

للمسلمين فلاح ولا يتم لهم اتحاد ولا نجاح ولنذكر لك نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط فى الدنيا مما كان صادراً من النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتعلم أن انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال .

لما أراد الله بأهل الأرض إحساناً وأفضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم إكراماً لهم وإجلالا وقضى بإطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الإسلام وتقوية أهل السنة السنية المتمسكين بسنن سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وإقامة الشرع الشريف على رغم الملحدة اللئام أطلعَ فى أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية وأسطع من أوج أسماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية وأجلسهم على سرير الملك وملكهم أعظم ممالك الإسلام وفتح على أيديهم الممالك العظام ونشر بهم جناح الأمن والأمان لا زالت دولتهم باقية إلى آخر الزمان اه .

Marfat.com

ثم ذكر فى تراجمهم مايبهر العقول من محاسن الصفات ومن الزهد والعدل والجهاد وفعل الخيرات وقد تقدم فى هذا الكتاب كثير من ذلك ومن تأمل فى سيرة الملوك والسلاطين الذين كانوا بعد الخلفاء الراشدين يحصل له كمال اليقين بأن الدولة العثمانية أحسن الدول الإسلامية بين العالمين بعد النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لأنهم اتصفوا بصفات لم يتصف بها كثير من دول الإسلام وجمعوا فضائل لم تكن لغيرهم على ممر الليالى والأيام فمنها أن لهم كثيراً من الفتوحات الواسعة والغزوات الشهيرة فى الأقطار الشاسعة حتى اتسع بفتوحاتهم الإسلام وانتشر العلم والأمن والأمان بين الأنام ومنها أن عقائدهم صحيحة مطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ليس فيهم مبتدع ولا خارج عن الطاعة ومنهم أنهم ناصرون لمذهب أهل السنة وقائمون بشعائر الدين كافة فى مدن الإسلام لاسيما فى الحرمين الشريفين الذين هما منبع الدين وأساسه ومطلع نوره ونبراسه فإنهم موظفون لأهل الحرمين والوظائف التى بها قوام الدين ومظهرون شعائر الأئمة الأربعة الذين انحصر فيهم مذهب أهل السنة والجماعة ومرتبون للقائمين بوظائف الدين أعظم المرتبات ومنعمون عليهم بأنواع كثيرة من أصناف البر الذى به تكثر الحسنات ومرتبون أيضاً للأشراف والسادات والعلماء والصلحاء الأبرار مايقوم بكفايتهم فى المعيشة التى عليها المدار فأعانوا الجميع على القيام بالعبادة والاشتغال بالعلم النافع فقاموا بأداء الشكر لله تعالى وبذل الدعوات الخيرية للدولة العلية العثمانية فى كل مسجد وجامع ومن محاسنهم الجليلة ومناقبهم الأثيلة أنهم دافعون كيد الكفرة الفجار والمبتدعة الأشرار بعساكرهم وخزائنهم فى سائر الأقطار ومؤمنون الطرقات للحجاج والزوار والتجار والمسافرين باذلون غاية جهدهم فى نصرة الإسلام وصيانة الدين فيجب على كافة المسلمين السعى فى تشييد دولتهم وتثبيت قواعد سلطنتهم والدعاء لهم بدوام التوفيق والنصر الذى يكون به تأييد مملكتهم اللهم وفقهم لكل خير وادفع عنهم كل مكروه وضير ووفق سائر الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء والعمال للعدل ونصرة الدين ، وقد من الله على أهل هذا العصر الحميد بسلطنة واسطة عقد الدولة العثمانية الفريد من تشرفت بذكره فى الحرمين الشريفين المنابر والمنائر وعمر مساجدها فصدق عليه قوله

Marfat.com

تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم خير خلف خلفاء الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المنصور المظفر المعان (مولانا السلطان الغازى عبدالحميدخان) بن المرحوم مولانا السلطان الغازى عبد المجيد خان متع الله المسلمين بوجوده وأفاض عليهم سحائب فضله وجوده وأدام له النصر والتمكين وأيده بروح القدس الأمين فكان له من حين ولايته إلى هذا الزمان من محاسن الصفات وفعل الخير مايعجز عن بيانه اللسان فمن ذلك أنه عمر عمارة فائقة فى الكعبة المعظمة وفرش باطنها بالرخام على أعجب الأوصاف المنظمة وبذل على ذلك كثيراً من الأموال وأنعم على مباشريها بما لا يخطر بالبال، وكان ذلك فى سنة تسع وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم، ومن مآثره وخيراته الجليلة صدور أمره الكريم بوضع مطبعة فى مكة المشرفة تطبع فيها كتب العلوم ليكثر انتشار العلم فى موضع مهبط الوحى الذى هو مرجع الخصوص والعموم ليحصل له بذلك ثواب نشر العلم وتأييد قواعد الدين اللذين هما من أقوى أسباب التأييد والتمكين فكان وضع المطبعة المذكورة سنة ثلاثمائة بعد الألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم فامتثل أمره وقام بوضعها واجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه حتى كملت واشتهرت بين العباد الوزير المعظم والمشير المفخم دولتلو السيد عثمان نورى باشا والى ولاية الحجاز وشيخ الحرم المحترم لا زال فعله مبروراً وسعيه مشكوراً وأقام فى المطبعة المذكورة مديراً شويكى زاده السيد عبد الغنى أفندى الدمشقى فصارت الناس تهرع إليها من جميع الجهات لطبع كتب العلوم فيها ويطبع فيها باللسان العربى والتركى والجاوى ففاقت بذلك جميع المطابع فنسأل الله تعالى أن يديم هذه السلطنة السنية ويوفقها لكل خصلة مرضية ويزيدها توفيقا على ممر الزمان حتى تكون أهل هذه الملة بهذه الدولة فى أعلى مقامات الاستقامة والإحسان ويتحقق بها ما تقدم عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه من قوله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ونسأل الله

Marfat.com

للجميع التوفيق والإعانة والإخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، وكان التمام للفتوحات الإسلامية فى أول شهر رمضان المعظم سنة ١٣٠٠ اربع بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

خليفة المسلمين خاقان الاعظم سلطان المعظم سلطان ابن السلطان سلطان عبد الحميد خان ثانى :

ولادته فى ١٦ شعبان ١٢٥٨ هـ. ٢٢ ايلول ١٨٤٢ م.
جلوسه فى ١١ شعبان ١٢٩٣ هـ. ٣١ اغستوس ١٨٧٦ م.
خلعه فى ١٣٢٧ هـ. ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م.
وفاته ١٣٣٦ هـ. ١٩١٨ م.

سلطان ابن السلطان محمد خامس رشاد خان ابن عبد المجيد خان :

ولادته فى ١٢٦٠ هـ. ١٨٤٤ م.
جلوسه فى ١٣٢٧ هـ. ٢٧ نيسان ١٩٠٩ م.
وفاته فى ١٣٣٦ هـ. ١٩١٨ م.

رفعه فتيان الترك الجهال الغافلون على العرش بعد خلع عبد الحميد خان الثانى . على ايامه فقد الدولة بوسنى والهرسك وتحررت بلغاريا واخذت ايطاليا بلاد طرابلس الغرب وابتلت تركيا بحرب البلقان و بالحرب الكونية الاولى .

سلطان محمد سادس وحيد الدين خان توفى فى سان ريمو (ايطاليا) نقل جثمانه الى دمشق ودفن فى جامع صلاح الدين الايوبى رحمهما الله وجعل الجنة مثواهما .

مصطفى كمال باشا اتاتورك ولد فى سلانيك (يونانستان) فى ١٢٩٨ هـ. ١٨٨١ م. الغى دولة العثمانية الاسلامية (١٩٢٢) والخلافة التركية (١٩٢٤) واسس الجمهورية اللادينية. اجرى انقلابات العظيمة الدينية والاجتماعية وضع استعمال الابجدية اللاتينية عوض العربية الاسلامية فى الكتابة التركية تلقب بـ (اتا تورك) اى ابوالاتراك مات فى ١٣٥٦ هـ. ١٩٣٨ م. حفرته فى انقره

Marfat.com

(الجزء الاول)

من كتاب غالية المواعظ ومصباح المتعظ وقبس الواعظ الشيخ

خير الدين أبي البركات نعمان افندى آلوسى زاده ابن

السيد الشيخ محمود افندى المفتى ببغداد

فنحمده تعالى على أن جعل سلطاننا الاعظم والخليفة على الخليقة فى هذا العالم عبده الخاضع لسلطانه وامير المؤمنين فى زمانه حضرة مولانا السلطان الغازى عبد الحميد خان ابن الخاقان المرحوم عبد المجيد خان ابن المبرور الخاقان السلطان محمود خان شيد الله تعالى دولته بالشرع الاقوم ونصره على سائر الامم ووفقه للخير الاتم وأذل له الطاغين الباغين وأعلا به كلمة الدين المبين وجعل فى حوزته جميع الاقطار وسدد أركان دولته ما تعاقب الليل والنهار كيف لا وهو والحمد لله تعالى بدر سماء السلطنة العثمانية وشمس أوج سلطنتها السنية التى قال فيها الشيخ عبد الغنى النابلسى عليه الرحمة انها المشار اليها فى قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون

كتاب

الفوائد البهية فى تراجم الحنفية

تأليف

العلامة ابى الحسنات محمد عبد الحى اللكنوى الهندى

مع التعليقات السنية على الفوائد البهية

للمؤلف المذكور ضاعف الله له الاجور

Marfat.com

الدولة العثمانية من أعظم سلاطين الدنيا جلالة وأشدهم قوة وآثاراً وأول من ملك فى ممالك الروم الأمير عثمان الغازى بن أرطغرل بن سليمان شاه وله نسب يتصل الى يافث بن نوح وكان سليمان باشا سلطاناً فى بلاد ماهان قرب بلخ فلما ظهر جنكيز خان وأخرب بلاد بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتفرقت أهلها فى سنة ٦١١ ترك بلاده وقصد بلاد الروم وتبعه خلق كثير وتقاتلوا مع الكفار في أذربيجان وغنموا شيئاً كثيراً ثم قصدوا نحو حلب فوصلوا الى نهر الفرات امام قلعة جعبر فعبروا النهر فغلب الماء عليهم ففرق سليمان شاه فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وكان معه أولاده الثلاثة سنقوروكون طوغدى وأرطغرل ولما وصلوا الى موضع يقال له ياسين أوسى رجع سنقوروكون طوغدى الى بلاد العجم وتخلف أرطغرل مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزآلب وصادربي وعثمان ومكث هناك يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صادربي الى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي يستأذنه فى الدخول الى بلاده فأذن له وعين لنزولهم جبال طوماينج وجبال هناك فأقبل أرطغرل مع أربعمائة من قومه فتوطنوا في قرمجه طاغ سنة ٦٨٥ وفوض اليه الأمير علاء الدين أمر قلعة كوتاهية وكانت بيد الكفار ففتحها فازداد عنده قرباً ومنزلة ولم يزال ارطغرل يجاهد ويغزو الى ان توفى سنة ٦٨٧ فلما سمع السلطان وفاته تأسف وعين مكانه ولده عثمان الغازى وكان مولده سنة ٦٥٦ وأكرمه وكان كثير التردد الى المولى ادهبالي القرمانى فرأى ليلة في منامه انه خرج من حضن الشيخ ادهبالى قمر ودخل في حضنه ثم نبتت من سرته شجرة سدت الآفاق وتحتها جبال راسيات وعيون والناس ينتفعون به فلما استيقظ وقص رؤياه على الشيخ قال الشيخ له لك البشارة بمنصب السلطنة وإني زوجتك بنتى هذه فقبلها عثمان وولد له منها أولاد منهم أورخان ثم ان السلطان علاء الدين عظم بناؤه من التاتار وشاخ وكبر سنه فتسلطن عثمان فى البلاد التى افتتحها وقيل بل أجازه بذلك علاء الدين وكان هو مجازاً من الخلفاء العباسية وخطب له فيها بالسلطنة ختن الشيخ ادهبالى طورسون الفقيه فى مدينة قرمجه حصار سنة ٦٩٩ وفى سنة ٧٠٠ توفى علاء الدين وتولى مكانه ولده وكثر الهرج والمرج فى بلاده فلحق غالب عساكره بالسلطان عثمان وفتح سنة ٧٠٧ ناحية مرمرة وحصن آق حصار وحصن لفكه وغيرها وفي سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوه وحصن تكوربيكارى وغيره وفى سنة ٧٢٢ حاصر مدينة بروسا وتوفى سنة ٧٢٦ وجلس بعده على سرير السلطنة ابنه أورخان فى ابتداء سنة ٧٢٧ وكان مولده سنة ٦٧٨ وفتح مدينة بروسا وكانت في يد الكفار وانتقل اليها وجعلها دار السلطنة وبني بها جامعاً وفى سنة ٧٣١ فتح حصون قيون حصارى ومدينة أزنيق وارنكميد وكانت بيد الكفار وفى سنة ٧٥٨ بعث ولده سليمان الى طرف روم ايلي للجهاد مع عسكر كثير ففتحوا حصن جمني ومدينة كليبولى وهي مدينة جليلة بينها وبين قسطنطينية ست وثمانون ميلاً وتوفى سليمان سنة ٧٦٠ وذهب أخوه مراد خان الى روم ايلي ففتح مدينة جورلى بينها وبين قسطنطينية ثلاث مراحل ومدينة وبمنوته ثم توفى السلطان أورخان سنة ٧٦١ وتولى موضعه ابنه مراد خان وكان مولده سنة ٧٢٧ وفتح مدينة انكورية من بلاد حلب وفتح مدينة أدرنة من يد الكفار بينها وبين قسطنطينية

Marfat.com

خمسة وتسعون ميلا وقتل بعد سنة ٧٩١ وجلس بعده ابنه يلدرم بايزيدخان وفتح قرمطوه وبلاد اسكوب وقسطموني وقونية وقيصرية وسيواس واماسية وتوقات ونيكسار وسامسون وغيرها ودخل تيمور بلاد الروم سنة ٨٠٤ ووقع بينهما بقرب مدينة انقره حرب عظيم الى ان غلب تيمور وحبسه وذهب به معه الى العجم فتوفى فى أثناء الطريق بمدينة آقشهر سنة ٨٠٥ ونقل جسده الى بروسا ثم جلس بعده ابنه محمد خان سنة ٨١٢ ومولده سنة ٧٧٧ وفتح بعض البلاد وتوفى سنة ٨٢٤ وجلس بعده ابنه مراد خان وتوفى سنة ٨٥٥ وجلس بعده ابنه محمد خان ولم يزل يهيئ أسباب القتال لفتح قسطنطينية الى ان فتحها فى جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ بعد المحاصرة احدى وخمسين يوماً وظهر كنيسة فيها مسماة بإياصوفية وبنى هناك جامعاً وبنى فيها المدارس الثمان وفتح غيرها من القلاع الواسعة والبلاد الشاسعة منها بلاد حسن الطويل سلطان العجم وبلاد كفه وتوفى سنة ٨٨٦ واستقر بعده ابنه بايزيدخان ومولده سنة ٨٥٢ وفتح عدة من البلاد وبنى الجوامع والمدارس وفوض السلطنة فى حياته الى ابنه سليم خان وانتقل بالملك بعد وفاة أبيه سنة ٩١٨ وفتح بلاد ماردين والموصل وحصن كيفا وجزيرة ابن عمر وغيره وقصد سنة ٩٢٢ قتال الغورى ملك مصر والشام وحلب وغيرها والتقى العسكران بقرب حلب الى ان قتل الغورى ودخل هو مدينة حلب وخطب له فيها ثم فتح بيت المقدس وغزة وطبرية ورقة وانطاكية وعينتاب وغيرها وملك مصر سنة ٩٢٣ وتوفى سنة ٩٢٦ وتولى بعده ابنه سليمان خان ومولده سنة ٩٠٠ وفتح عدة من البلاد وسار الى بلاد تبريز ونخجوان ومراغة وغيرها من بلاد الشرق وسافر لفتح قلعة أسكدار سنة ٩٧٤ فمرض هناك ومات وفتحت بعد موته وجلس بعده ابنه سليم خان ومات سنة ٩٨٢ وجلس بعده ابنه مراد خان ومولده سنة ٩٥٣ وفتح كثيراً من بلاد العجم وغيرها وتوفي سنة ١٠٠٣ وجلس بعده ابنه محمد خان وتوفى سنة ١٠١٢ وجلس بعده ابنه أحمد خان هذا ما ذكره أحمد بن يوسف الدمشقى فى كتابه أخبار الدول وآثار الاول وقد أطنب الكلام فى ذكر وقائعهم وحوادثهم ومحاربتهم ومحاسنهم فان شئت الاطلاع على ذلك فارجع اليه وذكر أبو الفوز محمد أمين البغدادي فى كتابه سبائك الذهب فى أنساب العرب ان وفاة أحمد خان كانت سنة ١٠٢٦ وجلس بعده أخوه مصطفى خان ثم خلع نفسه عن السلطنة واختار جلوس ابن أخيه عثمان خان بن أحمد خان فجلس هو سنة ١٠٢٧ ومولده سنة ١٠١٣ ثم ان العسكر قاموا عليه وقتلوه في سنة ١٠٣٢ وأعادوا عمه مصطفى ثم خلع هو نفسه وجلس مراد خان بن أحمد خان سنة ١٠٣٢ ومولده سنة ١٠٢١ وتوفي سنة ١٠٨٩ وجلس بعده أخوه ابراهيم خان بن أحمد خان ومولده سنة ١٠٢٤ ولم يزل على السرير الى ان توفى سنة ١٠٥٨ وتولى بعده ابنه محمد خان وُلد سنة ١٠٤٩ واستمر على ذلك الى ان خلعوه وذلك فى سنة ١٠٩٩ وأجلسوا مكانه أخاه سليمان خان ابن ابراهيم خان وتوفى سنة ١١٠٢ وجلس بعده أخوه أحمد خان بن ابراهيم خان وتوفي سنة ١١٠٧ ثم جلس بعده مصطفى خان بن محمد خان وفى سنة ١١١٥ جلس أحمد خان بن محمد خان وفى سنة ١١٤٣ جلس محمود خان بن مصطفى خان بن محمد خان وفى سنة ١١٦٧ جلس عثمان خان بن مصطفى خان بن

Marfat.com

محمد خان وفى سنة ١١٧١ جلس مصطفى خان بن أحمد خان بن محمد خان وفي سنة ١١٧٨ جلس عبد الحميد خان بن أحمد خان بن محمد خان وفى سنة ١٢٠٣ جلس سليم خان بن مصطفى خان بن أحمد خان وفى سنة ١٢٢٢ جلس مصطفى خان بن عبد الحميد خان وفى سنة ١٢٢٣ جلس محمود خان بن عبد الحميد خان وفى سنة ١٢٥٥ جلس ابنه عبد المجيد خان وفى سنة ١٢٧٧ جلس سلطان زماننا عبد العزيز خان ابن محمود خان وولادته سنة ١٢٤٥ أدام الله دولته وأحيي به سننه انتهى ملتقطاً (قات) ووصل الخبر في جمادى الأولى من هذه السنة ان اراكين الدولة أجمعوا على عزله فعزلوه وأجلسوا مكانه ابن أخيه مراد خان فأحاطت بعبد العزيز خان الندامة والحسرة فاستشهد رحمه الله تعالى ونعم الرجل كان .

سلاطين عثمانيه

هجرى قمرى			هجرى شمسى	
من	الى		من	الى
٦٠٩٩	٧٢٦	سلطان عثمان خان غازى بن ارطغرل غازى .	٦٧٩	٧٠٠
٧٢٦	٧٦١	سلطان اورخان غازى بن عثمان غازى .	٧٠٥	٧٣٩
٧٦١	٧٩١	سلطان مراد غازى بن اورخان (خداوندگار) .	٧٣٩	٧٦٨
٧٩١	٨٠٥	سلطان غازى بايزيد بن خداوندگار (يلدرم) .	٧٦١	٧٨١

§

٨١٦	٨٢٤	چلبي سلطان محمد بن يلدرم بايزيد خان .	٧٩٣	٨٠٠
٨٢١	٨٥٥	سلطان غازى مراد خان ثانى بن چلبي سلطان محمد .	٨٠٠	٨٣٠
٨٥٥	٨٨٦	سلطان ابوالفتح محمد خان غازى بن مراد ثانى .	٨٣٠	٨٦٠
٨٨٦	٩١٨	سلطان بايزيد خان ثانى بن فاتح محمد خان .	٨٦٠	٨٩١
٩١٨	٩٢٦	سلطان سليم خان غازى بن بايزيد ثانى (ياوز) .	٨٩١	٨٩٩
٩٢٦	٩٧٤	سلطان غازى سليمان خان بن سليم اوّل (قانونى).	٨٩٩	٩١٥
٩٧٤	٩٨٢	سلطان غازى سليم خان ثانى بن سليمان قانونى .	٩١٥	٩٥٣
٩٨٢	١٠٠٣	سلطان غازى مراد خان ثالث بن سليم ثانى .	٩٥٣	٩٧٣
١٠٠٣	١٠١٢	سلطان غازى محمد خان ثالث بن مراد ثالث .	٩٧٣	٩٨٢
١٠١٢	١٠٢٦	سلطان احمد خان اوّل بن محمد خان ثالث .	٩٨٢	٩٩٦
١٠٢٧	١٠٣٢	سلطان مصطفاى اوّل بن محمد خان ثالث(دفعهٔ اولى).	٩٩٦	١٠٠٢
١٠٢٧	١٠٣١	سلطان عثمان خان ثاني بن احمد خان اوّل .	٩٦٨	١٠٠١

Marfat.com

۱۰۳۲ — ۰۰۰۰	سلطان مصطفی (دفعهٔ ثانیه)	۱۰۰۲
۱۰۳۲ — ۱۰۲۹	سلطان غازی مراد خان رابع بن احمد خان اوّل.	۱۰۰۲ — ۱۰۱۸

§

۱۰۴۹ — ۱۰۵۸	سلطان ابراهیم خان بن احمد خان اوّل .	۱۰۱۸ — ۱۰۲۷
۱۰۵۸ — ۱۰۹۹	سلطان محمد خان رابع بن ابراهیم خان. (آوجی)	۱۰۲۷ — ۱۰۶۷
۱۰۹۹ — ۱۱۰۲	سلطان سلیمان خان ثانی بن ابراهیم خان .	۱۰۶۷ — ۱۰۷۰
۱۱۰۲ — ۱۱۰۶	سلطان احمد خان ثانی بن ابراهیم خان .	۱۰۷۰ — ۱۰۷۳
۱۱۰۶ — ۱۱۱۵	سلطان مصطفی خان ثانی بن محمد خان رابع .	۱۷۰۳ — ۱۰۸۲
۱۱۱۵ — ۱۱۴۴	سلطان غازی احمد خان ثالث بن محمد خان رابع .	۱۰۸۲ — ۱۱۱۰
۱۱۴۴ — ۱۱۶۸	سلطان محمود خان اوّل بن مصطفی خان ثانی .	۱۱۱۱ — ۱۱۳۴
۱۱۶۸ — ۱۱۷۱	سلطان عثمان خان ثالث بن مصطفی خان ثانی .	۱۱۳۴ — ۱۱۳۶
۱۱۷۱ — ۱۱۸۷	سلطان مصطفی خان ثالث بن احمد خان ثالث .	۱۱۳۶ — ۱۱۵۲
۱۱۸۷ — ۱۲۰۳	سلطان عبدالحمید خان اوّل بن احمد خان ثالث .	۱۱۵۲ — ۱۱۶۷
۱۲۰۳ — ۱۲۲۲	سلطان سلیم خان ثالث بن مصطفی خان ثالث .	۱۱۶۷ — ۱۱۸۶
۱۲۲۲ — ۱۲۲۳	سلطان مصطفی خان رابع بن عبدالحمید خان اوّل.	۱۱۸۶ — ۱۱۸۷
۱۲۲۳ — ۱۲۵۵	سلطان غازی محمود خان ثانی بن عبدالحمید خان اوّل.	۱۱۸۷ — ۱۲۱۸
۱۲۵۵ — ۱۲۷۷	سلطان غازی عبدالمجید خان بن محمود خان ثانی .	۱۲۱۸ — ۱۲۳۹
۱۲۷۷ — ۱۲۹۳	سلطان عبدالعزیز خان بن محمود خان ثانی .	۱۲۳۹ — ۱۲۵۵

Marfat.com

الله جل جلاله بسم الله الرحمن الرحيم محمد صلى الله عليه وسلم

توكلت على الله	وعليه نتوكل	لاحول ولاقوة إلا بالله

المسلمون المعاصرون

محمد سيد كيلاني

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

جاء القرن العشرون وقد وقعت معظم الشعوب الإسلامية فى قبضة الاستعمار الأوربى يحكمها حكما مباشرا، ويبتز خيراتها ويسخرها تسخير العبيد، فأخذ بعض مفكرى المسلمين يبحثون عن أسباب تخلف أبناء دينهم وتأخرهم عن ركب الحضارة الغربية، فمنهم من عزا ذلك إلى جمود الأحكام الفقهية، وعدم مسايرتها لطبيعة العصر الحديث، وطفق الناس يتساءلون عن أوجه الحلال والحرام فيما بين أيديهم من أنواع الحضارة والعمران، هل المساهمة فى الشركات، وشراء السندات، وإيداع الأموال في المصارف وصناديق التوفير نظير ربح سنوى مما يحلله الدين؟ وهل خروج المرأة سافرة واختلاطها بالرجال فى المدارس والمعاهد والمصالح الحكومية وغير الحكومية مما يبيحه الإسلام؟ هل تقابل الفتى مع الفتاة

Marfat.com

وخروجها معه إلى الحدائق ودور اللهو قبل زواجهما مما يتفق مع الإسلام ؟ هل لبس القبعة حلال أم حرام ؟ هل التصوير والنحت وإقامة التماثيل وحلاقة اللحية وتشريح جثة الميت للكشف عن سبب وفاته، وعرض المرأة على الطبيب؛مما تجيزه الشريعة الإسلامية؟ هل يجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ؟ وهل يجوز إذاعته من محطات الإذاعة ؟ هل يجوز حل الأوقاف الأهلية ؟ .

• • •

انقسم علماء المسلمين بإزاء هذه الموضوعات إلى قسمين :

١ ـــ قسم متزمت يقول بالتحريم على طول الخط. وكان هذا الفريق إذا رأى بعض مظاهر الجدة أخذت طريقها بين المسلمين ربط بينها وبين ضعف الشعوب الإسلامية وخضوعها للمستعمرين ، وعزا هذا الضعف وتلك الاستكانة إلى عدم تمسك المسلمين بتعاليم دينهم ، وتقليدهم للفرنجة فى كل شىء . وتعاليم الدين التى كانوا يقصدونها هى حالة الجمود والنفور من كل جديد ولو كان نافعا،فأخذ الربح على الأموال المودعة فى المصارف وصناديق التوفير ، وعن الأسهم والسندات ، والسماح للمرأة بالخروج للتعلم أو العمل ؛ كل هذا عندهم من أسباب ضعف المسلمين ، ذلك الضعف الذى أدى بهم إلى الوقوع فى قبضة المستعمرين .

٢ ـــ وقسم كان يرى أن الدين الإسلامى لا يمنع معتنقيه من الأخذ بأسباب المدنية كلها ، ومجاراة الفرنجة في ميادين العمل المختلفة ، ومن رأيهم فتح باب الاجتهاد على مصراعيه وكان على رأس هذا الفريق الشيخ محمد عبده ، ويؤثر عنه أنه قال «أما ماجاء فى القرآن فعلى العين والرأس ، وأما ماجاء فى الحديث فعلي العين والرأس . وأما ما قاله الأئمة ، فهم رجال ونحن رجال » ومن ثم أخذ يوفق بين الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر الحديث .

Marfat.com

ويقول تلميذه محمد رشيد رضا[1] : إن توسع الفقهاء فى مسائل الربا ، وإدخالهم فيها مالم يكن معروفا فى عصر الوحى ، وتضييق أكثرهم فى أحكام العقود المالية ، واستحداث الأمم التى يتعامل المسلمون معها لأنواع كثيرة من العقود والمعاملات ، وترقى العلوم الاقتصادية ، والأعمال المالية إلى درجة قضت بتفوق مُتَّبِعى قواعدها ونظمها على غيرهم فى الثروة والقوة والسيادة ، كل أولئك كان سببا فى تخلف المسلمين ، ورافعا لغيرهم عليهم حتى فى ديارهم ، بل هو أظهر العلل لسلب ملكهم منهم ، والسيطرة عليهم فيما بقي لهم من السيادة فيه . ولاعتقاد أكثر الذين يعرفون أحوال هذه الأمم العزيزة فى علومها وأعمالها ويجهلون أصول الإسلام ؛ أن الإسلام نفسه علة ضعف المسلمين بما شرعه من الجمود على أحكام عتيقة مالية واجتماعية توجب فقر ملتزميها ، وكل ما يجره الفقر فى الأمم من الذل والضعف وفقد الملك » .

« إذن لا يمكن خروج الأمة الإسلامية من جحر الضب الذى دخلت فيه إلا بالاجتهاد ، ووجود المجتهدين » .

وقال محمد أبو زيد[2] من علماء الأزهر :

« كل يوم نسمع ضجة الناس وقولهم إن أحكام الدين لا تصلح لهذا الزمان ، يضربون لذلك مثلا أحكام المحاكم الشرعية ، وأنها أوجدت كثيرا من المشاكل ، ولم تؤد المقصود من الإصلاح فى الزوجية . وأن الزواج والطلاق أصبح الأمر فيهما فوضى » .

« وقد فات هؤلاء الصائحين أن الأحكام التى يرونها مخالفة لمصالحهم ليست من نصوص الدين ، وإنما هى آراء ومذاهب لبعض الذين سبقوا طبقوها على زمانهم بقدر ماوصل اجتهادهم إليه من الفهم والاستنتاج » .

« فمن هذه الأحكام ماهو غير صالح الآن ، لأن أصحابه لم يروه لعصرنا ، وإنما رأوه لذلك الزمان » .

---

(١) الخلافة ط المنار ص ٦٥ (٢) الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ص ١ ، ٣

Marfat.com

«ومنها ماهو غير صالح من قبل، لأن أصحابه فهموه واستنتجوه من أحاديث لم تصح وظنوها صحيحة . أو لأنهم أخطأوا فى فهم المراد من الآيات ، أو فى التطبيق على الحوادث. فالخطأ فى الأحكام سببه بطلان الدليل ، أو بطلان الفهم أو التطبيق » .

« وإنك لتجد كثيرا من الأحاديث التى تروى عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها أحكام كانت خاصة بزمنها ومكانها ، فلما نقلت فهم بعض الناس فى مختلف العصور أنها يعمل بها ، ولم يفهموا أنها مؤقتة ، وأنها من سنة الرسول فى التطبيق الذى قد تنسخه الحوادث ، ويتغير بتغير الظروف والأحوال ، وليست من الأمور التعبدية الدائمة التى أمر الله الناس أن يتقيدوا بها فى كل زمان » .

« ولقد[1] كان تقليد الناس بعضهم بعضاً سببا كبيراً فى الضلال والحيرة . فقد يفهم أحد الفقهاء فهما ، ويكون خطأ ، فيقلده الناس ، ويصير هذا الفهم دينا تمشى عليه التقاليد وتؤلف فيه الكتب . وإنك لتجد كثيرا من المسائل التى اشتهرت وأجمع الناس عليها بالتقليد لا أصل لها فى الدين إلا رواية ملفقة ، أو حديثا مكذوبا . وكثيرا ما اندست روايات وأحاديث فى تفسير القرآن ، وتحكمت فيه بحسن نية المفسرين حتى صارت قاعدة يطبقون القرآن عليها . فما وافقها منه أخذوه ، وما عارضها أوّلوه أو نسخوه » .

فالمسلمون فى هذا العصر قد انقسموا إلى فرقتين :

١ ـ فرقة ترى أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان . وكان ينتمى إلى هذه الفرقة كثيرون من المثقفين وبخاصة رجال القانون. قال على أبو الفتوح ، وكان من كبار رجال القانون فى عصره ، فى مقدمة كتابه : « الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية » :

« يظن كثير من الناس حتى من المسلمين أن المبادئ المقررة فى الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذى بلغ فيه الإنسان من التمدن والترقى درجة رفيعة ، ويتوهمون

---

(١) الزواج والطلاق المذن فى القرآن ص ٢٨ .

Marfat.com

أن الأحكام والروابط الموجودة فى القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها فى الأصول الإسلامية ، وإنما هى بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التى أنتجها فكر علماء الغرب ، لم يسبقهم إليها أحد ، ولكن الباحث فى الفقه الإسلامى ولو قليلا لا يلبث أن يغير هذا الظن ، ويتحقق أن أسلافنا وصلوا فى الرفاهية وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأوا قلما يجاريهم فيه أحد »

٢ - وفرقة كانت ترى أن الأحكام الفقهية كما وصلت إلينا لا تصلح فى كثير منها لهذا العصر ؛ وكان على رأس هذه الفرقة محمد عبده ، ورشيد رضا ، ومحمد أبو زيد وغيرهم ممن نادوا بفتح باب الاجتهاد ، وقالوا بعدم الاقتصار على المذاهب الأربعة المعتمدة عند أهل السنة ، وعدم التقيد بالإجماع الذى لم يتحقق ثبوته فى أى عصر من العصور . قال عبد المتعال الصعيدى[1] : « ولهذا أرى الاستغناء عنه بالكتاب والسنة ، وهذا يحل لنا مشكلة كبيرة فيما نقصد من الجمع بين جميع الفرق عند فتح باب الاجتهاد ، لنحصل على فقه يتعاون فيه اجتهادهم جميعا ، ولا تنفرد به فرقة دون غيرها من فرق المسلمين ؛ لأنا إذا أبقينا الاحتجاج بالإجماع رأينا أنفسنا أمام إجماع لأهل السنة ، وإجماع للشيعة ، وإجماع لغيرهم من الفرق المختلفة . ولا شك أن ذلك الإجماع المتعدد لا يمكن أن يتفق دائما . وهنا يصعب علينا أن نرجح إجماعا على إجماع » .

* * *

وقد كانت حركة تحرير المرأة التى قام بها قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) أول حركة تثير جدالا ونقاشا شديدا بين المسلمين الذين انقسموا بصدد هذا الموضوع إلى فريقين :

١ - الفريق الأول : أنصار الحجاب ، وهؤلاء كانوا يرون فى دعوة قاسم أمين كفرا صريحا ، وخروجا على أحكام الدين الحنيف ، وعاملا على نشر الفوضى الخلقية .

---

(١) « فى ميدان الاجتهاد » ص ٢٤ .

Marfat.com

٢ ـ والفريق الثانى كان يرى أن الدين الإسلامى لم يفرض الحجاب على النساء . وأوّلوا الآيات القرآنية التى نزلت فى الحجاب على أنها خاصة بنساء النبى عليه الصلاة والسلام . قال قاسم أمين فى قوله تعالى (يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ[1]) .

« ولا يوجد اختلاف فى جميع كتب الفقه من أى مذهب كانت ، ولا فى كتب التفاسير فى أن هذه النصوص الشريفة هى خاصة بنساء النبى صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب ، وبين لنا سبب هذا الحكم ؛ وهو أنهن لسن كأحد من النساء » .

« ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن ؛ لاتنطبق على غيرهن . فهذا الحجاب ليس بفرض ولا واجب على أحد من نساء المسلمين » .

« إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية ، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية فى جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد ، أوللتعلق بالجديد لأنه جديد ، وإنما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعى مدخلا عظيما فى حياتها المعاشية » .

« ولسنا فى مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق أومنافرته . وإنما نحن بصدد مابه قوام حياة المرأة ، أو مابه قوام حياتنا » .

وقد استمرت هذه المعركة أكثر من ربع قرن . وألفت فيها الكتب الكثيرة ، وحررت المقالات الطويلة ، ونظمت القصائد الرائعة .

---

(١) الأحزاب آية ٣٢ .

Marfat.com

وقد اعتنق المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها آراء قاسم أمين فى تحرير المرأة ، بل زادوا على ما نادى به كثيرا فمنحوها حق المشاركة فى الحياة السياسية فأصبحت عضوا فى المجالس النيابية . إلا أن المسلمين ما زالوا مختلفين فى أمر اختلاط الجنسين . فهناك من يمنع هذا الاختلاط منعا باتا ، وهناك من يحدده ، وهناك من ينادى به وينتصر له . ومن أمثلة المناقشات التى دارت بهذا الصدد ما كتبه إسماعيل مظهر فى مجلته «العصور» عدد سبتمبر سنة ١٩٢٨ ناقدا كتاب « المرأة فى الإسلام » .

« . . . ويسائلك ـ أى مؤلف الكتاب ـ إذا كنت تخلو بامرأة ، وبالطبع يقصد الجميلة ؛ لا البشعة المنظر ؛ فى حديقة يحوط بكما الورد والنرجس ، ماذا تحدثك به نفسك مهما كنت تقيا ورعا » .

« ويظهر أن حضرته قد أغفل عمدا ذكر صفة الجمال ، لأنه يعلم تمام العلم بأنه ليس من لزوميات النساء وحدهن ، بل يوجد فى الذكور من يتصف بهذه الصفة . فهل يسمح لى أن أسائله : ما الذى تحدثك به نفسك مهما كنت ورعا تقيا إذا وجدت فى ذلك المكان مع صديق جميل المنظر؟ بالطبع سيقيم الدنيا على ويقعدها ، ويصفنى بأحط الأوصاف. ولكن هذا هو الواقع ياصديقى إذا أردتنى أن أنسج على منوالك ، وأتناسى وجود شىء اسمه الشرف والترفع ، فإذا لم يوجدا ؛ فلم لم تحصر الحجاب فى الجميل من الجنسين ؟ وهل تفكر ياسيدى أن عادة قوم لوط أكثر انتشارا فى بلاد الحجاب من أى مكان آخر؟» .

وقال عمر عنايت فى ١٤٩ من العدد المذكور :

« الاختلاط ضرورى للجنسين . فإذا تشبثتم بفكرة الفتنة وبفكرة ضعف المرأة ؛ فهلا حاولتم حجب وجه الرجل دونها ، لأنها أكثر منه تعرضا للفتنة ؟ بل هلا حاولتم بالأقل الحجر على من هو جميل من الرجال ؟ لأن الجمال هو الداعى الأكبر للافتتان ، وليس مجرد الأنوثة ، أريد أن أسر إليكم يا أنصار الحجاب الأتقياء بما هو معلوم لديكم وهو : أينما وجد التحجب انتشر اللواط » .

Marfat.com

هذه أمثلة مما كتبه أنصار الاختلاط بين الجنسين تأييدا لرأيهم. ويمكننا أن نقول: إن اجتماع الرجل بالمرأة يأتى بثمرة ، فلمن تنسب هـذه الثمرة ؟ ونحن مازلنا نتمسك بالزواج من البنت البكر ، وما زلنا نتحرى عن سمعة الفتاة قبل أن نتزوج بها ، فى حين أن أهل الفتاة لايتحرون عن سمعة الشباب من الناحية الجنسية . ثم إن اللواط موجود بكثرة فى أوربا وأمريكا ، فبم نعلل ذلك ؟ وهذه البلاد لا تعرف الحجاب . انظر إلى ما نشرته صحيفة الجمهورية فى ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « الشذوذ الجنسى عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية » وهو : « وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التى كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسى الذى يحدث بين البالغين وبرضاهم عملا مشروعا لا يعاقب عليه القانون . وكان كبير أساقفة كانتبرى «جوفر فيشر» هو الذى قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التى تمت الموافقة عليها فى مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتا ضد ١٣٨ » .

* * *

وعلى كل حال فإن المسلمين اضطرتهم ظروف الحياة ، وبخاصة فى المدن الكبرى إلى التساهل فيما يتعلق بالزنا . وذلك لأن الشاب المسلم يظل يتلقى العلم حتى يجاوز العشرين أو الخامسة والعشرين . وإذا وجد عملا فإن دخله لا يمكنه من الزواج إلا بعد أن يتجاوز الثلاثين . وعوامل الإغراء أمامه كثيرة ، فى الشارع ، وفى السيارات العامة ، وفى دور اللهو وفى القصص والروايات والصور ، وفى المعاهد والجامعات .

وأصبحت الفتاة المسلمة لا تجد غضاضة فى أن تظهر مفاتنها وتكشف عن صدرها وظهرها ، وتدهن بالمساحيق خديها وشفتيها . وتظهر على الشواطئ بملابس البحر. فالواقع أن الوازع الدينى من هذه الناحية إن لم يكن انعدم تماما ، فهو فى طريق الانعدام.

* * *

Marfat.com

واختلف المسلمون : هل يقيدون الزواج بواحدة ؟ أم يتركون الناس على ما أباحه لهم الدين ؟

وقد ظهر الرأى القائل بالتقييد فيما كتبه قاسم أمين ومن جاء على أثره من المفكرين . وكان من المسلمين من يرى فى هذه الدعوة كفرا . وقد كتبت صحيفة « المؤيد » فى ١٤ مارس سنة ١٩١٤ تحت عنوان « رد نزعة إلحادية » مقالا جاء فيه :

« نشر الدكتور عبده البرقوقى مقالة فى تعدد الزوجات افترى فيها على الدين ما شاء » .

« لقد صدق رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « تَفْتَرِقُ أُمَّتِى عَلَى بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، أَعْظَمُهَا عَلَى أُمَّتِى قَوْمٌ يَقِيسُونَ الْأُمُورَ بِرَأْيِهِمْ ، فَيُحِلُّونَ الْحَرَامَ ، وَيُحَرِّمُونَ الْحَلَالَ » .

« فإن هذه الفرقة ظهرت على الناس فى أوائل هذا القرن ، ولكن لم يظهر تأثيرها إلا قريبا . وقد أفسدت على الناس دينهم بآرائها الفائلة ، وأباطيلها الغرارة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . بل هذه حملة مدبرة ضد الإسلام والمسلمين أقامها هؤلاء الفلاسفة ليقوضوا أركان هذا الدين الكريم » .

إلا أننا نرى أحد علماء الأزهر ، وهو الشيخ محمد أبو زيد يقول : « إن الزواج[1] بواحدة هو الأصل فى الفطرة ، لأن فيه تبادل الحب بين الزوجين ، وحصر أفكارهما فى إصلاح أولادهما ، وتعاونهما على المشاركة فى الحياة ».

« وأما تعدد الزوجات فمفرق للحب ، وموجد للنزاع بين الزوجات والأولاد ، ومقلق لبال الرجل ، وباعث على إفساد نظام الأسرة . وأن الله الذى يشرع الأحكام لتنظيم الفطرة يعلم أن المرأة لا تقل عن الرجل غيرة على الزوج وحبا فى الانفراد به » .

وقد انتصر الرأى القائل بعدم التقييد ، وخاصة بعد أن اتضح إخفاق التجربة التى

---

(١) الزواج والطلاق المدنى فى القرآن ص ٢١ .

Marfat.com

حدثت فى تركيا، إذ اتضح للحكومة التركية أن تقييد الزواج بواحدة ، أدى إلى انتشار زيجات سرية ، كما أدى إلى اختلاط غير شرعى بين الجنسين .

* * *

واختلفوا كذلك فى جواز ترجمة القرآن . فقال بعضهم إن القرآن متى ترجم تكون ترجمته تبديلا لكلمات الله ، وقد نهى الله عن ذلك . قال الشيخ حسنين مخلوف[1] :

« . . . ومن أسوإ هذه الأعمال ، وأكثرها شرًّا ، وأعظمها ضررًا ، وأشدها اجتراء على كتاب الله ترجمته ترجمة حرفية ، فإنها ضرب من التحريف والتغيير والتبديل فيما تولى الله ورسوله حفظه ، وأمرنا بالمحافظة عليه » .

وهو يرى أن ترجمة التفسير جائزة بشرط أن يكون التفسير صحيحا . إلا أن الأتراك قاموا بترجمته ، وهم يتلونه بلغتهم .

أما تسجيل القرآن على اسطوانات الحاكى ، فقد تعرض لها الشيخ مخلوف فقال :

« وأى استهانة بكلام الله القديم ، واستخفاف بشأنه أبشع من نقل ألفاظه الشريفة ، وآياته المقدسة بآلات لا تدار إلا للطرب بالأناشيد الغرامية ، والمداعبات الفكاهية ، واللهو بالهجر من القول ؟ ! » .

ولما أقيمت دار الإذاعة كرر بعضهم هذه الأقوال ، وزاد عليها أن المذياع يوضع فى المقاهى ، وفى الخمارات ، وبيوت الدعارة وفى هذه الأحوال يتعرض كلام الله لضروب من الاستهزاء والسخرية .

* * *

وفيما يتعلق بالنحت والتصوير وإقامة التماثيل فقد أجازها المسلمون وبخاصة فى هذه الأيام ، وقالوا إن الأغراض التى دعت إلى تحريمها قد انتفت ، ولا خوف منها على العقيدة .

• • •

(١) رسالة فى حكم ترجمة القرآن طبعت سنة ١٩٢٥ .

Marfat.com

الإمامة :

من المعروف أن المسلمين أجمعين قد اتفقوا فيما مضى على أن الإمامة واجبة شرعاً وأن أمور الدين لا تستقيم إلا بوجود الإمام ، ولم يشذ عن هذا إلا الخوارج .

وفى سنة ١٩٢٤م ألغت حكومة مصطفى كمال الخلافة العثمانية ؛ وقد أصدر المجلس الوطنى التركى رسالة شرح فيها وجهة نظره فى إلغاء الخلافة . إلا أن الرأى العام فى العالم الإسلامى لم يقابل هذا العمل بالارتياح . وأخذ بعض مفكرى المسلمين يتبادلون الآراء لإقامة خلافة إسلامية .

أما الرسالة التى أصدرها المجلس الوطنى التركى بعنوان : « الإسلام وسلطة الأمة » فقد ترجمت إلى اللغة العربية وطبعت بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٢٤ .

وفى سنة ١٩٢٥ أصدر على عبد الرازق ، وكان قاضيا بمحكمة المنصورة الشرعية الابتدائية كتابه « الإسلام ونظام الحكم » وبين الاسمين تشابه كما ترى .

وقد جاء فى كتاب « الإسلام وسلطة الأمة » ص ٥ مانصه :

« إن هذه المسألة ـ الخلافة ـ دنيوية وسياسية أكثر من كونها مسألة دينية . وإنها من مصلحة الأمة نفسها مباشرة ، ولم يرد بيان صريح فى القرآن الكريم ولا فى الأحاديث النبوية فى كيفية نصب الخليفة وتعيينه ، وشروط الخلافة ماهى ... »

وقال على عبد الرازق فى ص ١٦ مانصه : « إنه لعجب عجيب أن تأخذ بيديك كتاب الله الكريم ، وتراجع النظر فيما بين فاتحته وسورة الناس ، فترى فيه تصريف كل مثل ، وتفصيل كل شىء من أمر هذا الدين (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ) ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الإمامة العامة ، أو الخلافة . إن فى ذلك لمحالا للمقال ! ليس القرآن وحده الذى أهمل تلك الخلافة ، ولم يتصد لها ، بل السنة كالقرآن أيضا ، قد تركتها ولم تتعرض لها » .

وفى رسالة المجلس الوطنى التركى ص ٤ مانصه : « إن الفرقة المسماة بالخارجية تنكر

Marfat.com

وجوب الخلافة ، وتقول إن أمر نصب الخليفة وتعيينه ، ليس واجبا على الأمة الإسلامية، بل هو جائز، ووجوده وعدم وجوده سيان » .

ويقول على عبد الرازق فى ص ٣٣ مانصه : « . . . فكيف وقد قالت الخوارج لايجب نصب الإمام أصلا ، وكذلك قال الأصم من المعتزلة ، وقال غيرهم أيضا كما سبقت الإشارة إليه . وحسبنا فى هذا المقام نقضا لدعوى الإجماع أن يثبت عندنا خلاف الأصم والخوارج وغيرهم ، وإن قال ابن خلدون إنهم شواذ » .

وهكذا ردد على عبد الرازق فى كتابه ماجاء فى رسالة المجلس الوطنى التركى ، وزاد عليها شيئا من فساد الفهم ، وسوء الأدب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وحق كبار الصحابة .

وقد قابلت الدوائر الاستعمارية والمراكز التبشيرية المسيحية كتاب على عبد الرازق بالترحيب والتصفيق ، وذلك لخشيتها من كل فكرة ترمى إلى تكتل العالم الإسلامى ، وارتياحها إلى نشر مثل هذه الآراء الخبيثة التى ضمنها على عبد الرازق كتابه ، تلك الآراء التى تخدم أهداف الاستعمار وتحقق آماله فى السيطرة على الشعوب الإسلامية وإذلالها إلى الأبد . وقد كشف المؤلف عن نفسه الخبيثة فى حديثه مع مراسل صحيفة « البورص إجبسيان » ، حينما سأله هذا المراسل :

— هل يمكن أن نعتبرك زعيما لمدرسة ؟

فأجاب : لست أعرف ماذا تعنى بزعيم مدرسة . فإن كنت تريد بهذا أن لى أنصارا ؛ يسرنى أن أصرح لك أن الكثيرين يرون رأيى ، لافى مصر وحدها ، بل فى العالم الإسلامى بأسره . وقد وصلتنى رسائل التأييد من جميع أقطار العالم التى نفذ إليها الإسلام . ولاريب أنى رغم الحكم ، لا أزال مستمرا فى آرائى وفى نشرها ، لأن الحكم لايعدل طريقة تفكيرى » .

« وسأسعى إلى ذلك بكل الوسائل الممكنة كتأليف كتب جديدة ، ومقالات فى الصحف ، ومحاضرات وأحاديث» .

Marfat.com

والآراء التى أراد على عبد الرازق أن ينشرها بين المسلمين ، ويؤلف فيها الكتب تتلخص فى الطعن فى حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ، واتهام كبار الصحابة بأشنع التهم . ولم يكن من بين هذه الآراء الحض علي مكافحة الاستعمار ، والجهاد فى سبيل الاستقلال والحرية ، ولا عجب فى ذلك ، فبيت عبد الرازق كان فى ذلك الوقت من البيوت العريقة فى خدمة الاستعمار ، فقد أنشأ حسن عبد الرازق حزب الأمة سنة ١٩٠٨ لمحاربة الحركة الوطنية . وبعد سنة ١٩١٩ م انضم آل عبد الرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين الذى كان يعمل مع الإنجليز .

• • •

وقد انعقدت هيئة كبار العلماء برياسة المرحوم محمد أبى الفضل الجيزاوى ، شيخ الجامع الأزهر فى ذلك الوقت ، صباح الأربعاء ٢٢ المحرم سنة ١٣٤٤ هـ (١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥) وكان عدد أعضائها أربعة وعشرين عالما . ولما مثل على عبد الرازق أمام الهيئة حياها بقوله « السلام عليكم » فلم يرد عليه أحد . وبعد مناقشة طويلة ، أصدرت الهيئة حكمها بإدانة المتهم ، وإخراجه من زمرة العلماء .

ويترتب على الحكم المذكور : محو اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر والمعاهد الأخرى، وطرده من كل وظيفة ، وقطع مرتباته فى أى جهه كانت وعدم أهليته القيام بأية وظيفة عمومية ، دينية كانت أو غير دينية .

أما حيثيات الحكم ، فنوجزها فيما يلى :

١ ــ أن الشيخ عليا جعل الشريعة الإسلامية ، شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا .

وقد ردت الهيئة على هذا الزعم الباطل بأن الدين الإسلامى هو إجماع المسلمين على ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، من عقائد، وعبادات، ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا

Marfat.com

والآخرة ، وأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة فى أمور الدنيا ، وأحكام كثيرة فى أمور الآخرة .

وقالت الهيئة : وواضح من كلامه ـ المؤلف ـ أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة ، جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط ، وأن مابين الناس من المعاملات الدنيوية وتدبير الشئون العامة فلا شأن للشريعة به ، وليس من مقاصدها .

وهل فى استطاعة الشيخ أن يشطر الدين الإسلامى شطرين، ويلغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الكتاب العزيز، وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم عرض الحائط ؟ !

• • •

٢ — ومن حيث إنه زعم أن الدين لايمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان في سبيل الملك ، لا فى سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

فقد قال « . . . وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين ، ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله » .

ثم قال : « . . . وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة ، فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة إلى الدين وإبلاغ رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك » .

على أنه لايقف عند هذا الحد ، بل كما جوز أن يكون الجهاد فى سبيل الملك ، ومن الشئون الملكية ، جوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم ، ونحو ذلك فى سبيل الملك أيضاً . وجعل كل ذلك على هذا ، خارجا عن حدود رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لم ينزل به وحى ، ولم يأمر به الله تعالى .

والشيخ على لايمنع أن يصادم صريح آيات الكتاب العزيز ، فضلا عن صريح الأحاديث المعروفة ، ولا يمنع أن ينكر معلوما من الدين بالضرورة .

Marfat.com

وذكرت الهيئة الآيات الواردة فى الجهاد فى سبيل الله ، والآيات الخاصة بالزكاة ، وتنظيم الصدقات ، وتقسيم الغنائم ، وهى كثيرة .

• • •

٣ — ومن حيث إنه زعم أن نظام الحكم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان موضع غموض ، أو إبهام ، أو اضطراب ، أو نقص ، وموجبا للحيرة .

وقد رضى لنفسه بعد ذلك مذهبا ، هو قوله : « إنما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية رسالة غير مشوبة بشىء من الحكم » . وهذه هى الطريقة الخطيرة التى خرج إليها ، وهى أنه جرد النبى صلى الله عليه وسلم من الحكم .

وما زعمه الشيخ على مصادم لصريح القرآن الكريم . فقد قال الله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) ثم أوردت الهيئة آيات كثيرة تتضمن معنى الآية السابقة ، وتنحو نحوها .

• • •

٤ — ومن حيث إنه زعم أن مهمة النبى صلى الله عليه وسلم، كانت بلاغا للشريعة مجردا عن الحكم والتنفيذ ، ولو صح هذا لكان رفضاً لجميع آيات الأحكام الكثيرة الواردة فى القرآن الكريم . ومخالفا أيضا لصريح السنة ، ثم أوردت الهيئة كثيرا من الآحاديث التى تهدم مزاعم المؤلف ، وختمت ذلك بقولها : « فهل يجوز أن يقال بعد ذلك فى محمد صلى الله عليه وسلم ، إن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان وإنه لم يكلف أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه؟ » ..

• • •

٥ — ومن حيث إنه أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام ، وعلى أنه لابد للأمة ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا . وقال إنه يقف فى ذلك فى صف جماعة غير قليلة من أهل القبلة، يعنى بعض الخوارج والأصم؛وهو دفاع لايبرئه من أنه خرج على

Marfat.com

الإجماع المتواتر عند المسلمين . وحسبه فى بدعته أنه في صف الخوارج ، لاقى صف جماهير المسلمين .

* * *

٦ ـــ ومن حيث إنه أنكر أن القضاء وظيفة شرعية، وقال إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية،جعلوه متفرعا عن الخلافة ، فمن أنكر الخلافة أنكر القضاء . وكلامه غير صحيح ، فالقضاء ثابت بالدين على كل تقدير، تمسكا بالأدلة الشرعية التى لا يستطاع نقضها .

* * *

٧ ـــ ومن حيث إنه زعم أن حكومة أبى بكر ، والخلفاء الراشدين من بعده ، رضى الله عنهم ، كانت لادينية ، وهذه جرأة لادينية ، ودفاع الشيخ على بأن الذى قصده من أن زعامة أبى بكر لادينية ، أنها لاتستند إلى وحى ، ولا إلى رسالة، مضحك موقع فى الأسف ، فإن أحداً لا يتوهم أن أبا بكر رضى الله عنه ، كان نبيا يوحى إليه ، حتى يعنى الشيخ على بدفع هذا التوهم .

لقد بايع أبا بكر رضى الله عنه ، جماهير الصحابة من أنصار ومهاجرين ، على أنه القائم بأمر الدين فى هذه الأمة بعد نبيها محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن ماوصم به الشيخ على أبا بكر رضى الله عنه ، من أن حكومته لادينية ، يقدم على مثله أحد من المسلمين ! فالله حسبه ، ولكن الذى يطعن فى مقام النبوة يسهل عليه كثيرا أن يطعن فى مقام أبى بكر وإخوانه الخلفاء الراشدين ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذه خلاصة الحيثيات التى بنت عليها هيئة كبار العلماء حكمها السالف الذكر ، وكان الحكم قد صدر فى شهر أغسطس، أي فى وقت الصيف حيث كانت دار المندوب السامي خالية من كبار رجالها؛ لم يستطع هؤلاء أن يعملوا شيئا لإنقاذ الشيخ على وبخاصة

Marfat.com

بعدصدور حكم هيئة كبار العلماء ، وثورة الرأى العام ضد المؤلف فتخلوا عنه كماهى عادتهم فى مثل هذه الظروف، وبذلك فصل من وظيفته،وقد كشفت صحيفة «ليفربول بوست» البريطانية عن هذه القبائح والمنكرات التى دبرها الاستعمار البريطانى ، واتخذ على عبد الرازق وسيلة لتنفيذها ، تعاونه طغمة من حزب الأحرار الدستوريين . نشرت الصحيفة المذكورة فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٢٥ مقالا جاء فيه : « . . . ولما عجز الأزهر عن حمل الحكومة على محاكمة الشيخ على عبد الرازق ؛ أصدر قرارا بفصله من زمرة العلماء ، ولكن الرأى العام المصرى لايؤيد تحفز الأرثوذكسية الإسلامية للشجار ، وقد بذلت مساع جدية لإحباط خططها ، وسنرى إذا كانت هذه الأرثوذكسية ستنجح فى فصل رجال الدين المصريين عن غيرهم وربما هزت حادثة مصطفى كمال أدمغة المصريين وأحدثت لغطا بينهم » .

• • •

وبعد اثنين وعشرين عاما؛غيرت هيئة كبار العلماء رأيها فى الشيخ على عبد الرازق: فبعد أن كان سنة ١٩٢٥ كافرا خارجا على الإسلام ، منكرا لكثير مما ورد فى القرآن والسنة ، إذا هو فى سنة ١٩٤٧ مؤمن يستحق العطف ويستوجب العفو انظر إلى ما نشرته صحيفة الأهرام فى ٢٦ ـ ٢ ـ ١٩٤٧ تحت عنوان « العلماء يلوذون بالعرش فى مسألة على عبد الرازق بك » وهو :

« عندما أصابت الأزهر تلك الصدمة التى نزلت فجأة فى شيخه الأكبر المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق؛اتجهت نية كبار العلماء إلى تكريم ذكراه فى شخص شقيقه الأستاذ على عبد الرازق بك ، وذلك بأن يلوذوا بالسدة الملكية ملتمسين عفوا ملكيا عن أثر القرار الذى اتخذته هيئة كبار العلماء من قبل ، فما اختمرت هذه الفكرة حتى أخذت سبيلها إلى التنفيذ ، وأعدت صيغة الالتماس الذى يرفع فى هذا الشأن . وحمله إلى القصر العامر جماعة كبار العلماء وأعضاء المجلس الأعلى للأزهر » .

Marfat.com

« ومما هو جدير بالذكر؛ أنه روعى فى رفع هذا الالتماس أن تتقدم به الهيئتان العلمية والتنفيذية فى الأزهر . تمثل الأولى : جماعة كبار العلماء ، وتمثل الثانية : المجلس الأعلى للأزهر ، وأن يكون الملاذ فى ذلك ؛ هو جلالة صاحب العرش ، بعد أن تبين أن جماعة كبار العلماء لاتملك بوضعها الحالى أن تتخذ قرارا جديدا بإلغاء قرارها الأول فى مسألة الأستاذ على عبد الرازق بك؛ إذ أن مثل هذا القرار يجب أن يصدر بأغلبية ثلثى أعضائها ، على أن يكون من بينهم شيخ الأزهر . وذلك يقضى قرارا من عشرين عضوا ، على حين أن الأحياء من أعضاء الجماعة لايبلغون هذا العدد » .

هذا مانشرته الصحف فى ٢٦ ـ ٢ ـ ١٩٤٧ ، ومنه نرى أن علماء الأزهر ، بما فيهم هيئة كبار العلماء كانوا مدفوعين من تلقاء أنفسهم إلى طلب العفو عن على عبد الرازق، وأن هيئة كبار العلماء لم يتوفر فيها العدد القانونى الذى يمكنها من إلغاء قرارها الصادر فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ ، فلذلك لجأت إلى الملك . والحق أن هذا كله محض كذب وافتراء ، فقد أراد الملك فاروق أن يعين على عبد الرازق وزيرا للأوقاف ، فأمر شيوخ الأزهر بأن يقوموا بهذه الحركة ، فأطاعوا وتبرعوا بالكذب .

وفى يوم ٣ مارس سنة ١٩٤٧ نشرت الصحف مرسوما بتعيين على عبد الرازق وزيرا للأوقاف .

والعجب أن يكون تكريم ذكري مصطفى عبد الرازق عَلَى حساب الدين ؛ هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى القرار الصادر سنة ١٩٢٥ . وإلى الضجة الهائلة التى أحدثها علماء الأزهر حول الكتاب ومؤلفه .

• • •

وعلى كل حال فإن المؤتمرات التى عقدت للنظر فى إقامة خلافة إسلامية قد باءت بالفشل ؛ وذلك بفضل دسائس الاستعمار. والمسلمون من أهل السنة قد انصرفوا عن النظر فى هذا الموضوع نهائيا . فيبدو أنهم اعتنقوا مذهب الخوارج فى الإمامة .

Marfat.com

تناول بعض الباحثين المسلمين القرآن الكريم والسيرة النبوية تناولا أدى بهم إلى الكفر الصريح على أن منهم من رجع عن آرائه وتبرأ منها وعاد إلى حظيرة الإسلام ، والله أعلم بالسرائر .

وممن نحا هذا النحو :

١ ـــ منصور فهمى (١٨٨٦ ـ ١٩٥٩)

سافر منصور فهمى إلى فرنسا سنة ١٩٠٨ فى بعثة على نفقة الجامعة المصرية ، فوضع رسالة للحصول على درجة دكتوراه الدولة ، موضوعها « حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها » .

La Condition de la femme dans la tradition et l'evolution de l'islamisme .

وقد جاء فى ص ١٥ ما ترجمته :

« محمد يشرع لجميع الناس ويستثنى نفسه » « ومع أنه ـ يعنى محمدا ـ كان المشرع الذى ينبغى أن يخضع لما يدعو إلى تطبيقه على الآخرين ، إلا أنه كان له ضعفه ، واختص نفسه ببعض المزايا » .

وقال فى الصفحة المتقدمة ما ترجمته :

« . . . وفى الساعة التى كان يعود فيها إلى شعوره كإنسان ، كان ينبغى عليه أن يدرك أن من الصعب عليه أن يخضع للقوانين التى جاهر بها باسم الرب . ومع ذلك فإنه

Marfat.com

عزم باعتباره رسولا ، أن يلزم بقوانينه الأمة التى يريد أن ينشئها، إلا أنه سرعان ماوجد حلا لتلك المشكلة ، فاختص من حمل برسالة إلهية بميزات لايحظى بها العاديون من الفانين » .

وقال فى ص ١٦ ما ترجمته :

« وهكذا نجد أنه ـ يعنى محمدا ـ بعد أن ينام نوما عميقا، يقوم ليؤدى صلواته دون أن يجدد طهوره ووضوءه ، على حين أن المؤمنين الآخرين، كان عليهم الشروع فى وضوء وطهور جديد . ومن أجل أن يبرر الاستثناء الذى عمل لصالحه ؛ اكتفى بأن قال : إن عينى تنام ، ولا ينام قلبى أبدا » .

وقال فى ص ١٨ ماترجمته :

« ولقد حد النبى من نظام تعدد الزوجات ، إلا أنه تعدى بالنسبة إلى نفسه ماوضعه من حدود للآخرين . فمع أن بقية المؤمنين لم يكن فى مقدورهم أن يتزوجوا بأكثر من أربع نساء ، فإن محمدا أجاز لنفسه أن يتزوج بأكثر من ذلك . هذا كما أنه استلزم لشرعية الزواج : دفع مهر ، ووجود شهود ، إلا أنه فى زواجه أعفى نفسه من المهر والشهود » .

وهكذا مضى منصور فهمى فى كتابه على هذه الوتيرة. ونشره فى باريس سنة ١٩٠٣.

•

وقد كتب لمرحوم « محمد لطفى جمعة » مقالا طويلا نشرته صحيفة « المؤيد » فى ٢٨ يناير سنة ١٩١٤ وفيه رد قوى على مزاعم منصور فهمى الذى اعتمد على الأحاديث الموضوعة والضعيفة ، ومع ذلك فلم يشأ أن يفهمها على وجه صحيح ، بل فهمها على وجه خطإ ، لأغراض قبيحة انطوت عليها نفسه الخبيثة .

وبين المرحوم محمد لطفى جمعة الحكمة فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بأكثر من أربع ، والظروف التى أحاطت بكل زواج ، وما ترتب على ذلك من فوائد سياسية

Marfat.com

واجتماعية عززت مكانة الإسلام ، ووطدت أركانه فى شبه الجزيرة . وذكر أن حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، من يوم مولده إلى أن بعث وهو فى الأربعين من عمره ، كانت حياة طهر وعفاف ، وصلاح واستقامة. ولو أنه كان شهوانيا مفرطا فى حب النساء لاقتنى أكثر من امرأة ، وبخاصة وأنه كان شابا ، ولم توجد أمامه عقبة تحول بينه وبين التمتع بالنساء . أما وأنه قد تزوج بأكثر من امرأة ، وهو بعد الأربعين ، وبعد أن شغل بنشر الرسالة ، وحمل أعباء الجهاد ، فهذا لا يرجع إلى نزوات حيوانية ، وإنما يرجع إلى ظروف خاصة ، هى التى سبقت الإشارة إليها . واستشهد كاتب المقال بأقوال المنصفين من كتاب الغرب ، وكلها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، والثناء عليه ، والإشادة بطهره وعفافه ، واستقامته ونزاهته .

• • •

على أن فترة الشك لم تطل عند منصور فهمى ، فقد رجع إلى حظيرة الإسلام منذ سنة ١٩١٥ ، وله خطبة ألقاها فى الاحتفال بعيد الهجرة سنة ١٣٦١ هـ جاء فيها :

« . . . ذلك لأننا فى هذا اليوم المحتفى بمقدمه : قد نتسمع فى صميم وجداننا المرهف صوتا مدويا ينبعث من خلال هذه القرون الخالية ، ليلقى فى سمعنا أنشودة البطولة المحمدية الرائعة ، ويهز عواطفنا لمطلع دين جديد ، إنسانى سمح عظيم . ويذكرنا بروائع الجهاد البالغ ، حين حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمانته ، فحملها وثقا لكى يبلغها إلى الناس كاملة . ولكى تتشخص على الأرض نعمة الله ، حين يضع للناس دستورا ، ويرسم لحياتهم نظاما يؤمنهم من وساوس الشك ، وينقذهم من تضليل الارتياب » .

وله خطب كثيرة ومقالات تدل على عمق إيمانه بالله ، وعلى تمسكه بالدين الإسلامى .

• • •

Marfat.com

٢ — طه حسين

فى سنة ١٩٢٦ م أصدر طه حسين كتابه : « فى الشعر الجاهلي » . وقد جاء فى ص ٢٦ مانصه :

« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا ، أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى » .

ثم قال أيضا فى الصفحة المذكورة :

« ... فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة، إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ، ويبثون فيه المستعمرات . فنحن نعلم أن حروبا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين ، وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد ، وانتهت بشىء من الملاينة ، ونوع من المحالفة والمهادنة ، فليس ببعيد أن يكون هذا الصلح الذى استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد ؛ منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء أعمام ، لاسيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئا من التشابه غير قليل ، فأولئك وهؤلاء ساميون » .

وقال فى ص ٢٧ ما نصه :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة فى القرن السابع للمسيح .

* * *

Marfat.com

وقد استدعت النيابة العمومية المؤلف وحققت معه ، وكان التحقيق منحصرا فى النقط الآتية :

١ ــ مسألة وجود سيدنا إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، وأن هذه القصة أسطورة مختلقة لأغراض دينية وسياسية .

٢ ــ مسألة أن القراءات السبع للقرآن الكريم لم تنزل ، وأنها وردت على لسان القبائل ، كما هو ظاهر من لهجاتها .

٣ ــ قوله إن الإسلام ليست له سابقة وجود فى البلاد العربية .

٤ ــ نفى إسناد نسب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أشراف قريش .

• •

وقد أجاب المؤلف فى التحقيق بأنه يقرر صدق هجرة إسماعيل عليه السلام إلى مكة، ويؤمن بقصة بناء الكعبة كما وردت فى القرآن ، ويؤمن بتنزيل القراءات ، بصفته مسلما معتقدا،ولكنه لا يقرها بصفته عالما أديبا ، وقال إن عدم إقرارها هو الطريق الوحيد العلمى للوصول إلى حقائق الشعر الجاهلى وتاريخه . وأنه عند ما ألف كتابه قال صراحة إنه لن يعرض للدين ، وأنه سيقصر بحثه على العلم والاستدلال بالعلم .

وسأله المحقق عما إذا كان يعتقد أن القرآن وحده كاف لإثبات الوقائع التى وردت فيه فأجاب على ذلك مقسما الوقائع إلى قسمين :

١ ــ الحوادث المعاصرة لنزول القرآن ، وهو صحيح .

٢ ــ الحوادث التى حدثت قبل نزول القرآن . فهى عبارة عن قصص أراد الله بها إقناع عبيده وهدايتهم ، وهى تنطبق على مسألة الهجرة وخلافها من المسائل .

• • •

فطه حسين يقرر أنه كمسلم مؤمن بالإسلام ، يعتقد بصحة كل ما جاء فى القرآن الكريم عن إبراهيم وإسماعيل ، ولكنه كعالم وأديب لا يؤمن ولا يقر بشىء مما تقدم.

Marfat.com

فهو يعيش بعقلين فى وقت واحد : عقلية المتدين المؤمن، وعقلية العالم الذى يكفر بما جاء به دينه .

وإن الآراء التى أوردها المؤلف عن القرآن الكريم مأخوذة من كتب المبشرين ، وأعداء الإسلام من المستشرقين وبخاصة اليهود . وقد فندها كثيرون من الباحثين ، وردّ عليها كتاب مشهورون ردودا قوية مسهبة .

ولطه حسين مؤلفات دينية مثل : على هامش السيرة ، ومرآة الإسلام .

* * *

٣ ــ أمين الخولى

عين الشيخ أمين الخولى ، وهو من خريجى مدرسة القضاء الشرعى ؛ مدرسا بقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ،فرأى طه حسين يدعو إلى دراسة القرآن دراسة فنية عبر عنها بقوله[1] « إذا كان من حق الناس جميعا أن يقرءوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى . فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ، مادام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هى كتب مقدسة ، فلا يغض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد . وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم فى هذه الكتب من حيث هى موضع للبحث الفنى والعلمى ، بقطع النظر عن مكانتها الدينية ؟ ! .

فاعتنق أمين الخولى هذه الآراء ، وراح يروج لها ، ويدعو إليها . وقد كان يدرس مادتى التفسير والبلاغة ، وظل أمره مستورا إلى سنة ١٩٤٧ ، لا يدرى أحد فى خارج الكلية ما يلقنه أمين لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال .

فى هذه السنة ــ ١٩٤٧ ــ تقدم أحد الطلبة برسالة موضوعها « الفن القصصى فى القرآن الكريم » للحصول على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية ، وكان أمين هو

---

(١) فى الصيف لطه حسين .

Marfat.com

المشرف على هذه الرسالة ، والموجه للطالب فيما كتب . وقد رفضت الرسالة ، فرفع الطالب الأمر إلى وزير المعارف الذى أحال الرسالة إلى الشيخ محمود شلتوت ، عضو جماعة كبار العلماء ؛ للنظر فيها ، وإبداء الرأى .

فكتب فضيلته تقريراً جاء فيه :

يذكر المؤلف أن الذى دفعه إلى هذا البحث مارآه من :

١ ـ أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار ، يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخى الذى يعلمون ، وأنها تدل على جهل محمد بالتاريخ .

٢ ـ وأن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم قد استقبلوا كل ماذكر فى القرآن على أنه تعبيرات جادة ؛ يراد بها معانيها فيما جاءت به . وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التى لم يكونوا يعرفونها ، فقالوا إن أخبار الأولين آية صدق النبى ، ودليل على إعجاز القرآن .

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين ، وأولئك المستشرقين فى حكم واحد ، إذ يقول :

« وليس من شك عندى فى أن مصدر الخطإ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء ، وصدق كل ما فيها من تاريخ ، أو من أنكرها وادّعى أنها أخطاء تاريخية ، أو قصص ملفقة ، جهل أولئك وهؤلاء ، أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات » .

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلا آخر فى فهم القرآن ، سماه « الفن القصصى » ورأيه فى ذلك يتلخص فى أن القصص القرآنى نمط من أنماط القصة الفنية التى لا يلتزم الفنان فيها الصدق ومجرى الواقع ، وإنما يعطى نفسه من الحرية ما يغير به ويبدل ، ويزيد ويخترع .

ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها ، ولكنه يطرد هذا الشأن فى كل ما قصه القرآن ، سواء فى ذلك ماجاء عن الأنبياء والرسل والأمم ، وما جاء عن غيرهم ، فيذكر قصة آدم وإبليس ، وقصة الخليقة والملائكة ، وقصة كلام عيسى فى المهد ، ونجاته من

Marfat.com

اليهود ، وأنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ، وقصة موسى والعبد الصالح ، وقصة أهل الكهف ، وقصة سليمان والهدهد ، وقصة ناقة صالح ، إلى غير ذلك .

ثم لا يقف عند القصص القرآنى ، بل يطرد هذا الحكم ، أيضا ، على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصاف ، ونسب ماضية كانت أو مستقبلة . فيذكر سؤال الله لعيسى يوم القيامة : (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ [1]) ويذكر مثل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [2]) .

يذكر ذلك وأمثاله فى مجال مايقرره من أن القرآن ليس فيه مايدل على أن حوادث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى ، أو لاتلتئم ، وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لاتصدق . وإنما هو أسلوب قصد به غرض فكرة وراء ماتدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة ، أو مشايعة الواقع النفسى الذى كان سائدا عند المعاصرين ، استغلالا لمعلوماتهم ، وإن لم تكن صحيحة ؛ فى سبيل تأييد الدعوة التى جاء بها .

وقد زعم أن هذا تأويل للآيات ، وخاصة آيات القصص التى هى عنده من المتشابه ؛ يجرى فيها مذهب السلف ، ومذهب الخلف من التسليم ، أو التأويل .

ويستند إلى ماعرف عن العرب من التمثيل ، وما جاء فى بعض تمثيلات القرآن وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذي لاينظر إلى الواقع ، وإنما يجرى الكلام فيه على ما ألفه العرب فى هذا الباب ، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا ، إيحاء أو تصريحا ، وقد ذكر منهم الإمام الرازي ، والإمام محمد عبده .

هذه خلاصة فكرته ، وأهم عناصرها وعواملها .

• • •

ولا ريب أن هذه الأسس التى بنى عليها الكاتب بحثه ، أسس فاسدة . فما كان

---

(١) المائدة آية ١١٦ . (٢) البقرة آية ٦ .

Marfat.com

القرآن ليخضع فيما قصه من الأنبياء لما زعموه من تاريخ يناقض أو يخالف ما جاء فيه . فإن حال التاريخ قبل الإسلام ، كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده نفسه « كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام . فلا رواية يوثق بها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى » يقول هذا الشيخ محمد عبده فى نسبة قصص القرآن إلى التاريخ ، ومقارنتها به ، وقد قال فى هذا الصدد قبل ذلك « يظن كثير من الناس الآن ، كما ظن كثير من قبلهم ، أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق ، أو كتب التاريخ » ثم يقول فى هذا الشأن نفسه « وإذا ورد فى كتب أهل الملل ، أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح ، هو الحق وخبره الصادق ، وما خالفه هو الباطل وناقله مخطئ أو كاذب ، فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه » .

وقد ذكر الأستاذ الإمام هذا المبدأ الذى لا يعرف مؤمن سواه فى كثير من مواضع التفسير . وإذن فلا قيام لشبهة يوردها المستشرقون على قصص القرآن وتاريخه . كما لا قيمة لما يوردونه على تشريع القرآن وعقائده . فالقرآن مهيمن على كل ما عداه من تاريخ وكتب سماوية .

وهو مصدق لها فيما لم يحرف ، ومبين لما كانوا يخفون ويحرفون (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ[1] - إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ[2] - وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ[3]) .

تلك عقيدة المؤمنين . وما كان القرآن ، وقد قامت الأدلة على أنه من عند الله ، بالذي يتحاكم فى قضاياه إلى تلك الجهالات التاريخية ، لاسيما فى حقبة اشتبهت أعلامها ،

---

(١) المائدة آية ١٦ . (٢) النمل آية ٧٦ . (٣) المائدة آية ٤٧ .

Marfat.com

واشتد ظلامها كما يقول الشيخ محمد عبده . أو بالذى تضره مثل هذه الدعاوى التى ألفها الإسلام من خصومه منذ عهده الأول إلى يومنا هذا .

• • •

ولننظر بعد هذا فيما رمى به المسلمين منذ العهد الأول ، عهد المعاصرة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وابن عباس ، وابن مسعود ، ومن إليهم من أصحاب النبي ، وأهل اللسان العربى ، وقد سمعوا من رسول الله ، وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم ، وفهموا معانيه التى يدل عليها بتقتضى أساليب اللغة العربية ، وقد طبعوا عليها ، ورضعوا لبانها . واستمر هذا هو الشأن على جميع عصور المسلمين وعهودهم مدى أربعة عشر قرنا .

ننظر فيما رمى هؤلاء جميعا به من جهل أو تجاهل ، أو تأثر بما يخالف الواقع أوقعهم فى فهم القرآن على غير وجهه الذى فطن إليه الأستاذ وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات .

وختم الشيخ شلتوت تقريره قائلا :

وإن القرآن ؛ إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وزلزلت قضاياه فى كل ماتناوله من عقائد وتشريع ، وأخبار ، وأحوال مستقبلة كالبعث ، والحشر ، والحساب ، والجنة ، والنار ونحو ذلك . وانفتح لكل إنسان أن يقول فى كل هذا : ليس له مدلول ، ولا واقع يدل عليه ، ولكنه سيق لمجرد بعث الرغبة ، أو الرهبة ، أو العظمة ، أو تقويم النفوس وإصلاح المجتمعات (سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ[1] - إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ[2])

---

(١) النور آية ١٦ . (٢) الأعراف آية ١٥٥ .

Marfat.com

ذلك هو الرأى فى هذه الرسالة ، وفيما تجرأ به مؤلفها على كتاب الله . وإنها لشر مستطير ، من شأنه أن يفتح أبوابا من الفتن إذا مكن لها ، اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن فكانت هى الخالقة .

• • •

وقد وقعت رسالة الطالب فى يد بعض علماء الأزهر ، فأفتوا بكفره ، وبكفر أستاذه الذى أشرف على تحضيرها ووافق عليها .

الحركات الإلحادية بين المسلمين المعاصرين

منذ قامت حكومة مصطفى كمال فى تركيا عملت على تشجيع الحركات الإلحادية أدبيا وماديا . فألفت هناك كتبا كثيرة تهدف إلى التشكيك فى حقائق الأديان كلها ، والدعوة إلى تركها . وكان من ضمن القائمين بهذه الحركة « إسماعيل أحمد أدهم » الذي جاء إلى مصر وحاول نشر الأفكار الإلحادية بين أهلها . وقد ألف رسالة صغيرة عنوانها : « لماذا أنا ملحد ؟ » وطبعها فى مطبعة التعاون بالإسكندرية وعما جاء فيها «أسست جماعة نشر الإلحاد بتركيا . وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منها : ماهية الدين ، قصة تطور الدين ونشأته ، العقائد ، قصة تطور فكرة الله ، فكرة الخلود » .

« وبعد هذا فكرنا فى الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية ، وكان نتيجة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى « المجمع الشرقى لنشر الإلحاد » وكان صديقى البحاثة إسماعيل مظهر فى ذلك الوقت ـ ١٩٢٨ ـ يصدر مجلة العصور فى مصر ، وكانت تمثل حركة معتدلة فى نشر حرية الفكر والتفكير ، والدعوة للإلحاد » .

Marfat.com

وقد عرف الإلحاد بقوله « الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، وأن ثمة لاشىء وراء هذا العالم » .

إلا أن الدعوة الإلحادية بين المسلمين فى مصر يرجع تاريخها إلى سنة ١٩٢٤ حينما قام محمود عزمى ، وكتب فى صحيفة الأهرام داعيا إلى ترك الأديان لأنها قيود تعوق عن التقدم والرقى.

• • •

وقد جعل إسماعيل مظهر مجلته «المصور» منبرا لنشر الأفكار الإلحادية وترويجها . والطعن على العرب والعروبة طعنا قبيحا ، واتهام العقلية العربية بصفة خاصة ، والعقلية الآسيوية بصفة عامة بالتخلف والجمود والانحطاط . كما سخرها وياللعار ، فى خدمة المطامع الصهيونية ، والإشادة بأمجاد بنى إسرائيل ونشاطهم وتفوقهم واجتهادهم . وأخيرا سخرها فى خدمة التعاليم الشيوعية والآراء الفوضوية التى ينجم عنها التحلل من قواعد السلوك والتجرد من الفضائل المتفق عليها .

وقد حدث أن ظهر فى تركيا كتاب عنوانه « مصطفى كمال» للكاتب «قابيل آدم» وفيه مطاعن قبيحة فى الأديان وبخاصة الدين الإسلامي . كما تضمن اتهام العقلية الآسيوية بما هى منه بريئة كل البراءة . فلخص إسماعيل مظهر هذا الكتاب فى مجلته ، وقدم له بكلمة طويلة جاء فيها :

« من وراء الانقلابات التاريخية والثورات الاجتماعية تكمن البواعث النفسية والانفعالات والمعتقدات ، وفلسفة الحياة التى تفسر الجماعات على أن تهدم ماهو قائم لتشيد عليه بناء من لبنات تربط بينها الأفكار وللنازع العقلية والنفسية التى تكون قد استحدثت على مر الأيام . وليس فى التاريخ الحديث كله من انقلاب هو أشبه بالطفرة منه بأى شىء آخر كالانقلاب التركى الحديث . وهو ككل انقلاب أو فورة فجائية تكمن وراءه بواعث نفسية ومعتقدات وانفعالات تكون لدى الواقم فى مجموعها فلسفة توجه الفكرات

Marfat.com

والآراء إلى وجهة فى الحياة لايظهر منها إلا نتائجها التى تتجلى فى المعـــاهد التعليمية والنظامات السياسية والاجتماعية » .

« بهذا يؤمن كل من درس حوادث التاريخ مطبقة على علوم الاجتماع الحديثة . فإذا كان هذا هو الواقع ، وإذا اعتقدنا بأن وراء الظواهر الملموسة فى الانقلاب التركى الحديث قد كمنت فلسفة ساقت إليه ؛ كان الوقوف على حقيقة هذه الفلسفة أمر ضرورى للحكم على قيمة هذا الانقلاب ، ومقدار ثباته وقوته ، ومقدار تأثيره فى الادراك العام ، أو كما يدعونه اصطلاحا : العقلية العامة التى تتكون من مجموع الأغراض التى يرمي إليها زعماء الانقلاب » .

إلى أن قال : « وضع هذا الكتاب ـ أى كتاب مصطفى كمال ـ مؤلف من الظاهر أنه أحاط كثيرا بتاريخ تطور الفكر الإنسانى ، وعلى الأخص بتاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم فى العصور الوسطى . ولقد طبق المبادئ التى استخلصتها العقلية الأوربية من طريق جهادها الطويل إزاء اللاهوت على الحالة الواقعة فى الشرق أحسن تطبيق ، وعرف كيف يظهر آراءه وأفكاره فى قالب جلىّ واضح . ونجح كل النجاح فى إظهار الفرق بين العقلية الآسيوية كما سماها ، وبين العقلية الأوربية ، وقضى بأن العقلية الأوربية ارتقائية فى حين أن العقلية الآسيوية رجعية جامدة » .

أما الآراء التى أوردها المؤلف التركى فى كتابه ، والتى وصفها إسماعيل مظهر بالأصالة والصحة فنذكر منها :

« . . . وما من سبب لذلك التنابذ الشديد الذي قام بين فريقى الأمة التركية إلا وجود هذه العقلية ـ أى العقلية الأوربية ـ فى ناحية ، حيث تقوم فى ناحية أخرى العقلية الدينية العربية » .

« لم تسلم الأمم الآسيوية يوما ما من الفقر والتعاسة ، وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت أن تستقرئ أحكامها المعاشية كلها من تشريعها الدينى المقدس . ولن تقف على

Marfat.com

طابع آخر غير هذا إذا ماقلبت تاريخ مصر ، والهند ، وفارس واليابان القديمة ، والصين، وطوران، وبلاد العرب . فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلاطينها ، أولغيرهم من مقدمي الانتهازيين صفات قدسية حينا ، أو سلطة إيحائية حينا آخر . وكان من نتائج هذه العقلية أن ترددت الأمم الآسيوية فى هذه التعاسة والشقاء » .

« ... والحالة جلية واضحة . فلست تجد فى أوربا مثقفا أو غير مثقف يمضى فى أعماله متوا كلا على سلطة الوحى . أما فى آسيا فإنك لاتجد شيئا اللهم إلا الأنبياء والقديسين، والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة ، تجد الأوامر والنواهى القدسية متغلغلة فى تضاعيف العديد الأوفر من الشئون الخاصة الصرفة للناس، متحكمة فى كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والإدارية . ولديهم أن هذه الأوامر والنواهى هى أوامر الله ونواهيه ، وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها » .

« فإذا تبدل الزمان وتكيف ، وجمدت هذه الأوامر والنواهى مقصرة عن اللحاق بروح العصر نشوءا وارتقاء ؛ لاتجد من شىء اللهم إلا نبيا آخر مرسلا بتعاليم جديدة . ولا مرية فى أن تتابع ظهور الأنبياء فى آسيا طابع خاص بها ، لاتفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض » .

« على أن أعجب ماترى فى كل هذا أن كل نبي من هؤلاء الأنبياء قد نصح للناس وأهاب بهم أن ينكروا حقيقة هذه الحياة بكل ما فيها ، وأن يتلظوا حرقة إلى الحياة الآخرة . وفى هذا ينحصر كل ما يقصد بوذا من النرفانا ، وكل مايقصد الإسلام من الفردوس . وهذه العقلية قتلت فى الشرق فكرة النقد ، كما غشت على العقول والأفهام بأغشيتها الثقيلة » .

« بيد أن هؤلاء الأنبياء الذين حكموا الدول ، وساسوا الممالك ؛ لم يقنعوا بأن يفرضوا على الناس أوامر الدين ونواهيه ، بل صبغوهم بأخلاقهم . ودهنوهم بطلائهم . فإن الإسلام مثلا قد صبغ المسلمين ، فضلا عن الدين ، بصبغة الحياة العربية الاجتماعية في كل مكان

Marfat.com

وآن : واضطر الناس على أن يقبلوا مذعنين ، لا الله ولا الدين وحدهما ، بل حياة العرب العائلية والاجتماعية ، والخلق العربى ، والعادات العربية بصورة كلية ، واللغة العربية بصورة جزئية » .

« لقد لعن بوذا هذه الحياة . وكذلك مذاهبنا القديمة ، فإنها لم تعمل إلا لتمهد الطريق للحياة الأخرى . ولقد أخذت أمم آسيا كلها بموحيات هذه التعاليم النظرية . وعلى هذه القاعدة قيد اللاما أمة الصين ، والبراهمة أمم الهند ، والآخوند أمة الفرس ، وأئمة الإسلام تركيا . أما العقلية التى اختفت وراء هذه التعاليم فتتكون فى الاعتقاد بما يأتى :

١ — إن الحقيقة لا يمكن معرفتها بالعقل ، بل بالتقاليد .

٢ - إن الحياة لا يجب أن تحكم بمقتضى المبادئ الإنسانية المستمدة من غرائز الإنسان ، بل بمقتضى الشرائع المنزلة التى لا تتبدل ولا تتغير .

٣ - هذه الحياة فانية ، والأخرى باقية .

٤ - نسبة كل شىء إلى القضاء والقدر .

٥ — رفض الاعتقاد بضرورة الحياة القومية ، والعكوف على الخضوع للتقاليد الدينية .

٦ — الخضوع الكامل للرئيس الروحى » .

«وهذه القيود الحديدية، والأصفاد الثقيلة لم تترك للأمم الآسيوية من فرصة للخلاص. ولقد كانت هذه العقلية بمثابة تجربة حاول واضعوها أن يعرفوا إن كانت بذاتها وسيلة ناجحة للقضاء على الحياة والإنسان . ولا مرية فى أنها قطعت كل علاقة كائنة بين الناس والحياة الدنيا » .

« إن أهل الكلام من المسلمين لم يعنوا بتحرير الضمائر والأفكار ، كما أن التشريع الإسلامى لم يَحْبُ أهل الإسلام بحق الحياة والعمل . إن أهل الكلام قد أعاقوا العقل عن النماء والتطور ، كما أعاقت النظم التشريعية تطور الشعور الاجتماعى ، فنتج عن ذلك أن

Marfat.com

أصبح من أقصى المستحيلات أن يقع فى آسيا انقلاب ثورى لافى الصورة العقلية ، ولا فى النظام الاجتماعى » .

« لم تكن الديانات فى تاريخ آسيا كلها إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التى تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . إن ديانات آسيا كافة واحدة فى جوهرها . فإن تعاليم بوذا ، وكونفوشيوس ، وبراهما ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، كلها واحدة . فإن اختلفت فإنها إنما تختلف فى التفاضل ، لا فى القواعد » .

« ماهى الأسباب الأولية التى أحدثت تلك الفروق الكائنة بين العقلية الآسيوية والعقلية الأوربية ؟ » .

« يجب علينا أن نعى بداءة ذى بدء أنه لم يقم فى أوربا من نبى مثل بوذا ، أو كونفوشيوس ، أو موسى ، أوعيسى ، أو محمد ، ممن حملوا إلى الناس أوامر ونواهى إلهية ، ثم ألزموهم الخضوع لها قسرا وجبرا » .

هذه هى بعض آراء المؤلف التركى التى أخذها إسماعيل مظهر بعقليته الحمارية كأنها قضية مسلم بها ، لاتقبل الجدال ولا النقاش ، وشرع يطبل لها ويزمر .

ولو أن هذا الكاتب ألف كتابه فى هذه الأيام لجاءت آراؤه مغايرة لما تقدم . فالشعوب الآسيوية قد تحررت وهى سائرة فى طريق النهضة والتقدم والرقى ، وبذلك حطمت النظرية القائلة بتخلف العقلية الآسيوية وقصورها . والشعوب الآسيوية استطاعت أن تحافظ ، مع نهضتها ، على كيانها وتقاليدها وأديانها وعاداتها القومية . والشعب اليابانى الذى تفوق على الشعوب الأوربية حضارة ومدنية كان إلى وقت قريب يعبد الميكادو والمعابد البوذية منتشرة فى جميع أنحاء اليابان .

ولماذا أهمل المؤلف الكلام على العقلية الأفريقية؟ وإذا كان سبب تخلف الشعوب الآسيوية يرجع إلى وجود الأديان بها . فما هو السر فى تخلف الشعوب الأفريقية ؟ وما هو السر فى اندثار شعوب أمريكا واستراليا ؟ وهاهى تركيا قد تخلت عن الأديان ، وتبرأت

Marfat.com

من السمات الشرقية ، واتخذت الأساليب الأوربية فى جميع مرافق حياتها ، ومر على ذلك أكثر من ثلث قرن . فما هى الاختراعات التى توصل إليها الأتراك بعد انقضاء هذه المدة الطويلة ؟ وأين هى المصانع التركية ؟ وما قيمة مصنوعاتها بالنسبة للمصنوعات المصرية والهندية ؟ وما هو مبلغ الاقتصاد التركى من القوة والمتانة ؟ وكم تبلغ ميزانية التعليم فى تركيا إذا قيست بميزانية التعليم فى الجمهورية العربية المتحدة مثلا ؟ وهل اختفت مظاهر البؤس والشقاء من تركيا ؟ وهل يمكن أن يقال إن الشعب التركى بلغ من حيث الرقى والتقدم إلى مستوى شعب السويد مثلا ؟ وهل غزت الصادرات التركية الأسواق ، وأصبحت منافساً خطيرا لغيرها من الصادرات ؟ إن الجواب عن كل هذا قطعا ، بالنفى . وإذا كان الأمر كذلك ، فما هو السر فى بقاء تركيا متخلفة عن الشعوب الأوربية مع أنها اتخذت أساليب أوربا ، وعاشت بعقليتها منذ مدة طويلة ؟ ؟

إن اتهام الأديان بأنها كانت سببا فى تخلف الشعوب الآسيوية اتهام باطل . ولا يستطيع عاقل أن يقول إن بولندا مثلا أقوى من الصين ، أو بلغاريا أقوى من الهند ، أو رومانيا أقوى من الجمهورية العربية المتحدة ، أو اليونان أقوى من العراق . والشعوب الآسيوية هى التى هزمت الاستعمار الغربى وأجلته عن بلادها .

أما القول بأن الإسلام كان سببا فى تخلف تركيا فإنه يدل على جهل بالتاريخ . فالإسلام كان مصدر قوة عظيمة للعرب ، وبفضله استطاعوا أن يخرجوا من بلادهم الصحراوية ، ويؤسسوا إمبراطورية واسعة وما ذنب الإسلام إذا كان الأتراك لم يفهموا منه سوى الدروشة وتكبير العمائم وتطويل اللحى ، وإمساك المشايخ ، وإنشاء التكايا ؟ هل هناك آيات قرآنية تحرم علينا إنشاء المصانع والمدارس ؟ ويكفى فى هذا المقام أن نسوق شهادة شبلى شميل ، وهو ملحد من أصل مسيحى . قال فى عدد يناير من مقتطف سنة ١٩١٠ مانصه :

« خذ مثالا شريعة القرآن ، فإنها بين الشرائع الدينية الشريعة الوحيدة الاجتماعية

Marfat.com

العملية المستوفاة التى ترمى إلى أغراض دنيوية حقيقية ؛ بمعنى أنها لم تقصر على الأصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع ، بل اهتمت اهتماما خاصا بالأحكام الجزئية ، فوضعت أحكام المعاملات، حتى فروض العبادات أيضا . وهى من هذه الجهة شريعة عملية مادية ؛ حتى أن الجنة نفسها لم تخرج فيها عن هذا الحكم » .

* * *

اعتنق إسماعيل هذه الآراء وراح يروج لها فى مجلته ، وينسج على منوالها ، فكتب فى عدد مارس سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه :

« لم تحدد الأديان فكرة كاملة فى واجب الوجود يرضى بها العقل المستقبل فى دور ما من أدوار النشوء الفكرى، بل إن الأديان ألزمت الناس فيما ألزمتهم به الاعتقاد بوجود الله متخذة من سلطتها الاستعلائية مبررا إلى هذا الإلزام » .

ثم قال « أما تفكير الإنسان الجدى فأصبح فى تحديد علاقته ، لا بواجب الوجود ، ولكن بالكون ، فبعد أن أسقط العلم الإنسان عن عرش الملائكة العلوى، وأنزله إلى أفق الحيوان ، أخذت الإنسان فكرة جديدة : ليست باقل إشكالا من الفكرة التى ملكت زمامه من ناحية الأديان » .

« بعد أن أظهر النشوئيون أصل الإنسان الحيوانى ، وأثبتوه علميا ، وبعد أن أثبت الجيولوجيون قدم الأرض ، والفلكيون قدم النظام الشمسى ، وأظهر هؤلاء بأبحاثهم سلسلة التدرج الطويل التى مضى عليها الكون لينتهى بظهور الحياة فوق الأرض ، أخذ العقل الإنسانى سمته نحو التفكير كما هى عادته فيما يختفى وراء هذه السلسلة الطويلة من قصد ، وهل كانت متجهة بكل مافيها من الصور لأن تنتهى بالإنسان على أنه القصد الأخير منها ؟ » .

« أما الثابت حتى اليوم فليس مما يرضى نزعة التفاؤل فى مصير الإنسان ، ولست أدرى لماذا لايشارك الإنسان الحيوانات فى نهايتها المحزنة ؛ مادام يشاركها فى بداياتها الجميلة ؟ » .

Marfat.com

وكتب فى عدد مايو سنة ١٩٢٨ مقالا جاء فيه :

« ... على أن ظهور الأنبياء والرسل كان محدودا فى بقعة واحدة من بقاع الأرض؛ تحدها شمالا جبال طوروس، وجنوبا صحراء اليمن، وشرقا صحراء نجد، وغربا البحر الأحمر، فى هذه البقعة الصغيرة ظهر كل الأنبياء والرسل الذين اختار الله أن يكونوا هداة البشر منذ أبعد العصور التى نزل فيها الوحى على قلب إنسان . ولست تجد فى ذلك من حكمة تقع عليها ، أو أثر للتدبير وحسن القصد » .

« فهل كانت الشعوب التى ظهرت فيها الأنبياء والرسل الذين حملوا رسالة من الله؛ هى أكثر شعوب الأرض ضلالا وعدوانا ، وأشد كفرا وطغيانا ؛ ليستقوى الله عليهم بهذه المجموعة الكبيرة من الأنبياء والرسل ؟ وهل كان سكان سوريا وجزيرة العرب أكثر استحقاقا لعناية الله من سكان الصين أو غرب أوربا؟وهل كانت هداية الشعوب التى سكنت هذه البقاع كافية لهداية شعوب الأرض كافة إذا ما اهتدوا ؟ » .

« حقا ! إن هذه الظاهرة وحدها كافية لأن تبعث العقل على التأمل والاسترسال فى سلسلة طويلة من التفكير لاينتهى بها إلا حيث انتهى فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر » .

« قد نتساءل : كيف ترك أهل الهند نهبا لمذهب بوذا وبراهما ؟ وأهل الصين عرضا لمذهب كونفوشيوس ؟ وأهل كل بقعة من بقاع الأرض خاضعين لأساطير وخرافات ما أنزل الله بها من نبى ولا رسول ؟ أكان هذا الحكمة لاتدركها العقول البشرية ؟ هذا آخر ما يلجأ إليه اللاهوتيون ، ونهاية ما تنتهى إليه مجادلاتهم » .

• • •

« تكونت فى عقلية الإنسان فكرة ؛ أنه مركز الكون ، ومحور دائرة الوجود من أجله خلقت السموات والأرض . ومن أجله سخرت الرياح والأشجار والحيوانات .

Marfat.com

ومن أجله وضعت الجبال لئلا تميد به الأرض . ومن أجله جرت الأنهار مترعة بالماء ، وغورت البحار لتصلح لها جو كرته الأرضية » .

« ولعمرك أى شىء أكثر قربا من بداهة العقل فى غرارته الأولى من معتقد كهذا يقوم نتيجة لما ثبت فى روع الإنسان من أنه خلق على مثال الله ، وأنه خلق وحده مميزا على جميع الكائنات ، وأن الله حبا فيه وشفقة عليه؛أخذ يرسل إليه بالرسول تلو الرسول ليهديه الصراط السوى ، وليدخله وذراريه إلى الجنة زمرا خالدين فيها أبدا . وأنه أعدّ له هنالك الأنهار تفيض عسلا ولبنا، وقصورا بنيت بالفضة والذهب، وحورا عينا لم يطمثهن قبله إنس ولا جان ، وولدانا مخلدين يطوفون بأكواب من فضة ؟ » .

« هذا الأثر الذى خلقته هذه المعتقدات فى عقلية الإنسان فى العصور الوسطى، كان نتاجا لمعتقدات ذاعت فى ديانات الوثنية فى بابل وآشور ، والكلدان ، ومصر ، والهند ، والصين » .

« كانت موحيات الأديان فى صُورها الأخيرة آخر ما كفل هذا الرأى لترضعه بلبان الكتب المقدسة ، وتغذيه بتفسيرات المفسرين لها . لهذا لانتلكأ مطلقا فى القول بأن المعركة التى دارت حول أصل الإنسان؛ هى فى الواقع معركة قامت بين العلم والدين، فانتصر العلم وهزم الدين، ونزل الإنسان عن عرش الملائكة إلى عرش الحيوانات » .

• • •

وكتب مقالا آخر تحت عنوان « الغاية من وجود الإنسان » جاء فيه :

« هذا السؤال هو أعضل المشكلات ، وسر الأسرار، اكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الانس والجن : هى أن يعبدوا الله ، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة . إذ لو صح هذا إذن لاعتقد بجانبه بأن الله فى حاجة لأن يعبده الانس والجن ، ولظهر النظام الكونى فى مجموعه بمظهر شىء ما خلق إلا ليعضد الحياة الانسانية التى يجب أن تسخر لعبادة الله .وهذا فى معتقدى أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الانسان» .

Marfat.com

وكتب فى العدد الأسبوعى من « المصور » الصادر فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان « استفتاء » .

« جاء فى القرآن الكريم (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[1]) وقد دل العلم الصحيح على أن السماء غير مزينة بمصابيح ، بل هى فضاء غير متناه ، تناثرت فيه كرات عظيمة هائلة الأبعاد ، ومنها مايستمد ضوءه من غيره . ومنها ماهو ملتهب كشمسنا . فهل الاعتقاد بأنها ليست مصابيح مخالف للدين ؟ » .

« وجاء فى القرآن الكريم (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ[2]) وقد أثبت العلم أن السماء لا أبواب لها ، وأن الماء إنما يتساقط على الأرض بعد أن يتكاثف سحابا ، وبعد أن يعلو متبخرا من مياه الأرض . فهل هذا الاعتقاد تحديف ؟ وهل يجب أن نعتقد أن للسماء أبوابا من فوقها بحار ، إذا فتحت انهمر المطر ، وإذا أقفلت أمسك عن الانهمار ؟ » .

« وجاء فى القرآن الكريم (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا[3]) » .

« والثابت الآن أن الشهب عبارة عن نازك هي قطع منفصلة عن سيارات أو كرات أخرى هامت فى الفضاء . فإذا بلغت منطقة جاذبية الأرض تحولت نحوها ، فإذا اصطدمت بجوها احترقت من قوة الاحتكاك ، فلاحت كأنها نار تخترق الفضاء . فهل هذا الاعتقاد وهو من المبادئ الأولية فى العلم ، إذا استمسك به أحد وجب جره إلى محكمة الجنايات؟ »

« وجاء فى القرآن الكريم (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[4]) وقد عرف الآن أن

---

(١) الملك آية ٥ . (٢) القمر آية ١١ (٣) الجن آية ٨ .

(٤) الذى جاء فى القرآن الكريم (والنجم والشجر يسجدان) وهى آية ٦ من سورة الرحمن . وفى سورة يوسف آيه ٤ (إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وهى مجرد رؤية رآها سيدنا يوسف عليه السلام فى المنام .

Marfat.com

الشمس والقمر كرتان ، إحداهما ملتهبة ، والأخرى صماء ، فكيف يسجدان بمعنى السجود المعروف؟

• • •

ولم يقتصر إسماعيل مظهر على نشر الأفكار الإلحادية ، والطعن في الكتب المقدسة وتكذيبها ، وبخاصة القرآن الكريم ، بل أخذ يروج للاباحة والاستهتار بمقومات الأخلاق . انظر إلى ما كتبه تحت عنوان : « قصة الشيخ حسين ، وكيف شك ثم ألحد؟ » وهو :

« . . . وصاحب شيخنا ذات مرة بعض الشبان إلى سوق المدينة حيث اشترى أحد الذين معه فسيخاً ، فلم يضبط الشيخ نفسه ، بل شاركه الطعام على نية أنه سيصوم بدل اليوم يومين ، وكان ذلك فى رمضان . وكم كان ألمه عظيما عند ما حل موعد الافطار ، فأنبه ضميره أشد التأنيب على مخالفته لأبسط قواعد الدين ، وبات ليلته كالملسوع خوفا من أن يمسخه الله قردا ، أو عمودا من ملح ، كما ذكر فى بعض بطون الكتب. ولكن الشمس أشرقت فقام على رجليه معافى ، فلمعت عيناه استهزاء بمخاوفه التى لامحل لها ، فأغرق فى الافطار ما شاء له نهمه ، وانقضى رمضان ، والأهل يبحثون عن سارق المأكولات بين أولادهم ، ولم يخطر ببال أحدهم أن الشيخ العفيف هو اللص » .

« وقرب وقت امتحان الشهادة الابتدائية ، فدخله صاحب الفضيلة وأسنانه ترتعد فرقا من السقوط فيه للمرة الثالثة . فزين له الشيطان ، على حد قول العلماء الأعلام ، أن يوقف الصلاة طيلة مدة الامتحان ليجرب حظه دون صلاة ، وبالفعل أشاح بوجهه عن مقام السيدة الطاهرة الذى طالما قصده قبل دخول الامتحانين السابقين ، متشفعا عساها ترشد يديه لكتابة إجابات صحيحة. وفى ذات ليلة بينما كان منفردا بأحد أترابه الذين نالوا حظا من الجمال ، سولت له النفس الأمارة بالسوء أن يرتكب أمرا إدّا . ففعل مدفوعا بيد سوداء أعمت عينيه عن الطريق السوى . ولكنه فوجئ ببشرى النجاح فى الامتحا

Marfat.com

فسر كل السرور . ومن سوء حظه أوصله عقله إلى الاعتقاد بأن حسن السيرة لا يؤهل الإنسان للنجاح ، أو بالأقل لا توجد صلة بين هذا وذاك . وهكذا قطع صلته بفروض الله ولكن فى الخفاء » .

إلى أن قال « . . . فوجد أن كل المعجزات ليست إلا خرافات وسخافات ، وهكذا طلق الدين ثلاثا ، وأصبح ملحدا » .

• • •

وكان يعاون إسماعيل مظهر فى تحرير مجلته : حسين محمود ، وعمر عنايت ، وكامل كيلانى . انظر إلى ما كتبه عمر عنايت نقدا لكتاب : «تاريخ اليهود فى بلاد العرب» لإسرائيل ولفنسون فى عدد ديسمبر سنة ١٩٢٧ وهو :

« إن روح الموضوع ولا شك تنحصر فى مقدار الأثر الذى تركه اليهود فى بلاد العرب، ومبلغ تأثيرهم فى إعداد العقلية البدوية لاقتبال تعاليم الإسلام، وهو ـ أى المؤلف ـ معذور لعدم مسه هذه النقطة جديا ، لأن الجو غير قابل لهضم أمثال هذا البحث ، خصوصاً وأن صاحبه موسوى » .

إلى أن قال : « وكم كنت أود لو أخرج الدكتور بحثه هذا بلغة أجنبية ليقرأه وسط أرقى من هذا الوسط ، حتى كانت تتجلى مقدرته تماما فى كلامه عن روح هذا العصر » .

فعمر عنايت بلغ حقده على الإسلام والمسلمين إلى درجة أنه تمنى لو أن إسرائيل ولفنسون ألف كتابه بلغة أجنبية وطبعه فى خارج مصر وملأه بالمطاعن القبيحة فى الإسلام ونبى الإسلام . فهذا هو العمل القيم فى نظر عمر عنايت . والوسط الأجنبى عنده أرقى من الوسط المصرى ، لأن الوسط الأجنبى يرحب بكل ما يكتب طعنا فى الإسلام ، وهدما لأركانه. أما الوسط المصرى الذى لا يقبل مثل هذه المطاعن، فهو وسط منحط عند إسماعيل مظهر وعمر عنايت . أو هكذا سولت لهما النفس الخبيثة . وإن المقالات التى دبجها عمر

Marfat.com

عنايت فى الدعوة للصهيونية، والتى أوسع لها إسماعيل مظهر صدر مجلته؛لتدل أكبر دلالة على ما كانت عليه تلك الجماعة من الخسة والنذالة ، والخيانة والغدر ، والجحود لا بالله فقط ، ولكن بالوطن كذلك . وإنى لآنف أن أنقل للقارئ شيئا من هذه المقالات .

• • •

أما كامل كيلانى فإنه ترجم فصولا من كتاب : « نظرات فى تاريخ الإسلام » للمستشرق «بندلى جوزى» ونشرها فى «العصور» فى عدد مايو سنة ١٩٢٩ ،وقدم لها بقوله: « هذه فصول مختارة من كتاب العلامة المستشرق «دوزى» آثرنا نقلها إلى العربية لتبيان وجهة تفكير عالم أوربى كبير . وهى وإن خالفت آراءنا أحيانا، جديرة بأن تقرأ بعناية فائقة . فليس كل مالا نرضاه من الآراء خليقا بالطرح والإهمال » .

ومما جاء فى هذه الفصول التى اختارها كامل كيلانى ليتحف بها المسلمين : « كان موت النبى ، الذى كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر ؛ مؤذنا بالثورة فى كل مكان . ولقد كنت ترى الثائرين فى حيثما ذهبت رافعين علم الثورة والتمرد » .

إن بندلى جوزى باحث كبير فى نظر كامل كيلانى وأمثاله ، لأنه تحقق عنده بعد البحث والتمحيص أن العرب كانوا ينتظرون موت النبى محمد عليه الصلاة والسلام منذ زمن طويل بفارغ الصبر .

• • •

إن الفصول التى اختارها كامل كيلانى ونشر ترجمتها فى مجلة « العصور » بالذات، تدل على سوء نيته ، وفساد طويته ، وقبح سريرته ، وعظيم جريرته ولعله دخل من هذا الباب بدافع من نزق الشباب . وقال مترجما عن الإنجليزية :

كَمْ مِنْ شَرَائِعَ أَبْلَى الدَّهْرُ جِدَّتَهَا وَأَصْبَحَتْ بَعْدَ حِينٍ طَيَّ أَرْمَامِ
لِكُلِّ جِيلٍ جَدِيدٍ مَا يُلَائِمُهُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَخْلَاقِ وَالنَّامِ

لم يجد كامل كيلانى ما يعبر به عن نفسه التى كانت ثائرة على الأديان سوى هذه

Marfat.com

المعانى التى صاغها فى البيتين السابقين . فهو يريد أن يقول إن الأديان لم تعد صالحة لهذا العصر .

وأسست جماعة لنشر الإلحاد تحت ستار الأدب ، واتخذت دار العصور مقرا لها ، وكان سكرتيرها كامل كيلانى ، واسمها « رابطة الأدب الجديد » .

* * *

والحق إن إسماعيل مظهر لم تكن له شخصية مستقرة. فبينما هو يسخر قلمه فى خدمة الاحتلال البريطانى ،فيكتب منتقدا موقف المصريين الذين رفضوا مشروع ثروت ـ تشمبرلين، حيث يقول :

« الرفض المطلق الذى يشعر بأن مصر أصبحت سيدة البحار ، وأن الشمس لاتغرب عن ممتلكاتها . وأن انجلترا أصبحت بمثابة مديرية بسيطة من مديريات الصعيد الأقصى » .

« إذن فرفض المعاهدة لم يكن إلى ناحية السعى العملي إلى المصلحة العامة ، أدنى منه إلى ناحية التظاهر الأجوف ، لخدمة فكرة الحزبية » .

إذاً هو يكتب مقالات تظهر فيها روح الدعوة الشيوعية . وفى الوقت ذاته يؤلف كتابا عنوانه : « الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنسانى » .

وقد انتهز فرصة إجراء انتخابات حرة فى أوائل سنة ١٩٣٠ تمهيدا لقيام حكومة نيابية وألف حزبا دعاه «حزب الفلاح» وأخذ يردد فى مقالاته شعارات الشيوعيين. وكان بعض عملاء الشيوعية من الأرمن واليهود قد جاءوا إلى مصر لنشر آرائهم.قالت صحيفة السياسة فى ٢١ مارس سنة ١٩٣٠ مانصه : « . . . ومنذ أيام قلائل لفتنا نظر الحكومة إلى ظهور الدعوة الشيوعية فوق صفحات بعض الجرائد المحلية،ولفتنا نظرها بالأخص إلى صحيفتين بعينهما ؛ هما جريدة تسمى « روح العصر » وهى كما تصف نفسها اشتراكية سياسية . وملحق « العصور » الأسبوعى،وهو الذى يزعم أنه ينطق بلسان الفلاح المصرى. ونبهنا

Marfat.com

إلى أن هاتين الجريدتين تخصصان أنهرهما لمباحث اشتراكية وشيوعية محضة ، وتستعملان الأساليب الاشتراكية والشيوعية صراحة » .

• • •

ولما رأى إسماعيل مظهر وعصابته أن أمرهم قد انكشف ، وأن الشرطة تراقب حركاتهم واجتماعاتهم ، أغلق مجلته « العصور » وتفرقت عنه جماعته ، وأنكره أصحابه ومعارفه . وكاد كامل كيلانى يفصل من وظيفته بوزارة الأوقاف بسبب ما ترجمه عن بندلى جوزى ، وبسبب اتصاله بتلك الجماعة ، لولا أنه ارتمى على أقدام بعض الكبراء ، وبذلك نجا من ضرر محقق . وقد عرفت كامل كيلانى بعد أن تجاوز مرحلة الشباب فوجدته إنسانا فاضلا ، متدينا ، شديد الإيمان بالله ، رحمه الله رحمة واسعة .

• • •

ومن الشعراء الذين نشروا بعض شعرهم فى مجلة العصور الشاعر عبد اللطيف ثابت ، ويبدو من بعض شعره أنه كان يشك فى حقيقة الأديان ، قال :

وَمَنْ يَدْرِ عَلَّ الْأَنْبِيَاءَ تَكَذَّبُوا ... وَمَا الْأَصْلُ فِيمَا بَلَّغُونَا هُوَ الْأَصْلُ

وَنَاصَلَنَا بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ مُنَاضِلٌ ... وَفَوْقَ الذِى قَالُوا لِنُوقِنَهُ سَدْلُ

• • •

وكان الزهاوى عميد الشعراء المتشككين فى عصره ، ومما نشرته له العصور :

لَمَّا جَهِلْتَ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَمْرَهَا ... وَأَقَمْتَ نَفْسَكَ فِى مَقَامِ مُعَلِّلِ

أَثْبَتَّ رَبًّا تَبْتَغِى حَلًّا بِهِ ... لِلْمُشْكِلَاتِ فَكَانَ أَكْبَرَ مُشْكِلِ

وقدمت « العصور » فى أكتوبر سنة ١٩٢٨ قصيدة للزهاوى بقولها :

للزهاوى مبدأ معروف ، هو أن القصد المظنون وجوده فى الطبيعة ، هو من عمل الأثير المحرك لأجرام الكون ، كما أنه فى الحيوان ، ولاسيما الإنسان من عمل الكهربائية التى هى صورة من صور الأثير » .

Marfat.com

« ويرى أن الأثير هو « الله » و «الكون» معا . وأن هناك حياة راقية عامة لخلايا الأجرام فى كيان اللانهاية ، وهى صبغة الأثير الذى « لا إله إلا هو » . وأن حياة الحيوان والنبات هى صور ابتدائية لتلك الحياة القائمة بخلاياها من أجرام السماء . وأن الطبيعة لا تتناهى . فمن الشطط الاعتقاد بوجود خالق مدبر خارج عنها ، أو غير خارج عنها ، ولا داخل فيها ، يدبرها بحكمته البالغة تعليلا لحوادث الكون المختلفة ، وهو فى هذه الفكرة قريب جهد القرب من فكرة الذين يقولون بوحدة الوجود مجردة عن الغيبيات التى تقوم عليها الأديان » .

ومما جاء بهذه القصيدة :

قَالُوا سَيَجْزِينَا عَلَى أَعمَالِنَا مُفتَتِنا
فَقُلْتُ هَذا بَاطِلٌ مَا إِنْ يَكُونُ مُمكِنا
هُوَ الَّذِى أَرَادَ أَنْ نُسِيءَ أَوْ أَنْ نُحْسِنَا
وَهْوَ الذِى صَيَّرَ مِنَّا مُلْحِدًا وَمُؤْمِنا
إِذَا جَنَيْتُ مُكْرَهًا فَهَلْ أَنَا الذِى جَنى ؟
وَهَلْ عِقَابُهُ مِنَ الْعَدْلِ الذى قَدْ أَعْلَنَا ؟
وَهَلْ لنَا إِنْ شَاءَ أَنْ نَغْوِى سِوَى أَنْ نُذْعِنَا ؟
وَهَلْ عَنِينَا فى حَيَاةِ الْأَرْضِ إِلا مَاعَنى ؟
أَلم نكُنْ لِمَا قَضَى بِهِ مِثَالاً حَسَنَا ؟

• • •

أحدثت هذه الحركات الإلحادية رد فعل بين المسلمين . فتأسست الجمعيات الدينية لنشر الوعى الدينى ومقاومة الإلحاد . ففى سنة ١٩٢٩ تألفت فى مصر جمعية الشبان المسلمين وظهرت على أثرها جمعيات كثيرة ، منها ماهو قائم إلى اليوم ، ومنها التى اختفت لأنها تركت مهمتها التى أنشئت من أجلها واشتغلت بالشئون السياسية .

Marfat.com

ونشطت حركة التأليف الدينى نشاطا لم يسبق له مثيل .

أما هذه الحركات الإلحادية التى ظهرت فى تركيا وفى مصر وفى غيرها من البلدان الإسلامية ، فقد انتهت إلى الإخفاق التام ، وأصبح المسلمون أكثر فهما للإسلام ، ولروح الإسلام من الأجيال السالفة .

ولقد رجع إسماعيل مظهر إلى حظيرة الإسلام . انظر إلى ما كتبه فى صحيفة « الأخبار » فى ٨ / ٩ / ١٩٦١ تحت عنوان : « الإسلام ومفهوم النظم الاجتماعية » .

« الإسلام دين جامع . أقصد بذلك أن الإسلام رسالة للبشر أجمعين ، لا لقوم دون قوم ، ولا لقبيل دون قبيل ، ولا لأبيض دون أسود ، بل دعوة شاملة للعالمين ، تقيم بين الناس العدل ، وتهيئ كل الفرص لجميع الذين تظلهم بسلطانها أن يعيشوا بكرامة آدمية . والنصوص على ذلك كثيرة متعددة (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ) . « سبأ » .

ثم قال : « هذا هو الإسلام ، وهاهي ذى روحه التى يقوم عليها : دين حر ، ودولة حرة » .

ثم قال : « إن الإسلام بروحه هو دين المقاربة فى فرص الحياة بين الناس ، ودين المساواة فى معنويات الحكم . فلكل من يظله الإسلام كرامة مساوية لكرامة غيره ، وله على الدولة حق الحياة بكافة معانيها ، روحية ومادية . ولا شك فى أن نظم التفارق الطبقى الصارخ الذى ورثته دولات الإسلام عن الرومان وفارس قد عطلت المعنى الأسمى الذى ينشده الإسلام لكل مجتمع إنسانى ، بلا تفرقة بين عقيدة ، أو لون أو جنس ، أو أى من تلك الفوارق التى تنخر الآن عظام الحضارة الحديثة » .

ومنها : إن المسلمين بعدوا عن الإسلام ، ومن ثمة بعدوا عن الحياة . لقد بعدوا عن روح الإسلام ، ولن يستعيدوا مجدهم إلا بعد أن يفهموا روح هذه الرسالة النورانية ، على أنها رسالة إنسانية جعلت أصلا من أجل الإنسان » .

Marfat.com

« . . . فالإسلام فى حقيقته رسالة بسيطة ظاهرة المعالم ، بينة الحدود ، بعيدة عن مماحكات المنطق وسرحات الباطنية والتصوف . أساس الإسلام : إله حق ، ورسول أدى رسالة ، وإنسان أديت إليه . والإنسان فى الإسلام هو المحور الذى تدور من حوله رسالة الإسلام وتعاليمه العليا » .

٨٢ من ذى القعدة ١٣٩٩ هـ   من أكتوبر ١٩٧٩

تحيتى وتمنيتى الطيبة لكم ولدولتكم الكريمة حقيقة لقد عرفنا جهدكم واجتهادكم وذلك مشهور فى جميع أنحاء العالم. نشكرا لكم لتنبيه رجال الدين على ما يضرهم فى دينهم ودنياهم على فتنة الوهابية لديننا المحمدية، لقد عرفنا أيضا بمركزكم بجميع ما دار بين محمد على باشا أمير مصر منذ ١٠٠ سنة وشريف غالب والوهابيين وبما فعله ابن محمد على البسمى إبراهيم باشا. حقا لو كان فى العالم مثلكم أنتم ومحمد على باشا وابنه إبراهيم لما أمكن للوهابيين أمكن لهم كدخول مكة وغيره ولكن إن شاء الله سنغلبهم ونخرجهم بإذن الله تعالى فى قريب وبعد سأطيل الكلام قليلا لأنى كنت أريد أن أذهب إليكم مع وفد من جماعتى.

نرجو منكم عددا كثيرا من الكتب الآتى ١ـ فتنة الوهابية. لأن الناس ما عرفوا حقيقة إضلالهم من وجهلهم ولكن إذا وجدنا ذلك الكتاب سندرسهم بإذن الله ونفهمهم هم ما قبة من فتنة الوهابيين وإضلالهم.

ـ التوسل بالنبى وجهلة الوهابيين لنعرفهم حقيقة التوسل به وبالأولياء.

ـ الصواعق الإلهية فى الرد على الوهابية. لكى نرد عليهم لأن السنة هم جدادا وليس لنا كتب ولا حيل لنرد عليهم

جمعيتنا الآن يبلغ عدد تلاميذها ٦٠٠٠ تلميذ

تبلغ عدد طلاب الثانوية ٦٠٠ طالب وعدد الطلبة فى المعهد تبلغ ٥٠٠ طالب وزيادة كل تلميذ فى الابتدائية الأحسن أن يكون له كتابا ضمها حتى ولو كان للبيع أهلا وسهلا ولا القر فى رغبتى أن أذهب هناك مع وفد لنتحدث أمورنا للولدا المصلحين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

أخوكم المخلص ابراهيم عثمان جالو

المشرف العام لجميع مدارس جمعية أنصار الإسلام بسيراليون

وأنا أيضا الكاتب العام ... المحافظة على القرآن الكريم

SIERRA LEONE

Mr. I. U. JALLOH – SENIOR ARABIC HEADMASTER – ANSARUL ISLAMIC MISSION – P. O. BOX 85, TANKORO SEFADU – REPUBLIC OF SIERRA LEONE
W. A.

Marfat.com

بسم الله العظيم والصلاة والسلام على رسوله سيدنا محمد الكريم

٢٠/ ١٠/ ١٩٧٩.

العلامة الأجل الأديب الأمثل الفاضل ذو المكارم سعادة سيدي:
حسين حلمي بن سعيد استانبولي.
أدام الله بقاءكم وزاد علوكم وارتقاءكم. وسلامٌ لحضرتكم أسنى وتحياتٌ حُسنى.

وبعد:
فما يسعني الآن إلا أن أتوجه إليكم بجزيل الشكر معترفا باللسان معظما بالجنان سعيكم المشكور زادكم الله عزا وشرفا دنيا وأخرى. فوالله كتبكم ما حلت بساحة قوم إلا طهرتها ولا عقول إلا صقلتها من حبائل المنحرفين كجماعة الوهابية والشيعة وإن كانت قليلة جدا في كامل المغرب العربي.
أما الجماعة التي كثر هرجها وتشويشها هنا هي جماعة الاخوان المسلمين الذين انتحلوا الافكار الوهابية وانحرفوا عن عقيدتهم الاول وهو ينشر الدين على مذهب الكتاب والسنة بكل رفق وتؤدة وهم الآن يحاربوننا حتى أصحاب الطريقة الشاذلية وشددوا علينا النكير خاصة في مسألة التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما اتصلت بأحد منهم وسلمت له بعض كتبكم إلا واستغفر وقال ما كنت أعلم أن مثل هذه الكتب توجد.
وعلى كل حال فبركات كتبكم لا تخفى على عاقل أسأل الله أن يزيدكم نشاطا على نشاط وفضل الله المجاهدين على القاعدين.
والآن التمس من جنابكم السامي أن ترسلوا لي ما ترون من الكتب فيه نفعا وخاصة من الكتب التي لا أملكها.

والسلام.

محبكم: محمد الحسني

REPUBLIQUE TUNISIENNE

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ابداع الخلق. بلا مثال سبق. والصلوة والسلام على من أرسل رحمة للخلق. وآله وصحبه الآمنين من ضلال قلق.

وبعد فالى الشيخ المعظم. والاستاذ المكرم وخادم الملة والاسلام ومفنى نفسه فى اعلاء كلمة الله السليم. ورافع عقائد الاسلام ومبطل عقائد الضلال والصنم. مولانا حسين حلمى بن سعيد استانبولى من العبد الفقير افضل العلماء المولوى محمد خان الفاضل الباقوى

وصل الى القول الفصل شرح الفقه الاكبر. وكتب شتى من قبل ذلك فرحت بما ارسلتم وعلمت ما فيها من المعلومات الدينيات. ودرست منها معلومات مهمة لتلامذتى. واشكر لله ولكم شكرا جزيلا.

خدمتكم هذه هى الحيوة للاسلام لاسيما فى هذا الزمان الكثير فيه البدعات. وعملكم هذا هو افضل الصلوات والتحيات. لعل الله تعالى لدوام مكتبة ايشيق. وبارك فى حسين حلمى بن سعيد استانبولى علامة العصر وحيد الزمان والعصر الدر النفيس لا يقوم له التجار. الفرد الشفيق على اهل السنة بالسرور.

التمس منكم ان ترسلوا الى كتب الاهم منها الانوار المحمدية ارغم المولى فى شتى ترسل المريد ٣٠. فتاوى الحرمين فى رجف ندوة المين ..... ووهي كتب مهمة. وانتظر الانوار المحمدية اشد الانتظار

علي هدا
افضل العلماء المولوى
محمد خان العالم الفاضل الباقوى
صدر المدرسين
الكلية العربية منبع السعادة
بتانتم. تيلم. ترجى. تملنا
ند

٩.١٠.١٩٧٩
M.S.A. COLLEGE
PUTHA NATHAM
621 316
INDIA

از مولوی محمد فضل الله جان حقانی
لاهور تحصیل صوابی ضلع مردان

No 106 — Dated ١٥ ذی القعدہ ١٣٩٠ھ

الموافق ٢٣ اکتوبر ١٩٧٠ء یوم الاحد -

الی داعی الحق - وارث الانبیاء خادم الاولیاء الاصفیاء

ل علیہ فضل من فیضان الاولیاء حسین حلمی ایشق بن سعید استانبولی

الحمد لله الذی اتم علینا نعمته ورضی لنا الاسلام دینا - وانزل القرآن شفاء لما فی الصدور ونورا مبینا - والصلوة والسلام علی محمد الذی ارسله رسولا امینا - وعلی آله وصحبه والعلماء الذین نشروا الویة الاسلام - ورفعوا رایات العلم والدین بالاخلاص -

وبعد فلا یخفی علی کل واحد فی ای ناحیة کان - ان اخانا فی الله حسین حلمی بن سعید استانبولی قد اخذ حظا وافرا من میراث الانبیاء فصار للاسلام ناشرا ومعینا - لاسیما فی هذا الزمان الذی قد شاعت الفتن کثرت الفرق الزائغة عن السبیل فصار لکل فرقة سیفا مسلولا ودفع اسم الفرقة الناجیة التی شهد لها النبی بالنجاة من النار - وقام لنشر العقائد الصحیحة المستفادة من کلام الله وسنة رسوله واجماع امته [illegible] [illegible] ینفق فیها من صحته وماله وطاعته - فالله نسئل ان یوفقه وایانا بالمزید لخدمة الدین علی ناشری عقائد السلف الصالحین وائمة الدین - آمین یا رب العالمین

Marfat.com

٦/٨/١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام

على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين

الطاهرين

حضرة السيد الفاضل المحترم

ذلك السيد/ حسين حلمي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرني أن أبادر بالمكاتبة لهذه المرة

لاحاطتكم علما بأنما تبعثونه إلينا من كتب

اسلامية صوفية تصلنا بكل سلامة

فالله وحده يجازيكم على اعتنائكم بمشروعكم

الجميل والله لو كان لي طاقة لمددت يد المعونة

لهذا المشروع الكثير النفع ولكن كيف الطيران

بلا جناح وندعو لكم ولكافة المسلمين أن يرشد

العامة الى ما فيه الخير والسعادة سترونه

مني في هذه المرة بعض العناوين في الكرت

يطيب لي جدا ان تقوموا ببعث الكتب النافعة

الى أصحابها في وقت مناسب والله لكم معين

فاشهدكم الله باني قمت بالواجب نحو كتبكم

من حيث نشرها بين الأهل والاصحاب والرفاقة

هذا والسلام

عليكم ورحمة الله

وبركاته

مندمند موسى سيسي

استاذ العلوم الشرعية بمدينة

سانه جمهورية مالي

REPUBLIQUE DU MALI

حامد — ومصلیاً

فانوس بن کے جسکی حفاظت ہوا کرے

وہ شمع کیا بجھے جسے روشن خدا کرے

بسم اللہ الرحمٰن الرحیم

هذا الخطّ من صدر المدرسين محدّث الشيخ عطاء الرحمٰن الثرابي

إلى سيد نادر رفيقنا خادم الاسلام وناصر المسلمين وكريم الناس مطيع الله ورسوله ماحي الكفر والشرك قاتل الوهابيين الضالين المضلين رئيس المسلمين في زماننا بل في كل زمان محي الدين البيّن الذي اهلكه الوهابيون الفاسقون المرتدون :-

:- حسين حلمي بن سعيد استنبولي تركي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛

اما بعد فقد كثر في بلادنا واوطاننا فتنة الكفر والفسق وغيرهما من الفتن والمعاصي فنقابلهما كل يوم ووقت حتى اخلينا علاقتنا من تلك الفتن وكثرت افرادنا حتى بلغنا الى الالوف لكن الآن بعد قلة الفتن في علاقتنا ظهر بعض الفتن وتشيع لها بعض رجال الوهابيين الضالين المضلين المشهورين في ملكنا بالفنج بيريانے التائدين للوهابيين :-

فلهذا اطلب منك لبعض الكتب المعتبرة في دلائل مسائل الدين كمسئلة الوسيلة والدعاء وغيرهما من المسائل الكثيرة الفرعية لان الوهابين ينازعوننا ويضلون الناس في تلك المسائل سيما افرادنا المخصوصة ثم اقول بالعجز والاحترام يا شيخ فعليك بارسال الكتب لاني محتاج اليه بالاحتياج الكثير وان لم ترسلهن فيضل الوهابيون افرادنا عن الدين فقط مع الاحترام :- ے

(واپسی پتہ) ضلع سوات ڈاکخانہ منگلور دارالعلوم اسلامیہ سیدو شریف مولوی عطاء الرحمن ثرابی

Marfat.com

الكتب العربية المطبوعة فى مكتبة اشيق كتاب أوى

١ ـ علماء المسلمين و وهابيون	صفحه:	١٦٣	١٩١٣
٢ ـ المنحة الوهبية فى رد الوهابية	صفحه:	١٦٠	١٩١٣
٣ ـ المنتخبات من المكتوبات للامام الربانى	صفحه:	٢٤٠	١٩١٣
[illegible]	صفحه:	١٠	١٩١٣
٥ ـ تاريخ الدولة العثمانية	صفحه:	٢٦٤	١٩٨٠
٦ ـ خلاصة التحقيق	صفحه:	٢	١٩١٤
٧ ـ خلاصة الكلام (الجزء الثانى)	صفحه:	١١٢	١٩١٤
٨ ـ اثبات النبوة ، مفتاح الفلاح	صفحه:	[illegible]	١٩١٤
٩ ـ حجة الله على العالمين (الجزء الثانى)	صفحه:	١١٠	١٩١٤
١٠ ـ المستند المعتمد	صفحه:	١٦٠	١٩١٥
١١ ـ التوسل بالنبى وجهلة الوهابيين	صفحه:	٢٠٤	١٩١٥
١٢ ـ الصواعق الالهية فى الرد على الوهابية	صفحه:	١٣،٦٤	١٩١٥
١٣ ـ خبة اللآلى شرح قصيدة الامالى	صفحه:	١٤٤	١٩١٩
١٤ ـ البصائر لمنكرى التوسل بأهل المقابر	صفحه:	٢٦٤	[illegible]
١٥ ـ القول الفصل شرح الفقه الاكبر	صفحه:	٢٠١	[illegible]
١٦ ـ الدولة المكية بالمادة الغيبية	صفحه:	١٥٢	١٩١٥
١٧ ـ الدرر السنية فى الرد على الوهابية	صفحه:	١٠٢	[illegible]
١٨ ـ انصاف. عقد الجيد. مقياس القياس	صفحه:	١٥	١٩١٦
١٩ ـ الفجر الصادق فى الرد على المنكرى التوسل والخوارق. ضياء الصدور	صفحه:	٢٢٠	١٩١٦
٢٠ ـ ضلالات الوهابيين. مبحث التلقين اوراق البغدادية فى الحوادث النجدية	صفحه:	٦٩	١٩١٦
٢١ ـ تطهير الفؤاد. شفاء السقام	صفحه:	٢٣٢	١٩١٩
٢٢ ـ سيف الجبار	صفحه:	٤١	١٩١٥
٢٣ ـ الفقه على المذاهب الاربعة (الجزء الاول)	صفحه:	٣٣٥	١٩١٥
٢٤ ـ الفقه على المذاهب الاربعة (الجزء الثانى)	صفحه:	٣١٢	١٩١١
٢٥ ـ الفقه على المذاهب الاربعة (الجزء الثالث)	صفحه:	٢١١	١٩١٩

Marfat.com

٢٦ ـ الانوار المحمدية (الجلد الاول)	صفحه	٤٠٠	١٩٧٤
٢٧ ـ تسهيل المنافع، الطب النبوى	صفحه	٢٠٨	١٩٧٦
٢٨ ـ صرف عربى وعوامل	صفحه	٩٦	١٩٧٥
٢٩ ـ كتاب الصلوة	صفحه	٣٢	١٩٧٥
٣٠ ـ جزء عمّ من القرآن الكريم	صفحه	٢١	١٩٧٥
٣١ ـ المنقذ من الضلال، لجام العوام عن علم الكلام	صفحه	١١٢	١٩٧٦
٣٢ ـ المسائل المنتخبة، التوسل بالموتى	صفحه	١٠٢	١٩٧٦
٣٣ ـ الحديقة الندية فى آداب الطريقة	صفحه	٨٠	١٩٧٧
٣٤ ـ فتنة الوهابية	صفحه	١٦	١٩٧٥
٣٥ ـ البهجة السنية	صفحه	١٠٢	١٩٧٧
٣٦ ـ تفسير سورة البقرة (الشيخ زاده)	صفحه	٦٠٠	١٩٧٧
٣٧ ـ مختصر (التحفة الاثنى عشرية)	صفحه	٣٥٢	١٩٧٦
٣٨ ـ كتاب الاشباه من رد المحتار	صفحه	١٦٣	١٩٧٨
٣٩ ـ السعادة الابدية فى مناقب النقشبندية	صفحه	٤٨	١٩٧٧
٤٠ ـ الناهية عن طعن المعاوية، الحجج القطعية	صفحه	١٦٠	١٩٨٠
٤١ ـ فتاوى الحرمين برجف ندوة المين	صفحه	١٠٤	١٩٧٧
٤٢ ـ الحديقة الندية للنابلسى (الجلد الاول)	صفحه	٤٠٠	١٩٧٧
٤٣ ـ الحبل المتين فى اتباع السلف الصالحين	صفحه	٢٤	١٩٧٧
٤٤ ـ سبيل النجاة من بدعة أهل الزيغ والضلالة	صفحه	٣٢	١٩٧٧
٤٥ ـ النعمة الكبرى على العالم فى مولد سيد ولد آدم، الرد على من انكر قرائة مولد النبى	صفحه	٩٦	١٩٧٧
٤٦ ـ ازغام المريد فى شرح توسل المريد	صفحه	١١٢	١٩٧٧
٤٧ ـ الاستاذ المودودى، جماعة التبليغ	صفحه	٧٣	١٩٨٠
٤٨ ـ الأدلة القواطع فى حكم ترجمة الخطبة فى الجوامع	صفحه	٢٤	١٩٧٧
٤٩ ـ منهل الواردين من بحار الفيض على ذخر المتأهلين فى مسائل الحيض	صفحه	٥٣	١٩٧١
٥٠ ـ هدية المهديين	صفحه	٧٢	١٩٧٤

Marfat.com

Marfat.com

Işbu (Ed-devletül-Osmâniyye) kitabını Mekke-i mükerreme şehrinin büyük âlimlerinden, Şâfi'i müftisi Ahmed bin Zeynî Dahlan yazmışdır. Osmanlı devletinin kuruluşunu, yayılmasını ve bu büyük imperatorluğun parçalanmasını bildirmekde, Osmanlı pâdişahlarının islâm dinine yapdıkları hizmetleri, adâletlerini, güzel ahlaklarını yazmakdadır Bu arada, vehhâbilik fitnesini, bu sapıkların Arab yarım adasındaki müslimanların ve islâm memleketlerinden gelen hâcıların mallarına, canlarına barbarca saldırdıklarını, islâmiyyete yaptıkları düşmanlıkları ve bu fitnenin Osmanlı Türkleri tarafından önlendiğini ve yapdıkları zararların, tahrîblerin tâmîr edildiğini açıklamakda ve Osmanlılardan sonra ortaya çıkan dinde reformcuların, mezhebsizlerin bölücü, yıkıcı hareketlerini anlatmakdadır. Kitâp arapçadır. İlk olarak 1304 [m. 1887] senesinde basılmışdır. İçinde Osmanlıca yazı hiç yokdur.

IŞIK KİTÂBEVİ

TL.

Marfat.com

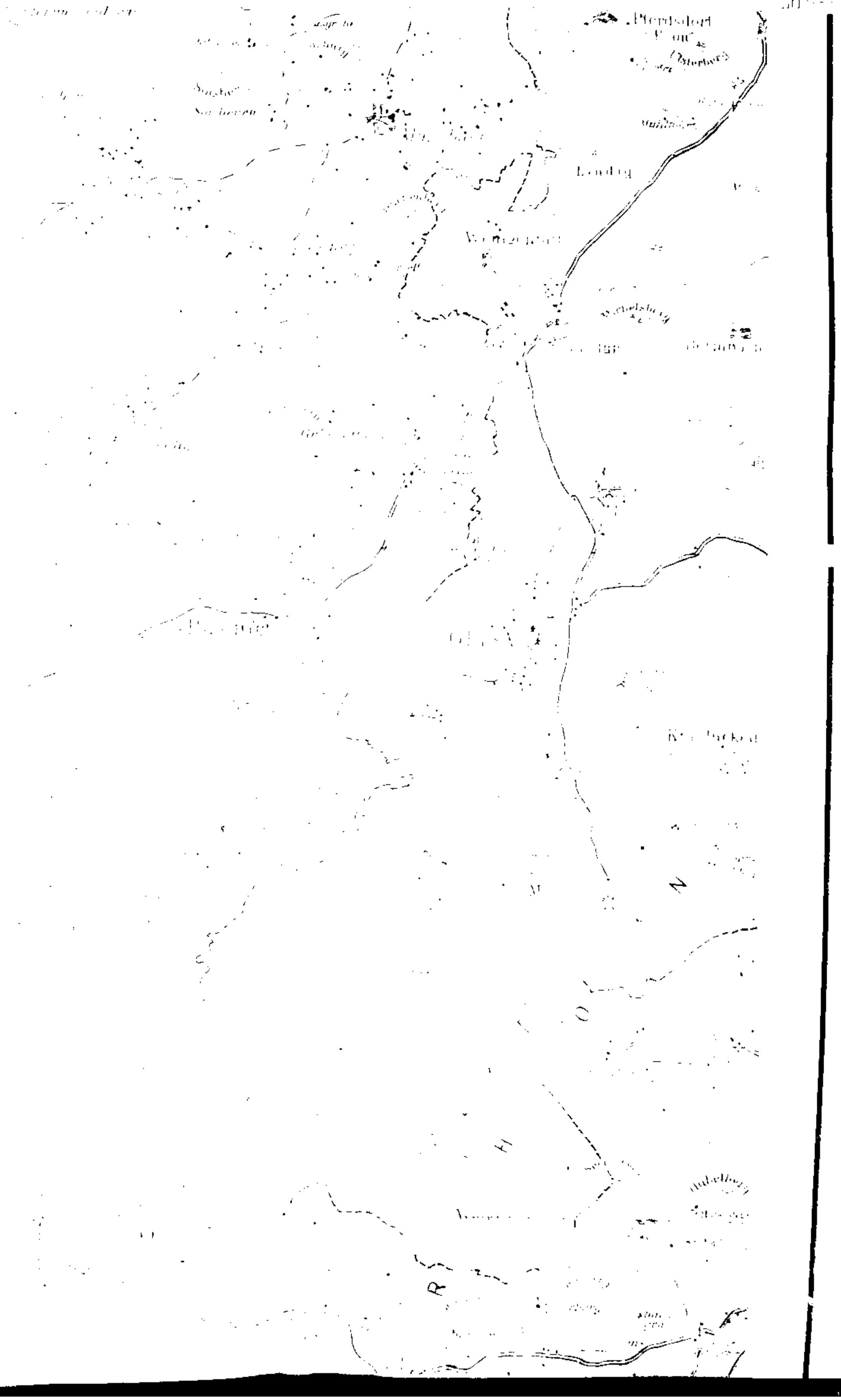

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com